التضحية للذئب

قصة عن الإبادة الجماعية في البوسنة والهرسك

تقديم
الأستاذ الدكتور/ محمد الدسوقي

ترجمة
الأستاذ/ أحمد فؤاد بوكفنش

تأليف
مرصاد سينانوفتش

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة


التضحية للذئب
قصة عن الإبادة الجماعية في البوسنة والهرسك

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ / ٢٠١٠ م

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشئون الفنية

سينانوفتش، مرصاد .

التضحية للذئب: قصة عن الإبادة الجماعية في البوسنة والهرسك / تأليف مرصاد سينانوفتش ؛ تقديم محمد الدسوقي؛ ترجمة أحمد فؤاد بوكفتش؛ مراجعة إهام محمد صبري بيرة جكلي ، أنور سالم عبده. القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، [٢٠١٠م] .

٢٠٠ ص ؛ ٢٤سم .

تدمك ٥ ٩٣٥ ٣٤٢ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - القصص العربية التاريخية .

٢ - البوسنة والهرسك .

أ - الدسوقي ، محمد (مقدم) .

ب - بوكفتش ، أحمد فؤاد (مترجم) .

جـ - جكلي ، إهام محمد صبري بيرة (مراجع)

د - العنوان . ٨١٣,٠٨١

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عمر الجائزة تتويجا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية

الإدارة : القاهرة : ١٩ شارع عمر لطفي موازٍ لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشربيني - مدينة نصر هاتف : ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)

المكتبة : **فرع الأزهر** : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)

المكتبة : **فرع مدينة نصر** : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)

المكتبة : **فرع الإسكندرية** : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)

بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩

البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com

موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com



قصة عن الإبادة الجماعية في البوسنة والهرسك

تأليف

مرصاد سينانوفتش

تقديم

الأستاذ الدكتور/ محمد الدسوقي

ترجمة

الأستاذ/ أحمد فؤاد بوكفتش

مراجعة

الأستاذة الدكتورة/ إهام محمد صبري بيره جكلي

الأستاذ/ أنور سالم عبده

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى جدتي الجليلة هاجر

رحمة اللّه عليها....

أسماء الأشخاص والقرى والمدن حقيقية

ولكن أهم ما في هذه الرواية



هو العِبرة لأن الأحداث والتاريخ

- كما يقولون -

يعيد نفسه.

تقديم

بقلم: أ.د. مُحَمَّد الدُّسُوقي
كلية دار العلوم جامعة القاهرة

لم يعرف التاريخ الإنساني في الماضي والحاضر ذلك الحقد الأرعن والتعصب الأحمق، والإسراف الباغي في سفك الدماء وقتل الأبرياء الذي كان من الصرب ضد المسلمين في البوسنة والهرسك؛ فقد كانوا يخططون لإبادة المسلمين ومحو آثارهم المقدسة لبناء صربيا الكبرى، وقد وجدوا من الدول الغربية والشرقية مؤازرة ومساعدة تمثلت في مدِّهم بالسلاح والأموال وتجاهل ما يقوم به الصرب من مجازر وحشية وهمجية، وكان الجميع على يقين من أن الصرب سيبيدون المسلمين في عدة أشهر وتنتهي المشكلة، ويتحقق للباغي الصربي ما يخطط له، ولكن خاب ظنهم؛ لأن أهل الحق على الرغم مما تعرضوا له، جاهدوا في اللّٰه حق جهاده، واستطاعوا أن يستردُّوا قراهم ومدنهم التي دمرتها العقلية الصربية الباغية، وأن يلحقوا بهؤلاء البغاة الهزيمة في كثير من المواقع، وهنا تحركت القوى الدولية لفرض السلام؛ لأنها أدركت أن موقفها السلبي لن يكون في صالح المعتدين وأن المارد الإسلامي سيسحق الطغاة ويفرض كلمته وإرادته..

وقصة التضحية للذئب تصور طرفًا مما ارتكبه الصرب من إجرام بشع تمثل في ذبح المسلمين في جنح الليل في منطقة فوتشا وحرق البيوت، وانتهاك حرمات النساء والأطفال والشيوخ وتدمير المساجد على مرأى ومسمع؛ بل وتحريض من رجال الدين المسيحي، والذين نسوا ما قاله سيدنا عيسى عليه السلام: من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر، وظن هؤلاء أنهم بما يفعلون ينصرون دعوة المسيح، ولكن المسيح براء منهم؛ لأنه دعا إلى السلام ونصرة الحق، ومقاومة الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون.

وهذه القصة تقدم الحقيقة الدامغة في أسلوب حواري لا يعرف خيالًا بعيدًا عن الواقع، لقد عرضت للأحداث بصورة فنية موضوعية؛ ومن ثم فهي تعد دراسة تاريخية لأحداث حية في ثوب قصصي.

ومما يؤكد صدق كل ما جاء في هذه القصة عن الجرائم الصربية ما شاهدته في

رحلتي إلى البوسنة والهرسك في صيف عام (١٩٩٦م) فقد سافرنا من عاصمة كرواتيا إلى سرايفو بسيارة وأبى السائق أن يسلك طريقًا نصل منه إلى العاصمة البوسنية في نحو ست ساعات؛ لأن الصرب يسيطرون على جزء من هذا الطريق، وهم لا يتورعون على الرغم من وقف القتال من قتل كل من يمر بهم إذا كان مسلمًا، وآثر السائق أن يسلك طريقًا آخر وإن كان أطول..

وبعد اجتياز الحدود الكرواتية والدخول في أرض البوسنة وقفت السيارة في قرية بوسنية كان الصرب قد احتلوها، ودمَّروا كثيرًا من بيوتها، ولكن المجاهدين الأبطال حرَّروها واسترعى انتباهنا وقوف السيارة أمام منطقة خالية من البنيان، واكتست أرضها الأعشاب الخضراء، ولاحظنا أن بهذه الأرض محرابًا خشبيًّا وضع في اتجاه القبلة، وبالسؤال عن سرِّ وضع هذا المحراب قيل لنا: كان هنا مسجد كبير دمَّره الصرب ولم يكتفوا بالتدمير، وإنما نقلوا كل أحجار المسجد بعيدًا، حتى يُنسى أنه كان هنا مسجد، فلما تحررت القرية، وضع المسلمون هذا المحراب للصلاة في هذا المكان، وإشارة إلى الإصرار على بناء المسجد مرة أخرى، وقد أدينا في هذا المكان صلاة الظهر والعصر جمعًا وقصرًا..

ومما هو جدير بالذكر أن بجوار هذه البقعة التي كانت مسجدًا كنيسة لم تمس بسوءٍ من المسلمين؛ لأن الإسلام يحرم الاعتداء على أماكن العبادة مهما تكن عقائد الذين يعبدون.

وفي منطقة بهاتش سمحت لنا قوات الجيش البوسني أن ندخل بعض هناجر الطائرات، وكانت المفاجأة القاسية أن نشاهد في هذه الهناجر أكثر من ثمانين جثة لرجال بملابسهم المدنية أخرجت من بركة، إنها صورة من صور الإبادة الجماعية التي قام بها الصرب، دون احترام لقوة دولية تحمي السلام، أو التزام بقرارات لمجلس الأمن.

ولا مجال للحديث عما شاهدته وعرفته من جرائم الصرب بشيء من التفصيل، وما أومأت إليه ليس إلا دليلًا واحدًا من عشرات الأدلة التي تقضي بأن الصرب ارتكبوا جرائم وحشية يجب أن يعاقبوا عليها عقابًا رادعًا، ولكن للأسف الشديد لم تنجح المحاكم الدولية لمعاقبة مجرمي الحروب في إنزال العقاب بالصرب ومن عاونهم.

إن قصة « التضحية للذئب » تسجيل حي لبعض جرائم الصرب في البوسنة، وأقترح دراسة هذه القصة في كل المدارس في العالم الإسلامي؛ لأن من لم يهتم بأمر المسلمين

فليس منهم. وأطمع أن يتبنى المؤتمر الإسلامي تشكيل لجنة علمية لكتابة تاريخ الصراع الدامي بين المسلمين والصرب، ليكون للأجيال القادمة عبرةً ودرسًا، وحتى لا تتكرر تلك الجريمة التي لم يعرف لها التاريخ نظيرًا في العصر الحديث، اللَّهم إلا على أيدي الصهيونية في أرض فلسطين وتخطيطها العدواني الحاقد لهدم المسجد الأقصى وإخلاء الأرض من أهلها.

شكرًا جزيلًا للمؤلف والمترجم، سائلًا اللَّه أن يكون هذا العمل في ميزان الحسنات، وأن يسبغ على جميع الشهداء في البوسنة النعيم المقيم والخلود في جنة فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

والحمد للَّه رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحابته أجمعين.

أ.د. محمد الدسوقي
كلية دار العلوم جامعة القاهرة

المُقَدِّمَة

سبب تأليفي لكتاب « التضحية للذئب »

موضوع قتل المسلمين وإخراجهم من وطنهم البوسنة والهرسك أثناء الحرب ما بين (١٩٩٢ - ١٩٩٥م) قد شغل بالي منذ بداية هذا القرن، وأصبحت الكتابة عن تلك الأحداث لا بد منها. وقد اعترفت محكمة لاهاي بوقوع إبادة جماعية للمسلمين (البوشناق) ببلدة سريبرينيتسا البوسنية - الواقعة وسط أوروبا - وأصدرت حكمًا بذلك. وبهذا تعد هذه الإبادة حلقة في سلسلة حلقات سبقتها، وتشهد على تاريخ مأساوي للشعب البوسني. فقد أوذي هذا الشعب في تاريخه إيذاءً شديدًا، واشتد إيذاؤهم خاصة بعد اعتناقهم للإسلام.

وقد تحدث عن ذلك بدقة المؤرخ البوسنوي الدكتور أنور إمامفتش في كتابه « أصول البوسنة وسكانها » فذكر فيه أن الحفريات الأثرية تشهد على ماضٍ مروع. وكذلك المساكن العديدة التي اكتشفت في جميع أنحاء البوسنة والهرسك، والتي يرجع تاريخها إلى الفترة بين أربعة وخمسة آلاف سنة قبل هذا التاريخ، وتشهد على الخاتمة المأساوية لسكانها. جميعها نهبت ثم دمرت وأحرقت. وينطبق الأمر نفسه على آثاركشفت في فترات لاحقة. فبقايا من الرماد والهياكل العظمية البشرية المكسورة منها والسليمة أدلة على أحداث مروعة وقعت في الماضي. وصور الهياكل العظمية التي وجدت على هيئاتها تدل على أن ذلك حدث بفعل فاعل. وفي بعض الحالات وُجدت العشرات من الهياكل العظمية دون الرؤوس والأطراف وأغلبها لأطفال وبعضها مشتبكة في أحضان أمهاتهم.

ولا يخفى السبب الذي من أجله تعرضت هذه البلاد لهجوم قبائل الأمم الأخرى وشعوبها؛ وذلك لموقعها الجغرافي، والاستراتيجي الذي تميزت به، وكذلك من أجل الموارد الطبيعية فيها، فجبال البوسنة كانت - وما زالت - غنية بجميع الخامات والمعادن وبذلك صارت هدفًا لكثير من الغزاة الذين حاولوا الاستيلاء على كنوزها قهرًا.

تقريبًا لا يوجد من جبل أو تل إلا وعليه آثار من الحصون السابقة والأبراج والمدن القديمة التي كان يدافع من خلالها عن الحقول والوديان والمناجم والمساكن. (وفقًا لما كتبه المؤرخ إمامفتش)...

وأثناء القرنين (الخامس والسادس) الميلاديين، انتشرت المسيحية في البوسنة، ثم أصبحت مع الوقت - في نهاية المطاف - جزءًا من الإمبراطورية الرومانية الكبرى؛ لكن المشاكل بدأت مع انقسام الكنيسة إلى شرقية وغربية. ومنذ ذلك الحين، ومن أجل موقعها الجغرافي - كما ذكرنا - أصبحت مركزًا للحروب.

وفي بداية القرن الثاني عشر الميلادي توغل إلى البوسنة من المناطق المجاورة حركة (هرطق) التي كانت تدين بالتثنية في بادئ الأمر، ثم تحولت إلى عقيدة (البوغوميل) النصرانية التي انتشرت آنذاك، وتعني (الموحدون أي المؤمنون بإله واحد). وأسسوا كنيسة مستقلة وطوروا فيها تعليمهم الديني النصراني المخالف لتعاليم الدين الكاثوليكي والأرثوذكسي!

ولذلك تعرضت البوسنة على مر السنين - من كلا الجانبين شرقًا وغربًا - للهجوم الوحشي وبشكل مستمر وخاصة من قبل المملكة الهنغارية (بلغاريا حاليًّا).

والإحصائيات بعدد الأبرياء الذين قضي عليهم ليست دقيقة، ولا تستطيع أن تسعفنا بعدد المنازل التي نهبت ودمرت، ولا كم من الدماء قد سُفكت وكل ذلك بسبب اتباع هؤلاء الضحايا لدين غير دين أوروبا أي دين الكنيسة الكاثوليكية أو الأرثوذكسية.

وفي منتصف القرن الخامس عشر فتح العثمانيون البوسنة وضموها إلى الإمبراطورية العثمانية العظيمة. وحينذاك كان معظم سكان البوسنة على دين « البوغوميل » الذي اضطهدهم الأوروبيون من أجله فكانت الإمبراطورية العثمانية هى المخرج من ذلك الاضطهاد، حيث وجدوا فيها الأمان والاستقرار؛ فاعتنق أكثرهم الإسلام.

لكن بعد رحيل الإمبراطورية العثمانية - أي بعد زوال دولة الخلافة من مناطق البلقان - كانت النهاية لتلك الأيام السعيدة بالنسبة لهم.

وقد بلغت المأساة ذروتها في الإبادة الجماعية في سريبرينيتسا وفي جميع أنحاء البوسنة بشهادة محكمة لاهاي عليها وفي زمان ليس ببعيد.

وقد احتلت القوات النمساوية - الهنغارية البوسنة في عام (١٨٧٨م). بعد أن غاب الأتراك عن أراضيها. وبسبب ذلك فإن مئات الآلاف من البوسنيين هجروا منازلهم وأراضيهم تاركين إياها لجيرانهم المسيحيين الأرثوذكسيين (الصرب) مغادرين إلى تركيا. وخلال خمسة وعشرين عامًا هاجر (١٨٠,٠٠٠) مسلم من البوسنة وفق معلومات المؤرِّخَيْنِ ملوراد أكمتشيش ومصطفى إماموفتش.

لم يرض سكان البوسنة بالحكومة النمساوية الجديدة. كما أن المصادر النمساوية غير دقيقة في بيان أعداد المسلمين المهاجرين إلى تركيا؛ لأن ذلك ليس في صالحها؛ لما يدل عليه من كراهية البوسنيين القصوى لهم؛ لذا فإن عدد المهاجرين بالتحديد كان مجهولًا[١].

وفي وقت لاحق سمحت السلطة النمساوية الهنغارية للمسلمين بتشكيل مشيخة إسلامية مستقلة يرأسها رئيس العلماء ووافقت على بقائهم في وطنهم.

كما أسهمت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨م)، وما تلاها من أحداث، مثل إنشاء دولة الصرب والكروات والسلوفينيين في هذه المنطقة في رحيل المسلمين البوسنيين إلى البلدان الأخرى من جميع أنحاء العالم.

وفي بداية الحرب العالمية الثانية (١٩٤٢ - ١٩٤٥م) فإن الجيوش الصربية (تشتنيك)[٢] قد قتلوا الآلاف من المسلمين على جسور الأنهار وذبحوهم ثم ألقوهم فيها.

فمدينة فوتشا كانت موقعًا لمذبحة وحشية لثمانية آلاف بوسنيٍّ. فقد قُتل فيها (٢,١٢٣) ألفان ومائة وثلاثة وعشرون مسلمًا[٣]، وقد أحرقوا بعض الأسر أحياء في منازلهم، وكما تعرضت الفتيات المسلمات الصغيرات للاغتصاب بين يدي ذويهم ومنهم من طردوا من ديارهم. وكان ذلك أكبر انتقامٍ مأساوي من جيران المسلمين في هذه المنطقة.

ومرة أخرى هاجر المسلمون تاركين أراضيهم للآخرين يستولون عليها. وقد سجل المؤرخ (دادير) في كتبه إحصائية لعدد القتلى من المسلمين، وقليلٌ من المؤرخين كتبوا عن ذلك في ذاك الوقت.

وبعد انحلال يوغسلافيا في التسعينيات (والبوسنة والهرسك كانت واحدة من جمهورياتها) أعلن مجلس الأمن بالأمم المتحدة استقلال دولة البوسنة والهرسك ذات سيادة وانضمت عضوًا في هذه المنظمة العالمية. حدثت المشاكل عندما اتضح أن البوشناق المسلمين يشكلون أغلبية سكانها، بينما يشكل فيها الصرب (الأرثوذكس) والكروات (الكاثوليك) أقلية.

---

(١) من كتاب: تاريخ البوسنة وأهلها، لمؤلفه محمد اليابويتش.

(٢) أعضاء المنظمة العسكرية ذات الأهداف القومية الصربية الشوفينية الكبرى ظهرت في يوغوسلافيا (١٩١٨ - ١٩٤١م).

(٣) وفق كتاب: الجيش لصيف واحد لمؤلفه منصور عثمانوفتش.

مما جعلهم يتكتلون مع بلدانهم الأم (جمهوريتي صربيا وكرواتيا) في سبيل تقسيم البلاد وتشريد البوشناق المسلمين في بلدان العالم وإخراجهم من بلدهم الأصيل فشنوا الحرب على البوسنة والهرسك.

وقد تكوّن الجيش البوسنوي، ومعظمه من مسلمي البوسنة البوشناق، ومع أنه كان في بادئ الأمر غير مسلح فقد نجح هذا الجيش الوليد في مقاومة عدو مدجج بالسلاح مما أذهل العالم والمحللين العسكريين.

وقد كان سلوبودان ميلوشيفيتش، رئيس ما تبقى من يوغوسلافيا، ومقره في بلجراد يخطط لغزو البوسنة وتدميرها في مدة أقصاها أربعة عشر يومًا، ولكن استمرت الحرب منذ عام (١٩٩٢إلى عام ١٩٩٥م). وهذا نجاح غير مسبوق للجيش في تاريخ الحروب في العالم.

ووفقًا لدراسات سابقة فقد قتل (٢٥٠,٠٠٠) مسلم من البوشناق خلال العدوان الأخير على البوسنة والهرسك، وطرد أكثر من مليون مسلم، ودُمر أكثر من ألف مسجد.

وبهذا يتبين لنا ما لاقاه المسلمون البوسنيون من أذى في تاريخهم حيث تُركوا في قلب أوروبا بلا حماية.

ولا يمكن أن يكون اختلاف الثقافات الإسلامية والمسيحية سببًا للصراع بين الشعوب بل هو سبب - إن حسنت النوايا - لإثراء البلاد.

ويبدو أن عمليات القتل والاضطهاد تعيد نفسها بنفس القسوة مرارًا وتكرارًا، ويرثها مسلمو البوسنة في تاريخهم جيلًا بعد جيل؛ لذلك كَتبتُ هذا الكتاب: « التضحية للذئب ».

وهذه الأحداث التي وصفتها في هذا الكتاب عن مدينة (فوتشا) تعدُّ نموذجًا لما كان يحدث في مناطق شرقي البوسنة (فأسماء الأشخاص وأسماء المدن والقرى في الرواية ليست أكثر أهمية من الرسالة والعبرة منها).

وقد حرصت على استخدام أسلوب الفيلم الوثائقي في كتابة هذه الرواية، لتقديم صورة قوية للمجازر وعمليات الطرد الأخيرة ضد البوشناق وغيرها مما جرى في ماضي البلاد السحيق، وتحقيقًا لهذه الغاية استخدمت أسلوبًا مباشرًا وغير معتمد عليَّ، وقد يكون هذا نمطًا غير تقليدي في كتابة الروايات.

مرصاد سينانُوفتش

١

مع طلوع الشمس وصلت الشاحنات من شركة « ماغلتش » في « تشلبيتش » محملة بخشب الزان، ولم يكن سكان شيليبيتشي في عجلة من أمرهم نظرًا لأن أمامهم فترة طويلة إلى المساء. لكنهم استغربوا كثرة خشب الزان الذي وصل إليهم. هذه الكمية تكفي لعشرين منزلًا أن تفرش في أرضياتها الرملية فلا يلقون أنظارهم عليها ثانية.

كانوا يشعرون أنه يُخطط لشيء مع كمية هذا الخشب، لكن لم يعبؤوا كثيرًا بذلك ولم يسألوا عن السبب. فقد كانت وظيفتهم منذ زمن بعيد أن يعملوا في مزارعهم، كادحين فيها، ويرعون الماشية، لا يهتمون كثيرًا بأشياء أخرى.

كان طول خشب الزان الذي يمتد من مترين حتى ثلاثة أمتار، ووزنه ينوءُ بالعصبة أُولي القوة. كانوا - أولًا - يحفرون حفرات ثم يضربون بمطارق خشبية على أسطوانات الزان وينصبونها في الأرض، وكان يبدو وكأنهم يبنونها لتعيش دهورًا وليس لعدة أيام.

وقد أزعج وصول تلك الكمية من الأخشاب يوفان رادوفتش وهو من أعيان شيليبتشي الذي اشتهر بأمانته وبصنع أرقى أنواع الخمر. والذي أثار إزعاجه هو بناء تلك الطاولات على ممتلكاته دون إذنه.

قال مخاطبًا نفسه: دعوهم يذهبون إلى « مايل » في ضواحي شيلبيتشي الذي يملك أراضي أوسع من أراضينا جميعًا. وله ستة أبناء كبار؛ ولذلك لا يحتاج إلى أية مساعدة. كان يوفان رادوفتش يعتقد ذلك.

لقد دُعي هو وزوجته ستويانكا إلى الكنيسة في مدينة (شيرزلوك) ليقابلا القديس « نيكولا ». حيث أعطاهما القديس سيكولا أوراقًا ورسومات يفهم منها بوضوح ماذا سيحدث على أراضيهما.

وبطبيعة الحال كان على يوفان إطاعة ما أمره به القديس، ولكن لماذا خصصه ليكون مضيفًا؟ هذه هي أول مرة منذ عشرين عامًا بعد مغادرة ابنه إلى ألمانيا يصبح يوفان مهمومًا.

وبالتأكيد فإن الاستضافة شرف كبير، فأن يكون هو المضيف من بين كثيرين من الصرب في قرى هذه المنطقة سوف يثني عليه جميع الصرب من المناطق المجاورة (كرنيا بيلي، ميشتريفاتس، ورانوفتس، بيتسميش، زاوايت ورييكا). ثم تذكر يوفان شيئًا آخر.... الأستاذ المعروف الذي ولد في هذه المناطق دعا ابنه الوحيد ستويان أن يأتي إلى

شيليبيتشي، والجميع يتحدثون أن ستويان أصبح غنيًا في ألمانيا.... وهذا هو الذي رابه أكثر من أمر الطاولات.

لم يعجب يوفان حضور هذا الجمع الكبير على أرضه؛ لأنه يعرف كل شجرة من أشجار الفاكهة التي زرعها، وكان يعتني بها على مر السنين، كان فخورًا بها وسعيدًا عندما أزهرت، وزادت سعادته بإثمار شجر البرقوق والتفاح والكمثرى.

فالخمر التي يصنعها من البرقوق والكمثرى لم يكن لها مثيل في الجودة، وقد طارت شهرته إلى كل مناطق فوتشا بسببها، فلا تجد سيدًا من سادات تلك القرى إلا واشترى من خمره.

كانت الخمر تصنع أيضًا في القرى حول شيليبيتشي لكنها لم تبلغ جودة خمره، ولم تقاربها؛ فقد قيل عنها: إنها تهب المرء القوة والنشاط، وقد بلغت شهرته بالخمر حتى إلى سراييفو، وكان كلما سافر أهل فوتشا إلى هذه المدينة في حاجتهم حملوا معهم خمر يوفان من الكمثرى.

شخص يدعي « غاغولا » من بلغراد كان يزور شيليبيتشي خصيصًا مع شركائه من أجل الصيد وشرب الخمر عند يوفان، وقد قيل عن سبب تميز خمره أن مزرعته طيبة الهواء والتربة؛ ولذلك كانت الفواكه سليمة ليس لها منافس في فوتشا.

كان غاغولا يقول عقب كل جرعة: هذه الخمر تحيي موتى الصرب وتجعل العجوز شابًا مرة أخرى، فكل واحد منا لا بد أن يشرب منها لأنها تجمع الصرب معًا.

جيران يوفان لم يسمحوا لأولادهم بالذهاب إلى بساتينه؛ حماية لها ولأنها كانت مصدر سعادته؛ ولأنه كان يعيش من أجل سعادته وسعادة ابنه ولا يفكر في شيء آخر، والآن سعادته على وشك أن تزول مرة أخرى، هذه المرة بسبب وصول الصرب من جميع المناطق المحيطة بها ومن صربيا والجبل الأسود. ماذا سيفعل مع جميع هؤلاء الضيوف والسيارات؟.

ماذا عن البساتين؟ لماذا دعوا ابنه؟

خشب الزان الذي وصل إليهم من شركة « ماغليتش » في « برود » قريبًا من فوتشا مصنوع ومصمم وفقًا لطاولات على أعلى مستويات الجودة.

وعلى الرغم من أن تركيب الطاولات لم يكن أمرًا صعبًا إلا أن سكان شيليبيتشي كانوا

يقومون بأداء مهمتهم ببطء، وصمت، وحذر إلى حد ما. خوفًا من أن يتركوا في تصميمها للحماقة سبيلًا؛ لأنها لا تصنع كل يوم لمثل هؤلاء الضيوف الكرام، وكل شيء كان لا بد أن يكون وفق الاتفاق الذي تم في كنيسة « القديس نيكولا » التي اجتمع فيها - في الأيام الأخيرة - أبرز شخصيات الصرب مع الكاهن سيكولا.

كان يوفان رادوفتش يمشي من مجموعة إلى مجموعة من سكان شيليبيتشي ليبين لهم كل شيء في الرسومات التي كانت مرسومة في الورقة.

أقاموا ثماني وعشرين طاولة طويلة علي المرج الكبير، محاطة بأزهار الأشجار حتى وقت الظهيرة. كان يبدو - من بيت يوفان كأن الأزهار اندمجت مع الطاولات.. فيا له من مرج جميل يسر الناظرين!

وبعد قليل خرجت النساء من بيت يوفان يحملن مفارش المائدة البيضاء ذات الخطوط الزرقاء التي حصل عليها يوفان وستويانكا من كنيسة القديس نيكولا وقد اشتراها الكاهن من تاجر في سراييفو.

غطت النساء الطاولات، في صمت كأنهن يخشين أن يعكر حديثهن جمال المكان.

كان يوفان يتساءل - بصمت -: لم يُضيِّف الضيوف في شيليبيتشي من قبل أبدًا، لكنه أعرب عن سروره بما رأت عيناه من مفارش المائدة البيضاء مع الخطوط الزرقاء بين أزهار الأشجار في مرجه الكبير.

في الطابق السفلي من بيته كان يقطع سكان شيليبيتشي لحوم الثور ثم يحملونها بأيديهم إلى الطاولات ويلقون قطعًا كبيرة من اللحم على المائدة ليضمنوا أنه سيكون هناك متسع للجميع، ولكنهم يتساءلون: لماذا تلك القطع الكبيرة من اللحم؟ ولماذا لم يُقطع شرائح صغيرة ويوضع في الأطباق؟ لكن الأطباق والسكاكين والملاعق لم تكن مكتوبة في الورقة التي أعطيت ليوفان.. سيؤكل اللحم بالأيدي!!

ازداد عجب يوفان وحدث نفسه: هؤلاء الضيوف الأجلاء سيأكلون اللحوم بأيديهم ويمزقونها! لا أظن أن هؤلاء سيعتقدون أن هذه هي طريقة تناول الطعام في شيليبيتشي (أبعد قرية في منطقة فوتشا).. ولكن الذي كتب هذه الرسومات لا بد وأنه يعرف الجواب.. فقط تمنى أن يمر كل شيء على ما يرام، وأن يعود إلى رعاية الماشية والبساتين.

لم يستطع يوفان الهروب من أفكار سوداء تخيم عليه؛ لأنها تحتوي على أجوبة على ما كان يؤرقه، ولكن المضيف يريد أن يخدع نفسه فقد كان متخوفًا من الأحداث القادمة.

ثم بدأ أقارب يوفان يخرجون من القبو الخلفي (البدروم) تحت الأرض براميل خشبية فيها الخمر « براندي » المصنوع من الكمثرى والبرقوق حيث كانت مخزنة منذ سنوات.

لم يكن لدى أحد في القرى المحلية أدنى فكرة عن كمية البراندي عند يوفان، إنهم حاولوا التحايل عليه كي يعرفوا عددها، ولكن يوفان يكره استجوابه حول هذا الموضوع؛ لأنه لم يسألهم عما يمتلكون،فكان يجيبهم بشكل عبوس بأرقام مختلطة.

والآن بوسع الجميع رؤية عدد البراندي عند يوفان. إن مسألة الحساب والعد بسيطة.

بدأ أقارب يوفان بإخراج براميل خشبية صغيرة الحجم، وبدا لسكان شيليبيتشي أنه ليس هناك نهاية لهذه المهمة، وبدأوا يخمنون عدد براميل الخمر منذ أن بدأ يوفان في تصنيعه.. ففي كل سنة حوالي عشرين برميلًا صغيرًا فقد صار كنزًا عظيمًا عنده؛ الأمر الذي جعله من أثرى الناس في هذه المنطقة.. وأخذ أقارب يوفان يصبون البرندي من البراميل في أباريق كبيرة، مع الحرص على عدم سقوط أي قطرة منها، ثم يضعونها وسط الطاولة، وتحت كل طاولة تركوا برميلًا واحدًا زيادة في الاحتياط.

كان يوفان يشرف على كل شيء؛ حرصًا منه على أن لا يكون على الطاولات شيء آخر غير البراندي واللحوم.

طاولات الزان مع المفارش البيضاء المزينة بالخطوط الزرقاء،تعلوها الأزهار، كل هذا كان مرسومًا في الورقة.

ظل يوفان يسأل نفسه: كيف استطاع صرب فوتشا وسرايفوأن يرسموا كل ذلك بدقة دون أن يطؤوا مرجه.. حقًّا كأنها رُسمت على مرجه أمام بيته.

ضايقه شيء آخر وجعله يمشي من بيته إلى البساتين ومنها نحو البيت مرة أخرى فقط ليُذهب ما دار في رأسه بشأن ابنه.

جلب الشباب الكراسي من مدرسة صغيرة في « زوايت » ووضعوها مع الطاولات الرئيسية على الرغم من اعتراض المعلم على ذلك.

جاء المعلم « يانكو » إلي شيليبيتشي وسأل يوفان:

ـ من سيرجع هذه الكراسي إلى المدرسة مرة أخرى، إنه يعلم أن سكان شيليبيتشي سيأخذونها لأنفسهم، فمن سيجمعها من بيوتهم بعد ذلك.

أخذ أقارب يوفان يعدون لوحات مصنوعة من خشب الزان مخصصة لأكبر طاولة. قام عشرة رجال بإحضارها إلى أعلى المرج أمام الطاولات الأخرى.

حفروا حفرًا في الأرض، ثم أدخلوا أسطوانات الزان، ودقوها بالمطارق الخشبية، ثم وضعوا اللوحات الخشبية الثقيلة عليها.

أدوا هذه المهمة بعناية وببطء، إما خوفًا من انهيار الطاولة الرئيسية أو رغبة في تطويل مدة المهمة.

رسومات يوفان لم توضح بالضبط ما إذا كانت هذه المهمة مطلوبًا منهم التعجيل في إنهائها أو لا؟ لكنهم كانوا متأكدين أن هناك شيئًا ما يخطط له في هذا المرج.. أدوا مهمتهم بشكل غير مريح.

عندما أقاموا الطاولة الرئيسية غطوها بمفارش المائدة، كانت زرقاء بأطراف بيضاء، وفي وسطها نسور مطرزة.

وعلى بعد عشرة أمتار منها أقاموا جدارًا عاليًا من الألواح الخشبية وثبتوه بالمسامير، وبهذا الجدار نفد خشب الزان.

وتساءل يوفان عما سيحدث بجميع هذا الخشب بعد مغادرة الضيوف؟؟؟.. فطالما جيء بها إلى ممتلكاتي، فمن العدل أن تبقى فيه وتوزع على سكان شيليبيتشي.

أخذت زوجة يوفان تأتي بالصور الكنسية التي حصلت عليها من كنيسة « القديس نيقولاس » من قبل الكاهن « سكولا » وبينها صور أهداها للكنيسة تاجر من فوتشا هو « رادوفان غلوتشاي » وهو الذي ساعد بماله في بناء الكنيسة من قبل.

عُلقت الصور الكنسية على الحائط الخشبي وراء الطاولة الرئيسية وفق تعليمات الورقة حيث كانت تُرى بوضوح من أبعد طاولة.

قد تقول ستويانكا: إن كثيرًا من الصور لم تبق من الكنيسة التي كانت تقع في وادي كاووري. والتي كان معروفًا بأنها لا بد أن تُغسل في النهر بعد الاحتفال.

أخرج ثمانية من سكان من بيت « ريستو » المجاور لبيت يوفان تمثال الذئب الحجري الذي يمكن ملاحظته في بعض الأديرة.

كان رادوي العجوز - الذي كان جالسًا على كرسي أمام منزله يراقب كل هذا، فقام متكئًا على عصاه وتوجه نحو التمثال، وكان قبل ذلك قاعدًا يدخن السجائر مراقبًا

ما يصنعه أهل شيليبيتشي.

وعندما رفعوا تمثال الذئب على طاولة صغيرة أمام الحائط الخشبي تجاه بيت يوفان، سار العجوز إلى التمثال مقتربًا منه ببطء.

كان الجميع ينظرون إلى هذا العجوز منتظرين منه التوقف، وأن يواجههم، ويؤكد لهم ما يعتقدون.

كان جسده عاجزًا عن التحرك السريع، وعندما وصل إلى تمثال الذئب مسح بيده النحيلة رأسه كأنه حيوان حي. كان الجميع يراقبونه بصمت وهو متجه إلى التمثال مدبرًا عنهم.

وعلى الرغم من أنه بلغ أكثر من سبعين عامًا إلا أن كلامه كان مسموعًا بين سكان شيليبيتشي والقرى المجاورة.

والآن يتحدث بصوت مبحوح، لا يكاد يسمعه الآخرون:

- أيها الذئب! باركك سافو المقدس، اختيار أفضل الأغنام حق من حقوقك لا تؤاخذنا بما فعل أهل شيليبيتشي، إذ يصيدونك بالبنادق؛ لأنهم لا يعرفون قدرك، وأنك لست هدفًا للصيد، أنت ضيفنا في هذه المائدة، سنذبح الخروف من أجلك غدًا وسنأخذ منه إلى الغابات لتشبع الذئاب الأخرى.

ثم توجه رادوي إلى الحاضرين ورفع نظره وانتصب ثم تابع كلامه: يا أهالي شيليبيتشي، لا تنقموا على الذئب عندما يقتل شياهكم؛ لأن سافو المقدس قضى بالتضحية للذئب، فينبغي أن تعرض الأغنام عليه، عندما يصل الجميع غدًا لا بد أن نذهب إلى الغابة، ليكون الذئب أول من يتناول الغداء، وتخيروا أفضل الخراف فاذبحوها واتركوها في الغابة؛ لعلكم نسيتم أن التضحيات قدمت للذئب في كوسوفو، وفي عشية عيد الميلاد يُدعى الذئب ليتناول العشاء. ولا بد من وجود جميع المأكولات على الطاولة.

اعلموا ذلك جيدًا أيها الصرب!

سكان شيليبيتشي يملكون بنادق الصيد ويتنافسون في صيد الدببة والذئاب والخنازير البرية. وقد كان « ستويان يافتيتش » - الذي توفي - يستر جدران غرفته بجلود الدببة والذئاب، فقد كان هذا هو معيارالتفاضل بين الصيادين.

سكان شيليبيتشي طوال حياتهم يحرثون الأرض، ويرعون ماشيتهم ليوفروا القوت

لأنفسهم، وعندما حان وقت الإنفاق ثقل عليهم ذلك.

تذكر يوفان امرأة من « كرنيا ييلا » التي لم ترزق فترة طويلة بأولاد، وعندما رُزقت بولد سمته الذئب؛ لأن الذئب لا يصيبه المرض، ولا يؤذيه السحرة. لكنه لم يفهم كيف يمكن أن يكون اسم الذئب اسمَ مسيحيٍّ. الصربي له اسم مسيحي، ونسبي كذلك أهله وعائلته لهم أسماء مسيحية، وتعرف القرابة النسبية بأسماء العائلات، أما القرابة الروحية فتعرف بالأسماء المسيحية.

لذا فإن من لا يدينون بديننا لا يشاركوننا في عيدنا، كما لا يدخل الخائنون في الصربية أبدًا.

مسح رادوي رأس الذئب مرة ثانية ثم استدار ببطء وتوجه نحو منزل ريستو دون النظر إلى أي شخص. كان هناك شيء رسمي في طريقة مسه للذئب. الجميع نظروا إليه بتعجب حينما ابتعد عن الطاولة.. لكنهم لم يتفوهوا بكلمة.. هو بذلك يذكرهم بأيام خوالٍ.

كل شيء كان جاهزًا هناك على المرج أمام المنزل تحت أزهار أشجار الفاكهة: الطاولات، واللحوم المشوية، وبراندي يوفان المصنوع من الكمثرى والبرقوق، والحائط الخشبي، وتمثال الذئب الحجري، وعندما استكملوا كل شيء قبيل المساء غطى جيران يوفان المرج بأكمله بغطاء من البلاستيك، فأصبح يشبه خيمة ضخمة من النايلون سقطت من السماء واستقرت مكانه.

كان الظلام قد حل عندما خرج ريستو من بيته يحمل الكابل، ومروحة كبيرة حصل عليها من الكنيسة ووضعها في الوسط داخل الخيمة المغطاة بالنايلون.

لم يمض وقت طويل حتي بدأت تهب رياح باردة تتخلل الخيمة. كل شيء كان مثاليًّا حتى لا تفسد اللحوم، فقد فكر القديس « دانيلو » في كل شيء، فكل شيء كان مكتوبًا ومرسومًا على الأوراق التي امتلكها يوفان. خيم الليل على المكان، واجتمع سكان شيليبيتشي في بيت ريستو. لم يكن لديهم أي فكرة عما ينبغي عمله الآن. قطعت زوجة ريستو ذلك الصمت عندما جاءت بالبرندي. وكذلك حرك ذلك الصمت خفقان ضوء الشمع عند فتح الباب وغلقه. فكلما دخل شخص الغرفة رفع الجميع رءوسهم نحوه.

كان رادوي يعيش لحظات عصيبة مع شيء ما، وكان يجد صعوبة في تنفسه، ولا يكاد يبين.

استمعوا إلى ذلك العجوز بصمت قاتل، فقد كان يتكلم بسرعة كأنه يعد أشياء من قائمة، مثل الأطفال الذين يتعلمون واجباتهم المدرسية عن ظهر القلب:

- خلال فصل الصيف الثالث قبل وفاته كسفت الشمس فأظلم الكون وظهرت النجوم والقمر بلون أحمر كالدماء، وهي علامة بكارثة ستحل على أبناء إسماعيل.. الأرض والسماء في صراع شديد.. الصراخ والصياح والضجيج والأصوات التي تخرج من الحناجر والخياشيم وأصوات الحوافر والحديد، الذي يأتي من النفخ في الأبواق، ومن القضبان الخشبية، ومن العظام والأسنان، ومن الجلود المشدودة على الدفوف، ومن الرياح والأمطار.

السيوف والرماح كبرق من السماء، وبرقت الألجمة الفضية، والأغطية على رؤوس الخيل، ورفرفت الرايات الآسيوية من الصليبيين بالألوان البيضاء والحمراء والوجوه البيضاء من المحاربين الأوروبيين والوجوه الصفراء من المحاربين الآسيويين، والسود الأفارقة والعمائم البيضاء، والسراويل الوردية، والبُرد الأرجوانية الزرقاء، والأحذية العسكرية الصفراء، والخيول، والكلاب، والإبل الرمادية، والصقور.. منهم من أصابهم صواريخ المدافع، والبعض الآخر أخذ ينتزع الرماح من أبدان الجرحى، ويضعون أيديهم على الجروح لكي يُوقفوا النزيف..

أراد رادوي أن يكمل لكن يوفان دخل البيت ليدعو الناس أن يخرجوا ويعاونوه في إعادة النايلون الذي طيرته الريح من الطاولة الرئيسية والحائط الخشبي.

خرج الناس على مضض فقد ودوا القعود مع العجوز رادوي، رغم أنهم لم يفهموا كل ما يقول، لكن كلامه يشعرهم بالعزة، و يريح قلوبهم.

ولما دخل يوفان بيته مع زوجته سألها:

يـوفـــان: هل تعرفين ماذا على وشك الحدوث؟؟

ستويانكا: تسأل عما على وشك الحدوث يا يوفان؟ كأنني لا أعرفك وعشيرتك رادوفيتش... جميع سكان شيليبيتشي يتظاهرون كأنهم لا يعرفون ما هو على وشك الحدوث... سمعت رادوي عندما تكلم عن الذئب؟... قد نسينا عاداتنا الصربية وأشعارنا وتاريخنا. أمضينا حياتنا في العمل وفاتنا كل شيء... أما سمعت رادوي كيف كان يتكلم عن الذئب؟ أنت تعرف ذلك أيضًا. لا يصيد الذئب بالبندقية كما تفعل أنت ويوييتش.. أبي كان يحمل لحوم الشاة في عمق الغابة ونحن أطفال كنا نرافقه. وعندما نصل مكانًا

فسيحًا كنا ننادي الذئب ليتناول لحوم الضأن ، هذه هي الحقيقة.

نظر يوفان في تخوف مباشرة في عيون ستويانكا وقال:

يـوفـــان: ما أردت هذا يا ستويانكا. أعرف جيدًا التقاليد الصربية لكن ليس هذا كله لغد، ونحن المضيفون لجميع هؤلاء الصرب أربعمائة منهم قادمون، أنا أتساءل فقط: لماذا الكاهن سيكولا دبر كل شيء في كنيسة القديس نيكولاوس ولم يفعله هنا في بيتنا؟.

ردت عليه وهي غاضبة:

ستويانكا: أمسك لسانك يا يوفان، للمرة الثانية تتساءل... تدبير الأمور متروك لهم وعلينا الطاعة، ينبغي أن يكون شرفًا لنا أن كثيرين من الصرب سيأتون إلينا ويكونون ضيوفنا.. لم ننفق شيئًا غير البراندي.. إنك تدعي أنك لا تعرف شيئًا عما سيحدث. أنت تعرف جيدًا أن المسلمين كانوا يعيشون في شيليبيتشي من قبل والآن لا وجود لهم. والدك حرر شيليبيتشي منهم في ثورة الصرب الماضية.

يـوفـــان: لا تذكري هذا يا ستويانكا... أريد أن أضع ذلك وراء ظهري... حيث إننا نعيش الآن في عشرة هكتارات من أراض - في وسط شيليبيتشي - كانت تنتمي لأسرة فاضليتشى، إلا أن أصغرهم أنقذه فويين ليتشيتش، لكن أمه وإخوته وأخواته ذبحوا على أيدي الصرب في بيت حمديا حاجيتش. في نفس المنزل الذي ذبحوا فيه العديد من النساء والأطفال ثم أحرقوهم فيه...

اسكتي يا ستويانكا!... منذ خمسين عامًا وأسرة فاضليتشي يحاولون أن يردوها إليهم عن طريق المحاكم...لكن بعد هذه الثورة الصربية ليس لديهم من أحد يشكون إليه.. ستويانكا، لا تقولي لي: إننا نعيش على أرض الغير.. منذ أربعين عامًا وأنا أحرث هذه الأرض.

ستويانكا: لماذا تتظاهر بأنك لا تعرف شيئًا؟ عشيرة رادوفيتش عملهم معروف... هم عزتك وأنت تتولى عنهم.

لا أريد التكلم عن هذا.. البراندي هو أعظم ثروة لدينا، فمنذ سنين مكنا له ظروفًا مثالية، وبه أصبحنا أغنى عائلة في القرية... آمل أن لا يلحقوا أضرارًا بأشجار الفاكهة، وأما البراندي فهو أقل ما أخشاه، لكن يا ستويانكا لا تقولي شيئًا عن قدوم ابننا غدًا من ألمانيا، فهو ابننا الوحيد لم نرزق غيره ردت عليه مرة أخرى بغضب:

ستويانكا: ماذا يمكن أن أقول؟ لقد صار مثلك، لا يختلف عنك شيئا، كل ما يهمه هو

العمل.. عشرون سنة من العمل في ألمانيا حتى أصبح من الأثرياء.

يـوفــــان: من أجل ذلك طلب منه الكاهن سيكولا، وهؤلاء من سراييفو أن يأتي... لو كان فقيرًا لما دعوه، يكون من الأفضل أن لا تأتي معه زوجته سافكا وأولاده سافو ودوشان، فليس مكانهم هنا.. لا تسأليه عن أبنائه أمام الضيوف غدًا من الممكن أن يدعوهم أيضًا.

ستويانكا: لماذا؟

يـوفــــان: لا تسأليه عنهم تمامًا... دعي دوشان وسافو يبقيان هناك... سيأخذ هذا بعض الوقت.

ستويانكا: سنفعل ما يفعل الآخرون يا يوفان، أنت ابن بطل الصرب نيجو رادوفيتيتش الذي كان يذبح مسلمي شيليبيتشي ويحرق ديارهم... لا تشغل بالك بذلك كثيرًا.

* * *

٢

بينما طلعت الشمس من الضباب، فوق وادي الشعير توقف طابور من السيارات في الباحة خلف بيت ريستو.. جاء أول الضيوف، فرحب بهم رادوي وسكان شيليبيتشي متحيرون نوعًا ما كيف يضيفونهم؛ لأنهم يضيفون ضيوفًا من سراييفو، والجبل الأسود، وصربيا فلو كانوا من مناطق فوتشا فقط لكان الأمر أهون.

فوجئ يوفان عندما رأى الضيوف مرتَدِين الزي الوطني، والزي الرسمي للصرب في الحرب العالمية الأولى مع القبعات والأحزمة الواسعة.

جميع هؤلاء الذين يخرجون من السيارات يتعانقون مع السكان المحليين ويتناخبون الشراب، ويرفعون أصواتهم من الفرح، ويصلبون أنفسهم، ثم يتوجهون نحو بيت يوفان.

توقفوا مندهشين لا يصدقون بعيونهم عندما رأوا المائدة في الحديقة المزدهرة مع الصور الكنسية الظاهرة، وتمثال الذئب على دعامة من خشب الزان. أنى لهم هذا في هذه القرية البعيدة من فوتشا؟

بعض الضيوف – من حماستهم – أطلقوا بعض الطلقات من مسدساتهم إلى السماء عندما دخلوا في البستان ورفع جميعهم أيديهم إلى أعلى احتفالًا وردًّا على حسن الضيافة. وكانت طلقات نار كثيف تُسمع من السيارات التي بدأت تقترب من شيليبيتشي. ردًّا على الطلقات الأولى.

أخذ يوفان يفكر مجددًا في بستانه، كيف سيصبح بعد أن يشربوا برندي الكمثرى إذا كانوا الآن يفعلون ذلك؟ ماذا تفيده الشهرة والمدح إذا خسر البستان والبرندي.

شخص صربي قصير القامة، وسيم، ذو رباط عنق أزرق واسع اقترب من يوفان، وعانقه ثلاثًا، ثم رفع يديه إلى السماء ودعا له:

ـ اللَّهم ارزقه بالصادقين، والعاملين الكادحين المجاهدين، والمضيفين الطيبين الذين لا يدخلون الحانات، ولا من الخمر مسكورين، ولا إلى المحاكم محتاجين، و للحمقى غافرين، وعلى حدود حرث الناس غير معتدين، وللمشقة عليهم غير راغبين. ومن أموالهم إخوانًا بينهم منفقين، وفيها حق للفقراء والمساكين، والمتصدقين على الأعرج والأعمى.. اللَّهم زد واشهد، إن شاء اللَّه.

وحينما كان يدعو فإن الجميع كانوا في البستان يشربون ويتناخبون ببراندي يوفان:

– الحق عندك يا راسكوفتش، أنت رجل ذكي!

والآخرون يقبلون على يوفان ويقبلونه ثلاثًا.

في تلك اللحظة دوّيت طلقات رصاص كالصاعقة نزلت من السماء - من رشاش قريب، كان يبدو أنها أطلقت في البستان نفسه ، فوجئ كثيرون بإطلاق النار، وما عرفوا كيف يتصرفون: فمنهم من اختفى تحت الطاولة تلقائيًّا، ومنهم من شَخَص صامتًا نحو بيت ريستو الذي صدرت من جهته الطلقات.

كان يوفان خائفًا جدًّا وظن أن حاله سيزداد سوءًا. استمرت الطلقات لمدة دقيقة واحدة. فلما أفاقوا أسرعوا نحو بيت ريستو ليروا من الذي أخافهم.

فوجئوا بالعجوز الفقير « رادساو » من ياتميش أمام بيته. الذي كان ريستو قد أسكنه أسفل بيته (في البدروم) مقابل عمله في مزرعته. وجدوه وهو يحاول لف خرطوشة طويلة (حزام للرصاص) حول خصره، وهو يدور في دائرة ليصل إلى منتهى حزامه الذي جرّه على الأرض، وبندقية روسية مع خزنة مسطحة للرصاص.. كان مستلقيًا على عتَبَة الباب. كان قد احتفظ بها ريستو في صندوق في سرداب وأحضرها « رادساو » منه لهذه المناسبة فاجتمع عليه الضيوف ورفعوه فوق رءوسهم ثم رموه إلى أعلى، وكلما سقط في أيديهم قبلوه.

ادخر ريستو هذا الرشاش منذ شهر في قبو، ولم يتوقع أن يخرجها « رادساو » من الصندوق في حين غفلة من الضيوف الذين قاموا بتقبيل « رادساو ». أدخل ريستو الخرطوش والرشاش إلى منزله.

وصل أبرز الضيوف وقعدوا إلى الطاولة الرئيسية، ولم يكن يوفان يعرف أحدًا منهم، وكذلك لم يعرف كيف يستقبلهم.

كان هناك « أوستويا » من سراييفو، وهو ابن هذه المناطق من قرية أوراهوفو بالقرب من شيليبيتشي، والكاهن « سيكولا » وكثير من أساتذة جامعات مختلفة، وكهنة صربيا، والأستاذ « ماكسيم » من سراييفو الذي ولد في أوستيكولنا، و « راشكو » من الجبل الأسود وغيرهم من رءوس الصرب.. جميع رؤساء الصرب اجتمعوا في مكان واحد!.. فكيف يعرفهم جميعًا؟

جلس الجميع وتذوقوا اللحوم، وشربوا الخمور، وارتجفوا بعد شربهم لبراندي يوفان المصنوع من الكمثرى، وأخذوا يتنافسون في التناخب به. شعر يوفان بالارتياح؛ لأنه لم يكن هناك شيء آخر للقيام به، فدخل بيته، وهناك كانت ستويانكا بالداخل.

فلم يصبر حتى سألها:

هل رأيت ذلك الرشاش الكبير بين يدي الأحمق العجوز؟ من كان يظن أنه يملك رشاشًا؟

ـ يوفان أنت تعرف كل شيء، لكنك تريد مني أن أقول ما تعرفه، والسبب هو خوفك.. الجميع في القرى المجاورة يحصلون على الأسلحة، وبقيت أنت تهتم ببستانك فقط، ابن « نيجو رادويفتش » لا يفكر إلا في بستانه!

أنا أيضًا حصلت على بنادق! أعرف أن لديك عشر بنادق أبقيتها في القبو، وتدّعي عدم معرفة ما يجري، فالذي تقرره الأمة الصربية، سنقوم به يا يوفان.

يطلقون النار مرة أخرى؟

فقط لا تسأل ما الذي سيحدث، عليك أن تذبح المسلمين.. جميع عشيرة رادوفتش قاموا بذلك. أنت الوحيد الذي يخاف، اذهب إلى نيجو وهو يعلمك عملية التذبيح.

أنت لا تعرف شيئًا.. لن تكون هناك « فويين ليتشيش » ليكون سندًا لهم حينذاك، ولن تستطيع أسرة فاضليتشي استرجاع أراضيهم.. قام الشعب الصربي في كرواتيا بالثورة الصربية، ويفعلونها الآن في البوسنة وهكذا.

اسمع يا يوفان: الصرب يريدون تحرير البوسنة، والجميع يعرف ذلك، وأنت تعرف أيضًا، لكنك تريد مني أن أقوله لك.

ممن سيحررونها؟!

ـ كيف ممن؟ يا لك من أحمق!! أقول لك ما يرضي نفسك، اسأل نيجو رادوفتش ممَن ؟ من الأرناؤوط السود، ويا لك من... أما سمعت رادوي... المسلمون هم الأتراك الذين تركوا دينهم ودخلوا في الإسلام، دماؤهم وأصلابهم صربية. أي هو تحرير البوسنة منهم... تجبرني أن أقول لك ما أوصاك به نيجو في وصيته.. من الحروب السابقة، ومن جميع حركات التمرد الصربية يا يوفان.. عندما ذبحنا الرجال والنساء والولدان وأحرقنا ديارهم واتخذنا منها الفحم.

ـ أنا أعرف جيدًا أن المسلمين كانوا يعيشون في شيليبيتشي من قبل.

قتلناهم جميعًا ثم سكنا أرضهم وديارهم... أنا أعرف ذلك، وكيف لا أعرف؟.. وأخيرًا عندما نُسي كل شيء.. هل نحن صرب مرضى؟ جميع الصرب يجزرون

المسلمين وحان دوري ودور ابني ستويان!

بدأ يوفان رادوفتش يصرخ.

ـ ما لك؟

ردت عليه ستويانكا باستغراب:

ـ اذهب وقل لنيجو: إن الصرب مرضى، لماذا تطلب مني أن أشرح لك هذه الأشياء، كأنك تغيرت بين عشية وضحاها.. لقد قلت لك مائة مرة يا يوفان سنفعل مثل بقية الشعب الصربي، وتعرف جيدًا أن هذه الأراضي صربية لكنك تتظاهر بالجهل.

ـ أعلم أن مذبحة المسلمين ستتم على جسر جيليزني في فوتشا، كما فعل غرويو، عندما نحرر الأرض منهم سيكون لنا دولة خاصة بنا.. علينا أن نتبع ما يأمرنا به أوستويا، وماكسيم ولن نضل أبدًا.

وفجأة دخل ابنهما ستويان وهما يتحدثان داخل الغرفة.. توقف عند الباب، ونظر إليهما بنظرة غاضبة.. كان من الواضح أنه سمع حديثهما.

ستويان!

وقف ستويان هناك ولم يتحرك، وأسرعت إليه ستويانكا، ويوفان وعانقاه، لكنه التزم الصمت.

تراجعوا خطوة حتى يلقوا عليه نظرة أخرى، كان طويل القامة، متناسق البدن (سلوكه جنتلماني) شعره أسود مسترسل، يرتدي بذلة رمادية جديدة مع رابطة عنق ملونة، ومع أنه اقترب من الأربعينيات من عمره، إلا أنه كان يبدو كشخص من عالم مختلف تمامًا، لا يشبهه أحد من سكان شيليبيتشي، عالي الجبين ومشرق الطلعة، كان أكثر وسامة من يوفان في أفضل أيامه.

نطق بهمس (منزعجًا مما سمع):

ـ والديّ: ستويانكا، ويوفان، منذ صغري أدعوكما بأسمائكما، الآن فهمت لماذا دعاني هؤلاء من سراييفو، وطلبوا مني المجيء إلى شيليبيتشي، واختاروك لتكون مضيفًا، وضح لي الآن كل شيء.

قاطعته ستويانكا:

ـ سيقدسك الصرب ويوفان!

ستـويان: يقدسوننا اليوم، وماذا عن الغد يا ستويانكا؟ خلال السنوات العشرين الماضية أعمل في ألمانيا، ولدي حسابات في البنوك الألمانية، وينبغي عليَّ أن أترك كل ذلك من أجل تقديسهم لي.

لقد طلب مني الطبيب راشكو أن أقوم بتحويل كل أموالي إلى حساب « الصربية المتحدة » حتى أكون عضوًا في حزبهم السياسي يا يوفان.. كنت أعمل ست عشرة ساعة في اليوم، وما أخذت يومًا واحدًا للراحة، وكل ذلك ينبغي أن يعطى من أجل الصربية المتحدة؟! أنى لهم تلك الصربية في العالم الذي بدأ يتحد؟ يوشك العالم أن يصبح قرية عظيمة يعرف الناس فيها بعضهم بعضًا، فمن الصعب عليك أن تفهم ذلك لكنني أعيش بالفعـل في هذه القريـة العالمـية، وأبنائـي: سافو، ودوشان يجيدون الكمبيوتر ويتحدثون مع أصدقائهم في نيوزيلندا، والصرب يريدون دولة ليعيشوا فيها وحدهم.

ستويانكا: سميتُ ابنك الأكبر سافو، والأصغر دوشان.

ستـويـان: يسمون دوشان في ألمانيا « ميلر » لأنه لاعب ممتاز لكرة القدم.

والاسم بالنسبة له لا يعني شيئًا يا ستويانكا.

ستويانكا: نحن في حاجة إلى دولة خاصة بنا أولًا، ثم نسلك مسلكك. توجه الابن إلى والده يوفان وقال:

ـ أنت رجل فطن، كل هذا له نهاية، ولكن هل سينالنا شرف بعده.. ينبغي أن لا نكون في الطليعة، ألا تذكر أيام كنت مريضًا ولم نجد لك علاجًا وكان يأتيك حامد أبو راسم بانتظام – من جيجوو حتى عالجك تمامًا بأعشابه وقد كنتُ أنا وراسم ندرس سويًّا في المدرسة، وكان صديقي الحميم، ومن أجلي كان حامد يعالجك، ويعاملك بلطف.

يـوفـــان: إنني أعرف ذلك يا ستويان، كان يقضي الليلة كاملة معي.. يضع أعشابه على صدري حتى شُفيت، وذهب عني المرض كـأنه لم يصبني، بل حتى ستويانكا كان إذا أصابها ألـم في رأسها طلبت منه أعشاب الشاي المسكنة للآلام.

ستويانكا: الأفضل من جميع تلك الأعشاب، والأنواع المختلفة من الشاي أن تكون لنا دولة صربية، وبعد ذلك سنعيش مع المسلمين في سلام إذا صلوا معنا في كنيسة نيكولا.

سـتويـان: إذن على هذا النحو تسير الأمور يا ستويانكا؟

ستويانكا: الأمر ليس في يدي، الذين يقعدون على الطاولة الرئيسية هم الذين يدبرون الأمور، ألا تسمع تلك الكلمات التي يلقونها الآن، إنهم يعرفون جيدًا ما هي السياسة الصربية، ويعرفون تاريخ الصرب. ومهمتنا الاستماع فقط لا غير.

في ظل الأشجار المزدهرة على مرج يوفان كان الضيوف يمزقون قطع اللحم ويلتهمونها، ويشربون الخمر.. بدوا - بعد شربهم من برندي يوفان كأنهم في عالم آخر.. كانوا على يقين أنه ليس كسائر الخمور.

أصبحت وجوههم محمرة، واشتعل البرندي في صدورهم، وتحمسوا في الكلام وشعروا بالعزة والقوة، لكنها لم تؤثر على منطقهم كانوا جميعًا كجسد واحد يتناخبون ويمرحون، ولم يكن يبلغ هذا العيد واليوم التاريخي كماله لولا وجود براندي يوفان.

عندما قام الكاهن سيكولا نظروا جميعًا نحوه صامتين ومنتظرين منه أن يبدأ بالكلام.. قبّل الكاهن الصليب بلطف ثم ألقى نظرة على الحضور، وافتتح الكلام:

ـ المجد للأب، والإله، وابنه، ولروح القدس.. نسبح ربنا ومخلصنا يسوع المسيح، ونثني على والدة اللّٰه العذراء مريم المقدسة، والمجد للحياة والشرف، وعلى جميع الملائكة الأقوياء، والمجد للنبي موسى عالم الغيب!!.........[1]

توقف الكاهن متعبًا من كثرة الكلام، وألقى نظرة على الحاضرين، فعلى الرغم من أنه كان قصير النظر، إلا أنه أحس أنهم ينتظرون منه أن يزيد، وأن الموعظة أثرت فيهم فارتفع صوته أكثر:

ـ سنكمل صلاتنا وندعو أن يبارك اللّٰه المضيف، والمضيفة، وأولاده، وأصدقاءهم، وأن يهدي اللّٰه أعداءهم، وأن ينور إيليا المقدس قابض البرق صدورهم بالرشد، وليساعدنا اليوم اسم الصليبية المقدسة، وأن تكون في هذه الشمعة الصليبية سعادة لنا، وأن نحصد القمح وثمار العنب رغدًا، وأن يفيض علينا عسل النحل، ويتضاعف عدد الغنم.

تقبل اللّٰه منا أضحيتنا المقدسة، وصلاتنا هذه، وشفى مرضانا، ورحم موتانا وطول أعمارنا.. آمين.

هتف الجميع: آميـــن

قعد الكاهن سيكولا ببطء على الطاولة الرئيسية.. كان الضيوف ينتظرون كلمة من

(١) ناقل الكفر ليس بكافر.

الذين جاءوا من سراييفو؛ ليعرفوا منهم سبب مجيئهم إلى شيليبيتشي؛ وليكملوا شرب خمر يوفان، الذي كان ألذ من وعظ الكاهن سيكولا فقد سمعوه من قبل في الكنيسة.. لكنهم الآن أرادوا أن يسمعوا ما يقوله أبرزهم، وقادة الشعب الصربي.

ولذلك فعندما نهض أوستويا تغيرحالهم، فقد كان كلامه كحبل الوريد الذي تتوقف عليه حياتهم... بدأ يصرخ:

- يا إخوتي الصرب! هل هناك تاريخ مأساوي في الشعوب كتاريخ شعبنا الصربي؟

هتف الجميع: لا.. لا يوجد.

- يا إخوتي الصرب! هل هناك تاريخ أكثر مجدًا كتاريخ شعبنا الصربي؟

لا.. لا يوجد.

- يا إخوتي الصرب! هل هناك روح أكثر سخاءً من روح شعبنا الصربي؟

لا.. لا يوجد.

ـ هل هناك أحد من الصرب لا يعرف شيئًا عن المعركة الشهيرة في كوسوفو؟ تلك المعركة التي حددت مصير الشعب الصربي لمدة خمسة قرون، وهي التي وأدت الجمهورية الصربية، وقيدت حريتها، فمنذ حدوثها صار الصربي عبدًا حزينًا، ومنذ حدوثها والشعب الصربي يغني الأغاني الحزينة، وتفيض عيونهم من الدمع حزنًا على مصيرهم، ولكنه بدأ يقدس أبطالها، ويقدر شجاعتهم.

هتف الجميع: كوسوفو! كوسوفو! كوسوفو!

معركة كوسوفو الشهيرة كانت – ولا تزال – معروفة في أنحاء أوروبا كلها، فهي التي فتحت عيون البابوات، والهنغارين على خطورة الأتراك الحقيقية.

اليوم كل مؤرخ – تقريبًا ـ يذكر معركة كوسوفو، ولكنهم لا يقدرونها حق قدرها، ولا يعطونها أهميتها اللائقة بها، ولا يعرفون مغزاها، فقد اشتبكت فيها المسيحية مع الإسلام، والصليب مع الهلال، وأوروبا الوديعة مع آسيا المتعصبة، فليست هي المعركة بين الصرب والعثمانيين فحسب.

هتف الجميع: كوسوفو! كوسوفو! كوسوفو!

معركة كوسوفو فريدة من نوعها في تاريخ المعارك العالمية؛ وذلك من أجل العواقب التي نتجت عنها، وليست فقط مجرد صراع مأساوي، ومواقف بطولية، فقد قتل فيها كلا

القائدين العسكريين، لقد كانت معركة فاصلة: إما أن يكون للأتراك وجود في أوروبا، وإما أن تبقى الدولة الصربية.

صاح أحد السكارى من أبعد طاولة قائلًا:

ـ كفى يا أوستويا! إننا سنتخلص من وجود الأتراك، ولا نحتاج إلى أوروبا في ذلك.

كان منتفخًا، كبير الرأس، ممتلئ الجسم والعنق، في حالة سكر يتمايل كشجرة وحيدة في مهب عاصفة.

لم يؤثر عليه صياح الآخرين، وجعل يصيح أكثر:

ـ الذي لم يستطع الصرب فعله في الماضي سنفعله نحن اليوم.

أجلسه بعضهم على مقعده، وهو لا يزال يصرخ، حتى تمكن الأستاذ أوستويا من إكمال كلامه:

- اسمعوا، ينبغي على الصرب أن يعرفوا تاريخهم.

ثم أخرج من جيبه كتابًا وأخذ يقرأ منه:

- كان مصير الشعب الصربي عاصفًا، ومتغيرًا باستمرار، إننا نعرف أن شعبنا جاء إلى هذه المناطق من أراضيه الأصلية القديمة، واستقر في جميع أنحاء شبه جزيرة البلقان من نهر الدانوب إلي سولون وجبال البلقان في الجنوب، وإلى البحر الأدرياتيكي في الغرب. وفي هذه المناطق من الأراضي الجديدة تلقوا ما بقي من قوم تراتشان ويلبر وكان معظمهم الينانيون والذي أدي إلى التصارع معهم وبالقتال احتلوا أرضهم واستقروا فيها ومنها بدؤوا الانتشار والتطوير.

صاح أحدهم: كفى يا أوستويا! كفى تكرار هذه المعلومات، وكفى قراءة.

- بعد استيلائهم على أراضي البلقان جذب شعبنا برشده، وذكائه، وجهوده، وعبقريته، وشجاعته انتباه جميع جيرانه، الذين حاولوا - بما عندهم من قوة - إيقاف السيول الصربية المتدفقة، والتي اجتاحت أراضيهم وأغرقتها؛ لكن القوة، والقدرة على الثبات والمثابرة، كانت فوق المكائد الشريرة لأعدائهم، توغلوا أكثر وأكثر حتى أقاموا دولتهم الصربية المستقلة.

صرخ - بأعلى صوته - رجل سكران، كان يتمايل كأنه على وشك السقوط: يكفي يا أوستويا! كفى قراءة! لو لم تقل وتبوح، سأقول أنا!

ثم أخذ يغني:

ـ من الثاني؟ أنا الأول في سفك الدماء التركية؟

سمعت أصوات من كل مكان: نحن الأولون! إنك لن تسبقنا أيها السكران.. نحن الأولون!

سمعت من جميع الأنحاء: نحن الأولون!.. جميع الضيوف أرادوا أن يكونوا هم الأولين.

صرخ أحدهم - بصوت صاخب - في الرجل السكران: لا تذهب إلى أي مكان، وإني أنهاك أن تكون أنت أولنا.

لاحظ الجميع أن رادوي العجوز شق طريقه إلى الطاولة الرئيسية، دون أن يمنعه أحد، أو حتى يسأله ما الذي ينوي القيام به.

كان يُرى عليه أنه بلغ من الكبر عتيًا، وأنه يريد الحديث، فاستدار حتى يتمكن الجميع من رؤيته، ورفع رأسه، وبدأ الحديث. مع أن صوته كان مبحوحًا متقطعًا إلا أنه وقع منهم موقعًا حسنًا:

- استمعوا إلى هذه الحكاية من الكتب القديمة...

بينما كان الكاهن يغني سعيدًا راكبًا دراجته مر برجل ألباني، الذي اعترض طريقه بسوء قصده. حدث الألباني نفسه (آه إن الكاهن يتذكر أيامه الخوالي السعيدة) وأراد أن يستل سيفه، لكنه لم يجده.

الراهب: تبحث عن السلاح؟ عسى أنك سلمته للجيش الصربي... لكن لا بأس من الآن فصاعدًا كلما مر عليك شخص اخلع قبعتك وسلم عليه.

رد الألباني عليه بكبر وهو يجز على أسنانه كأنه حيوان متوحش: لا أخلع قبعتي أمام الغنيمة.

أثار قوله غضبًا شديدًا عند الكاهن ستويان، فلم يصبر وصرخ في وجهه: اخلع قبعتك عندما يمر عليك كاهن صربي... اخلعها. ثم أخرج سيفه وضربه على رأسه حتى أفقده وعيه، ثم أقبل الكاهن نحو القرية، وبعد استراحة قليلة قضاها في بيته، جاءه جنود الصرب وأخبروه بضرورة مرافقتهم إلى المدينة؛ وذلك لأنه متهم بالاعتداء على ألباني عمدًا، وقد طلبت السلطات مقابلته.

لم يصدق الكاهن « ستويان » ما سمعه، وبدأ يعرفهم بنفسه... أنا الكاهن الصربي، ولكن ذلك لم يُجد مع الجنود فأخذوه.

(في هذه اللحظة سُمع من بعيد صياح... من الأول أنا الثاني، ولكنه في هذه المرة لم تكن هناك ردود صاخبة، بل وَدَّ كثير منهم أن يسمعوا تمام الحكاية، ثم أكمل رادوي حكايته):

وعندما مثل الكاهن أمام القضاة، لم يعقل في البداية كلامهم، وهم يقولون له: « لقد اجتمعنا من أجل إرساء سيادة القانون وإحلال السلام ولنحمي حقوق الناس، فلا عدوان من أجل دين... من الآن فصاعدًا في هذه البلدة كل دين وكل إنسان تحت الحماية ».

قيل له: إنه لا بد أن يحكم عليه فأجاب الكاهن: أنتم أيها القضاة الجدد لا تعرفون مضطهدينا، ومن أجل ذلك تعفون عنهم وتقضون وفقًا للقانون.

(سكت الجميع في المحكمة).

مسح الكاهن دموعه وأقبل على القضاة، وصاح في وجه الألباني: « أنا أغفر لك، قبل يدي التي كنت تبصق عليها » ، فاقترب الألباني بتواضع وقبل يد الكاهن.

ذرفت عيون القضاة بعد هذا المشهد، وتنفس الكاهن الصعداء وقال: جاء بكم الإله، وهو ينصركم، ويحييكم لأنكم تقضون بالحق، ثم عانق الجميعَ وانطلق إلى قريته مغنيًا طوال طريقه.

(أثناء حديثه أحس رادوي أن شيئًا ما يحدث في الجزء الخلفي عند الرجل السكران، وأخذ ينتقل من طاولة إلى طاولة في سرعة الضوء ويقترب منه). التفت رادوي عن يمينه نحو الطاولة الكبيرة بعينيه الصغيرتين الخضراوين لكنه لم ير بوضوح... وفي تلك اللحظة فهم - بحدسه - ما يحدث في مرج يوفان.

ثم نهض جميع الضيوف الجالسين إلى الطاولة الرئيسية، فبهتوا ولم ينطقوا بكلمة واحدة مستغربين مما يرونه... إلا الكاهن سيكولا الذي كان يكرر: « اللَّهم انصر الصرب ».

فقد اندلعت فوضى كاملة أمام أعين الجميع... انقلبت الطاولات وانكسرت أغصان البستان، وتطايرت البراميل الخشبية من كل الأنحاء، فقد كان يضرب بعضهم بعضًا بحماسة شديدة، وامتلأ المكان باللحوم وبراندي يوفان، وعمد الطاولات التي استخدموها كأسلحة يضرب بعضهم بعضًا بها.

لم يشهد سكان شيليبيتشي مثل هذا المشهد من قبل، مع أنه كان هناك اقتتال بين عشيرتين أو عائلتين ولكن شيئًا كهذا لم يحدث فقد أخذ كل واحد منهم يضرب الآخر.

فمن أين لهم تلك الحماسة... ربما وجدنا الجواب في الخمر واللحوم لو كانت تنطق.

الرجل السكران غليظ العنق والرأس هو الذي بدأ القتال في عجلة أن يكون هو الأول حيث ضرب أقرب رجل منه ضربة أسقطته على الأرض، ثم هجم الآخرون على الرجل السكران فسقط وهو يسبهم وحاول القيام، ثم دخل الجميع في المعركة، فمنهم من يريد التفريق بينهم، ومنهم من أراد المشاركة في الضربات، قام ذِو العنق الغليظ بالكاد، فاستل سكِّينته وأدخلها في جسد أقرب رجل منه دون أن يعرف من يصيب، فسالت الدماء بغزارة همس الكاهن سيكولا: (اللَّهم انصر الصرب!).

* * *

٣

فى الجزء القديم من المدينة، وبالقرب من « بازارشتا » سمع نداء إلى الصلاة من مسجد « تسارافا »:

- اللَّه أكبر اللَّه أكبر
- اللَّه أكبر اللَّه أكبر
- أشهد أن لا إله إلا اللَّه
- أشهد أن لا إله إلا اللَّه
- أشهد أن محمدًا رسول اللَّه
- أشهد أن محمدًا رسول اللَّه
- حي على الصلاة
- حي على الصلاة
- حي على الفلاح
- حي على الفلاح
- اللَّه أكبر اللَّه أكبر
- لا إله إلا اللَّه

وعلى الرغم من أن صوت المؤذن « طاهر » - ذي العمامة البيضاء - لم يكن غضًّا طريًّا كما كان من قبل، إلا أنه ملأ جميع الأرجاء. فقد كان صوته واضحًا قويًّا كاللحن المألوف، ثم بدأ في الخفوت والاهتزاز.. يشبه طائرًا ذا جناحين واهيتين عاجزًا عن الطيران إلى الجنوب.. لم يكن صوته قويًّا مخترقًا بل كان منخفضًا ذابلًا، مما أذهب جماله السابق.

ونظرًا إلى أن الشيخ « مصطفى كاشمو » بلغ من الكبر عتيًّا، إلا أنه كان يخترق سوق « بازارتش » مسرعًا نحو مسجد السلطان « بَايَزيد وَلِيّ » على حد تسميته له؛ لأن ذلك هو الاسم المنقوش على باب المسجد، بينما كان يعرف بين الناس بمسجد « تسارافا » كان يبدو عليه أثر الانزعاج بسبب ضعف صوت المؤذن.. ومع أنه سمع هذا النداء كثيرًا من قبل إلا أنه لم يخالج روحه كهذا اليوم.. كان يسرع نحوه كلما انخفض صوته، ويبطئ كلما علا ليستمع إليه... ويختنق كلما تموج صوت المؤذن في حلقه.. كان يريد أن يصل إلى المسجد دون أن يبلل العرق جسده أو يعكر بياض قميصه.. وأن يدخل رواق

المسجد ويصعد إلى مقصورة المؤذن، محتفظًا بنظافة بدنه من وعثاء الطريق كنظافة قلبه الطاهر.. إنه استشعر أن صوت المؤذن ينشط إذا اجتمع كثير من الناس، ويخفت ويفقد جماله وقوته إذا قلوا.. وصل أخيرًا إلى المسجد، واختفى ظله خلف الأعمدة.. رأى هناك « راغب خوسو » من مُسلُق، و « رامز بلاف » من دوني بوليي، و « أحمد شوالي » من شوهور، و « نصرت حاجيبيرتش » من جرانوفو، و « حمزة قدريتش » ابن ثابت الوحيد.

أسلموا للّه روحًا وجسدًا، لأنه خالقهما.. صلوا صلاة الخاشعين القانتين ويؤمهم « خليل موفتيتش »، يستقبلون الكعبة بيت اللّه الحرام بمكة الذي يؤمه جميع المسلمين.. كانوا يبدون كالجسد الواحد، والروح الواحدة، وربهم واحد، يتلون كتابه ليثبتهم اللّه في حياتهم، ثم يكبرون، ثم يركعون (يسبحونه)، ثم يسجدون (يستغفرونه)، ويدعونه ويرجون رحمته واضعين جباههم على الأرض، متفكرين في خلقه وقدرته، ثم قعدوا يدعونه ويصلون على رسوله ﷺ ثم سلموا عن اليمين وعن الشمال، والآن هم في سلام مع ربهم، وفوضوا أمرهم إلى اللّه.

قام الرجال السبعة يتصافحون، ثم تحلقوا في صمت لا ينظر بعضهم إلى بعض.. كأنهم كانوا يخفون الخوف من شيء ما في عيونهم، مرت الدقائق وكأن على رءوسهم الطير.

كان الإمام الشاب « خليل » ينتظر أن يبدأ الكلام أكبرهم سنًّا، وهو الشيخ « مصطفى » لأن كلماته الحكيمة تسرق الآذان وتأسر القلوب.

ومع أن الشيخ « مصطفى » كان معدودًا من أبرز رجالهم، إلا أنه لم يكن رائق المزاج.. لم يكن هناك شيء يبهجه في هذه الأيام.. كان يحدق نظره في « حمزة » (وهو شاب في الثامنة عشرة من عمره، مهندم، كثير الحركة، تشع الحيوية والنشاط من عينيه) وكلما ازداد تحديقًا في عيون حمزة، قارن بينه وبين صوت المؤذن.

كانوا يقولون عن حمزة في فوتشا: إنه كان أكثر قراءة للكتب من أساتذته؛ ولذلك كانوا يخشون من علمه.

بدأ الشيخ « مصطفى » يتكلم:

الشيخ مصطفى: إنه من الجيد يا حمزة أنك أصبحت متمسكًا بدين الإسلام.

حـــمـــــزة: منذ أن كنت صغيرًا وأنا أصلي في هذا المسجد، لكنك لم تلاحظني بين المصلين الكثر.

الشيخ مصطفى: أتعرف من كان حمزة؟

حـــمـــــزة: نعم، إنه بطل من أبطال الإسلام، جاهد في غزوة بدر التي انتصر فيها المسلمون، واستشهد في غزوة أحد، لقد قرأت كتبًا كثيرة في تاريخ الإسلام.

الشيخ مصطفى: جيد، تعلمت إذن من كل العلوم.. أن يكون الإنسان مسلمًا نقيًّا في روحه، نظيفًا في بدنه لشيء في غاية الروعة.

حـــمـــــزة: الحمد للَّه.

الشيخ مصطفى: سوف تنتفع بهذا طوال حياتك إن شاء اللَّه.

حـــمـــــزة: إن اللَّه يتقبل كل ما هو خير، وأنا أدعوه أن يبقي أبي على قيد الحياة، فهو منذ الصباح لا يستطيع الوقوف على رجليه.

الشيخ مصطفى: ولماذا؟

حـــمـــــزة: هاجمه بعض الرجال عندما كان يعبر جسر جيليزني، وضربوه بوحشية، والآن هو مريض يرقد على فراشه.. هل هذا الذي أصابه من اللَّه؟!

الشيخ مصطفى: يا حمزة، مصيبة ثابت من نفسه، وأنت تعرف ذلك أفضل مني، ولكني أود أن أقول لك شيئًا عن المرض إن كنت تود سماع ذلك.. إن اللَّه طيب لا يقبل إلا طيبًا، وهو خالق الموت والحياة، والظل والحرور.. الصحة هي أهم شيء.. إننا نقضي حياتنا في صحة جيدة، ثم يصيبنا المرض في بعض الأحيان، فلولا المرض ما عرفنا نعمة الصحة، ولولا الشدائد ما عرفنا قيمة السعة.. الموت هو النهاية في هذه الدنيا، ولكنه بداية لحياة جديدة.. هل يمكن أن نتخيل الدنيا بدون الشيخوخة والمصائب.. اللَّه وحده هو المنزه عن النقائص، وما حياتنا إلا اختبار وابتلاء من اللَّه.. عمومًا فأنت تعرف ذلك أكثر مني من قراءاتك.

حـــمـــــزة: نعم، أعرف كل ما قلت، ولكن أبي تعرض لضرب وحشي!!

الشيخ مصطفى: هذا أصابه من الناس.. الخير من عند اللَّه، والشر من عند أنفسنا، فقد سخر اللَّه لنا النهر ونحن نحُمل المركب أكثر مما تطيق، فالإنسان حر الاختيار في فعل الخير والشر.. واللَّه المستعان.

حـــــمـــــــزة: أعرف ذلك يا شيخ مصطفى..

الشيخ مصطفى: طأطأ رأسه ولم يتكلم.

حـــــمـــــــزة: انتفض مسرعًا قائلًا: في أمان اللّه.

الشيخ مصطفى: في أمان اللّه يا حمزة.

(وأثناء حديثهما كان « راغب »، « ورامز »، « وأحمد »، « ونصرت » يحركون رءوسهم ناظرين إلى الأرض، يرمق بعضهم بعضًا، يتخاطبون بلغة العيون تعبيرًا عن عدم رضاهم عما يقوله الشيخ مصطفى.. كانوا يتمنون منه أن يكلم حمزة عن أولئك الرجال الذين ضربوا أباه على الجسر، لكنهم آثروا الصمت ونكسوا رءوسهم، في الوقت الذي كان فيه «خليل » إمام المسجد يقرأ القرآن).

وبعد خروج حمزة رفع الشيخ مصطفى رأسه وتابع كلامه.

الشيخ مصطفى: اسمعوا، حمزة يعرف تاريخ الصرب أكثر من الصرب أنفسهم، وقد قرأ كثيرًا عن الإسلام، لأن ثابتًا أباه أراد لابنه أن يعرف كل شيء عن الإسلام؛ ولذلك أصبح أعلم منا، وبجيراننا من أنفسهم، ففي العام الماضي كان يجمع الوثائق عن حركة « التشتنيك » في البوسنة والهرسك، ومعلومات عن مذابح المسلمين.. اللّه وحده هو الذي يعلم ما يدور في رأسه.

(عند ذلك تغير فجأة حال « أحمد شواليا » التاجر المسن وظهر عليه الانزعاج، وأخذ ينقل سبحته من يد إلى أخرى شادًّا عليها بإبهام أصبعه، كأنه يخشى أن ينزعها منه أحد، ثم تركها وأخذ يتتبع بأصبعه الخطوط الملونة على السجادة.. كان في السبعينيات من عمره.. من أسرة عريقة مسلمة.. قد دنا أجله.. قد وهن العظم منه واشتعل رأسه شيبًا في ليلة واحدة.. كان يهز رأسه ما استطاع أن يفعل شيئا غير ذلك وكأنه استسلم لما هو على وشك الحدوث.. ينظر إلى المسجد الخاوي.. وقد عزفت نفسه عن الحياة).

في هذه اللحظة ما يزال « خليل » إمام المسجد يقرأ القرآن.

وفجأة قام راغب خوشو من مسلك – وكسر هذا الصمت.. بدا وكأن أمامه أمرًا لا مفر من حله.. استدار ليرى الجميع بوضوح.

راغـــــــــب: ماذا بكم؟ دعونا نتكلم بوضوح، لماذا أنت صامت يا شيخ مصطفى؟!

الشيخ مصطفى: كل ما أود قوله ينحصر في جملة واحدة.

راغـــــــب: وما هي.

الشيخ مصطفى: التاريخ يعيد نفسه، وقد أصبح عددنا أقل من السابق؛ كي نصل إلى مستوى يرضيهم.

راغـــــــب: هل أنت راض أن نصل إلى هذا المستوى.

الشيخ مصطفى: لست راضيًا، ولكني أقول لك لتعرف أنه كلما أصابنا شيء نسيناه، ولا نغير من أنفسنا.. فالأحداث لا تتغير وإن تغير الأشخاص.. هناك في « شلبيش » حيث يجتمع الصرب الآن كان يعيش المسلمون، ومنذ نهاية الحرب الأخيرة لا وجود لأحد منهم هناك.

لقد ولد حسن ناظر في « شلبيش » وهو الذي بنى جامع « آلاجا »، ولقب بشلبي نسبة إلى « شلبيش »، وذلك يدل على المكانة العظيمة التي بلغها سكان شلبيش المسلمون، والآن يعيش فيها الصرب فقط، بل أصبحت هذه المنطقة ملتقى الصرب للاحتفال.. منذ عدة قرون وهم يقتلوننا في جميع أنحاء البوسنة، ونحن معزولون لا أحد يساعدنا.. محاصرون من كل مكان، ولا نستطيع المقاومة.. هذه السوق « بازار » التي أمام المسجد يسمونها منذ فترة طويلة سوق « ميلوش أوبيلتش »، والجسر العلوي في « شيهوتينا » الذي بناه محمد باشا كوكافينا يسمونه الآن « دوشان »، والجسر السفلي الذي بناه مصطفى باشا يسمونه جسر « يوغ بغدان ».. مهما أعطينا الذين يجاوروننا - ولو أعنَّاهم حين تخلى عنهم المعين - فنحن في أعينهم أتراك، زنادقة، مرتدون؛ ولذلك فإن مهمتهم المقدسة هي القضاء علينا.. هكذا تسير الأمور منذ معركة كوسوفو!!

في سنة (١٦٦٣م) داهم « بايو ببولانين » - قاطع الطريق - قريتي « غوديا فيسا » و « كونوفو » المسلمتين، وأحرق جميع منازلهم، واستاق ماشيتهم إلى الجبل الأسود..

قاطع راغبٌ الشيخ مصطفى..

راغـــــــب: ماذا سنفعل يا شيخ مصطفى؟! لا يهمنا هذا التاريخ.

الشيخ مصطفى: هداك اللَّه، كل شيء له علاقة بالتاريخ، والتاريخ هو الذي يجيبك عن سؤال ماذا سنفعل.

راغـــــــب: ماذا سنفعل؟

الشيخ مصطفى: كنت أحاول أن أقول لكم، إنه عام (١٧١١م) وعقب الغارة التي

شنها « بايو ببولانين»، اقتحم « ميورادوفيتش » - قاطع الطريق - هذه القرى أيضًا عام (١٨٦١م)، كما قام « نوفيسا سيروفيتش » بنفس العمل سنة (١٩١٨م).. ثم أخذت الأرض من المسلمين.

وخلال احتلال « فوتشا » سنة (١٩٤٢م) ذبح الصرب من المسلمين ثلاثة آلاف وخمسمائة على جسر « جيليزني »، واغتصبوا النساء، وقتلوا، وقطعوا الرءوس، وكانت الدماء تسيل في كل مكان، ثم يلقون الجثث في نهر درينا.

راغـــــــب: هل سيحدث ذلك مرة أخرى؟

الشيخ مصطفى: نعم، فالتاريخ يعيد نفسه، هذا هو بالضبط ما أتحدث عنه.. في هذه المرة سيحاولون تخويفنا كي نهجر هذه المناطق إلى الأبد.. فخلال الحرب الأخيرة غلوا « خالد موفتيتش » في غلاية تصنيع الخمر، ثم علقوا هيكله العظميَّ على باب المسجد، كما قطعوا أعضاء الإمام « تراتين » على الطريقة التي يتوضأ بها المسلمون، فبدأوا بيديه إلى مرفقيه، ثم قطعوا فمه وأنفه، ثم أذنيه، وأخيرا قطعوا رأسه، كما فعلوا مثل ذلك مع والدي.. كل ذلك من أجل تخويفنا. والآن سيعيدون نفس الشيء.. سيغتصبون بناتنا وأزواجنا بين أيدينا، وسيأخذون المسلمين إلى الجسر لقتلهم.

راغـــــــب: هل سنقاوم؟

الشيخ مصطفى: لقد تجمع رجالنا في « دوني بولي »، ولكن الصرب يتلقون المساعدات من جمهوريتي الجبل الأسود وصربيا.

راغـــــــب: كم من الوقت نستطيع المقاومة والصمود؟

الشيخ مصطفى: شعبنا يشبه حزمة متفرقة؛ ولذلك سيصيبنا ما أصاب آباءنا مرارًا وتكرارًا.. الجميع يدافعون عن مناطقهم فقط، فسكان « فوتشا » سيدافعون عن « دوني بولي »، ولكن ليس لدينا دفاع موحد.. سيخرج الصرب القرى أولًا، فإذا وصل الخبر إلى المدينة سوف يتركون منازلهم مختارين.. نحن نخسر لأننا لا نعتصم بحبل واحد.

سكت الشيخ مصطفى، وقد بدا عليه أسف عميق، ثم تابع يقول:

هذا صحيح.. الخير يأتي من عند اللَّه، والشر من عند أنفسنا.. أين المسلمون اليوم في المسجد؟ إنهم سمعوا ما كان يجري بالأمس في « شلبيش »، وبدلًا من أن نجتمع

هنا معًا انشغل كل واحد بحماية أهله وعائلته.. منذ أن طرد الصرب أسرة « دراتش » من « فسيلينا » من أراضيهم، لتحل محلها أسرة « ماكسيموفيتش » الصربية، والت أسرةُ « دراتش » أسرةَ « ماكسيموفيتش ».. المشكلة فينا يا راغب.. تَذكرُ « كونوفو »؟ فإن الصرب في الحرب الأخيرة لم يستطيعوا ضرهم، لأنهم كانوا يقاومون.. الذين يدافعون عن أنفسهم ويقاومون هم الذين توهب لهم الحياة.

راغـــــــب: كيف سنقاوم بدون أسلحة يا شيخ مصطفى؟

الشيخ مصطفى: لقد أرسلت الأسلحة إلينا من « سراييفو » وكلها موجودة في « دوني بولي ».

راغـــــــب: ماذا يقولون في المدينة؟

الشيخ مصطفى: يقولون: إن كل ذلك سوف يتوقف، ولن تكون هناك حرب.

راغـــــــب: ربما نتوصل إلى اتفاقية مع الصرب.

الشيخ مصطفى: سوف تكون هناك اتفاقية، ولكن بعد أن تتم سيبدأون بذبحنا.. كل شيء يعيد نفسه يا راغب.

تعب الشيخ مصطفى من الحديث، فقد كان يتنفس بصعوبة، ولكنهم رغبوا في الاستماع إليه، فتابع حديثه بصوت متعثر:

ستكون هناك اتفاقية على أن نسلم أسلحتنا إليهم ثم يحرقون بيوتنا بعدها، ويغتصبون نساءنا، وبناتنا.. منذ سنة مضت بعد المشاكل التي حدثت في شركة « فوتشا ترانس » والصرب يتلقون الأسلحة، وقد بنوا مستشفى في « شلبيش ».. كانوا يتركون الشموع مشتعلة بالليل، وفى الصباح يجدون أسلحة وذخيرة على عتبات بيوتهم.. منذ معركة كوسوفو والمسلمون نائمون، والصرب متيقظون يا راغب، ولا يزال الأمر على ذلك إلى يومنا هذا.. والمسلمون ممنوعون من التسليح ولو سرًّا.

راغـــــــب: أنت تعرف أن المخابرات السرية في أيدي الصرب، وأنها ستتعرف على وجود أي رصاصة.

الشيخ مصطفى: لا لن يعرفوا كل شيء.. من يخاف من الصرب ولا يقاوم سوف يقتل.. انظر ماذا فعل الصرب، إنهم يحصلون يوميًّا في كنيسة القديس نيكولا - مقرهم الرئيسي - على جرعة من القومية الصربية.. يتشاورون فيها في كل شيء، ويخزنون

فيها الأسلحة والذخائر والزي العسكري.. لقد شاهدت رجالنا وهم يساعدونهم في تفريغ الشاحنات، ويسعون معهم كي يرحموهم في الوقت المناسب.. تلك الكنيسة بناها الصرب سنة (١٨٥٧م) في « شرزلوك » إبان الحكم العثماني.. فقد أرسل الوزير المسلم من « ترافنيك » مالًا لبنائها، وكان يشرف على بنائها المهندس « سباسوى فليتش » من تيتوفو، وقد استغرق البناء عشر سنوات، وكان كلما نفد المال ذهب الصرب إلى « ترانفيك » للحصول على مزيد من المال.. لا ننكر أن تاجرًا صربيًّا هو « رادوفان جولوتشاي » أنفق من ماله لبنائها، ولكن إنفاقه لا يوازي شيئًا إذا قارناه بإنفاق الوزير.. فمع أن الأتراك هم الذين بنوها إلا أن الصرب جعلوها مركزًا لانطلاقاتهم من أجل تطهير « فوتشا » من المسلمين.. اسمحوا لي أن أختم بهذا:

كل شيء يعيد نفسه منذ معركة كوسوفو.. يقتل الصرب جيرانهم؛ لأنهم في نظرهم زنادقة، ومرتدون عن دينهم ولا يريدون الاشتراك معهم في تأسيس دولتهم.. إنهم يصفون الإبادة بحرب التحرير.. وبعد أن تضع الحرب أوزارها لا يسمحون لأحد التحدث عن ذلك.. جميع الصرب يشبه بعضهم بعضًا، وكذلك المسلمون لم يتغيروا؛ ولذلك فلن يتغير شيء.

قال « خليل » إمام المسجد: اللَّهم صَلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، إنك حميد مجيد. اللَّهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد.

خرج الشيخ مصطفى من المسجد تاركًا خلفه « راغب » و « رامز » و « أحمد » و « نصرت » و « خليل ».. حدث نفسه ما الذي سيتوصلون إليه؟!.. هكذا هو حال المسلمين، إذا خرج كبيرهم ومسموع الكلام فيهم زادوا على كلامه كلامًا، فيصبح كلامه المسموع غير متبع.. سيظهرون ميلهم للاتفاق مع الصرب، ويوقعون أنفسهم في خطأ فادح.

فالشيخ مصطفى يفهم ما يرمون إليه.. إنهم يحاولون إنقاذ أطفالهم بكل وسيلة ممكنة.. كل شيء يعيد نفسه !!

طافت على ذاكرته قصة « صفوت » و « ألماسا » [١] اللذين كبرا في السن ولم يرزقا الولد، فتبنيا « ميروسلاف » الذي أعجب بالسعادة الدائمة التي لفَّت بيت « صفوت » و « ألماسا ».

---

(١) ستأتي قصتهما لاحقًا (ص ٨٣).

مشى الشيخ مصطفى بخطوات بطيئة تناسب سنه.. لم يسرع كما كان يسرع للصلاة.. وجد في نفسه قوة دبت فيه من رأفة اللّه به أعانته على صعود التبة، فمر بسوق « بريبكا » فلم يجد أحدًا، ثم مر بمحل لتصليح الساعات لصاحبه « نجاد فوجوفيتش » الذي تزوج امرأة صربية، وكان مدمنًا للخمر، ثم مر بمحل للحلاقة لصاحبه « مانجو » الذي كان يرتاده جميع الشباب، ثم مر بمحل سلوفيني « يوشكو هوديسا » الذي اصطحب الصرب مرة في رحلة لصيد الخنازير البرية، فتخلصوا منه بعد الرحلة بإطلاق النار عليه، ثم توجهوا إلى مركز لإطفاء النار فاحتفلوا بما فعلوا وشربوا الخمور، ثم مر بمحل للأحذية لصاحبه « مويو موسى » الذي كان يشجع فريق « دينامو » لكرة القدم، ثم مر بمحل لـ « آسم مزبور » الذي لم يسئ لأحد قط.. واصل سيره إلى برج الساعة، وبيت المال الذي بناه محمد باشا كوكافيسا حتى انتهى إلى خان كبير دون أن يتوقف لالتقاط أنفاسه.

كان هناك شيء مثير للدهشة في طريقة سيره في شوارع « فوتشا »، كانت تختلف تمامًا عن سير كثير من الناس، كان كرجل يتفقد أولاده.

منذ زمن و « فوتشا » محطة رئيسية للقوافل الكبيرة التي تمر على طريق (دبروفينيك إسطنبول).. كانت القوافل تعبر نهر درينا ثم تشق طريقها عبر « القاباك » ثم ينزلون إلى سوق « بريبكا » حيث يستريحون في الخان الكبير.. يقعدون على الأرائك المنسوجة من الصوف.. ويشربون القهوة والعصائر.. ويطربون بصوت المزامير.. يستمر ذلك عدة أيام، وقبيل الفجر وعلى ضوء الفانوس الضعيف تبرم الصفقات التجارية.

وعند غروب الشمس يذهب الشباب إلى المقاهي على شاطئ نهر درينا.. يشربون القهوة فكهين مع صاحب القهوة التي كان يصنعها من بئر كولين.. لقد سافر تجار « ياكتشيج » و « خنايليج » و « كاراخوجا » إلى مناطق أبعد من « بيج » و« شتا » و « ليبتسج ».. هناك قصص كثيرة عن التجار الذين سافروا إلى دول أخرى ليتجروا فيها، وكذلك عن المساعدات المالية، من ذلك قصة « تحت الوسادة » و « سكان فوتشا واليهود ».

تحسس الشيخ مصطفى خده اللين المشرب بحمرة.. لم يكن خائفًا ولا قلقًا.. فإنه يجب على المسلم أن يبدي مرونة تجاه الشدائد مهما كانت نتائجها.. هذا هو السلاح الوحيد لرجل بلغ مثل سنه.. فمنذ أن انتشر الخبر بين الناس عن اجتماع الصرب في « شلبيش » أغلقت المتاجر التي مر عليها.. الجميع في بيوتهم يفكرون كيف يحمون أسرهم.

حدثته نفسه قائلة: الإسلام عين لن تجف.. يشرب المسلمون من مائه حينًا قليلًا وحينًا كثيرًا حتى يقل دفق الماء، لكنه يكثر مرة أخرى؛ فيشربون منه مرة أخرى.. لكنه عين لن تنضب.

كان الشيخ مصطفى سعيدًا لأن اللّٰه وهبه هذه القدرة على التفكير، وأن يستشعر ما استشعره في سوق برييكا.. التي بني فيها - فترة الخلافة العثمانية - سبعة عشر مسجدًا؛ ولذلك فهي الرابعة في عدد المساجد بعد « سراييفو » و « مستار » و « دبرفنيك ».. وقد بنى جميع المساجد مهندسون من الشرق ومن دبرفنيك، لم يبق منها اليوم من « أورتاكولا » إلى « غورينا بولا » إلا اثنا عشر مسجدًا.. وقد تجاوز جامع « آلاجا » بجماله وقوة بنائه، وارتفاعه، وفخامته جميع المساجد الأخرى، فكأنه أجمل الفتيات، يكشف كل من نظر إليه بارتياب!

على مدى القرون الخمسة الماضية، فإن برج الساعة - الذي بناه محمد كوكو فيسا - كان ينبه التجار والحرفيين أن حياتهم لا تقاس بالمال بل بالوقت، فلو اهتموا بالمال فقط لذهب معنى الحياة.. فليس الغنيُّ من يملك المال بل هو الذي يملك الوقت.. فلو أن تاجرًا توقف عن العمل، وكان لديه ما يكفيه من المال مدة ثلاثة أشهر، فإن غناه يقاس بتلك الأيام التسعين، وليس بما لديه من مال في خزانته.. هذا هو الذي خالج الشيخ حينما كان يتجول في السوق مارًّا بالمحلات.

نزل الشيخ على الطريق المرصوف أسفل برج الساعة.. تحرك ببطء ثم توقف ونظر.. إنه يرى كل المدينة.. توقفت أنفاسه وغاضت حمرة خديه.. وامتلأت عيناه بالاضطراب وكأنه دخل في معركة مع صوت المؤذن الضعيف مرة أخرى.. غلبته أفكار حدسه.. اهتزت شفتاه:

اللّٰهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، اللّٰهم اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب.

اصفرت السماء وكأن الغيوم الصفراء أطبقت على الطرقات الخالية.. حدث الشيخ نفسه وهو يترقب: كل شيء يعيد نفسه.. حدث نفس الشيء عندما سلم الإيطاليون المدينة « للتشتنيك » في الحرب الأخيرة.. اصفرت السماء تنتظر الأمر أن يُقضَى، والجميع يرونها، لكنهم يستبعدون الأمر.. كانوا ينتظرون فقط.

والآن لدى المسلمين المزيد من السلاح، ولكن لا قيادة لهم.. تلك آيات اللّٰه لنا.

نزل مترنحًا نحو مركز الإطفاء الذي انبعثت منه أغنية (.. من الذي يقول.. من الذي يكذب أن صربيا صغيرة؟) .

لم يكن هناك أحد في الشوارع ولكن فجأة توقفت سيارة بالقرب منه.. خرج منها شخص.. تقدم من ورائه ثم طوى ذراعيه ودفعه إلى مقعد السيارة الخلفي.. كل شيء حدث بسرعة.. أغمض الشيخ عينيه حتى لا ينظر إلى أولئك الذين أمسكوه.. أراد أن يحس بما يحدث حوله وهو مغمض العينين، فاتكأ بظهره على مقعد السيارة.. شعر أن السيارة تتحرك.

لقد خلق اللّٰه الحب والجمال، وكل ما هو طيب، وكذلك الشر والكره، وعلى الناس أن يختاروا ما يشاءون.. إنه قال لحمزة: إنه من الجميل أن تكون متمسكًا بالإسلام.. لأن حمزة طاهر النفس، وقد اختار الهدى، أما هؤلاء الذين أمسكوه فقد اختاروا العمى.. أحاط الصمت بالمكان.. لم ير شيئًا.. وفجأة سمع صوت نفسه من شريط « كاسيت » وهو يجيب على أسئلة حمزة وراغب في جامع « تسارفا ».

كان كلامه مسجلًا على شريط « الكاسيت » وقد أسمعوه إياه.. فتح عينيه ونظر حوله.. على المقعد الأمامي شابان يغضان أبصارهما، بينما كان ينظر إليه من كان يجلس بجواره.. جميعهم من الشباب.. يبدو عليهم أنهم حديثو التخرج.. يرتدون البذلات.

خاطبه من يجلس بجواره بهدوء:

ـ لقد تحدثت جيدًا عن « حسن تراتين » لقد سمعت عنه من والدي عندما كان في « جديان ».. وأخبرني بشيء آخر أيضًا سأخبرك به عندما نصل إلى النهر.. لقد أخذ والدي والدك من قبل إلى نهر درينا!

استغرق انتقالهم وقتًا طويلًا.. كانت الشمس على وشك الغروب.. عدلت السيارة عن الطريق ثم توقفت.. لقد وصلوا إلى منطقة « كوبي ليفينا » التي يجري تحتها نهر درينا.

خاطب الشيخَ مصطفى مَنْ كان بجواره آمرًا له:

– انزل إلى النهر، وتوضأ وصلِّ العصر، وأنا سأنتظرك هناك كما كان والدي ينتظر أباك.

شق الشيخ طريقه إلى النهر ببطء.. نوى الوضوء ثم قال: بسم اللّٰه، وغسل يديه إلى كفيه ثلاث مرات، ومضمض ثلاث مرات، ثم غسل وجهه، ثم يده اليمنى واليسرى إلى مرفقيه ثلاثًا، ثم مسح رأسه وأذنيه (ورقبته !) ثم غسل رجليه ثلاثًا، وأثناء الوضوء

كان قد تشهد وبسمل، وهم يراقبونه في كل ذلك.

وبعد أن صلى العصر على شاطئ النهر، خاض في النهر قليلًا ثم ناداهم تعالوا.. أحضروا سكاكين كبيرة من السيارة.. قد علموا طريقة الوضوء منه، وهو أيضًا كان يعرف لماذا أمروه بالوضوء.. حدث نفسه: كل شيء يعيد نفسه.

قطعوا أولًا يديه إلى رسغيه، ثم فمه وأنفه، ثم جرحوا وجهه، ثم قطعوا يديه إلى مرفقيه لم يصرخ ولم يتألم وهم يقطعون أعضاءه.. فكر في نفسه لأول مرة: هل من هذا التكرار خروج.. هل من القدر أن يذبح أب أبًا، وابن ابنًا في وقتين مختلفين..كان حمزة في قلبه يدعو له ثم قطعوا رأسه.

لم يعد - في المساء - راغب خوشو، ولا رامز بلاف، ولا أحمد شواليا، ولا نصرت حاجي بيبريج، ولم يرهم أحد بعد ذلك مرة أخرى.

وأثناء الليل دخل رجلان مسلحان من الصرب يرتديان القبعات التقليدية لفلاحي الصرب بيت « ثابت قدريتش » الذي كان يعيش وحيدًا مع ابنه حمزة؛ حيث توفيت زوجته قبل عام.

كان يمشي على الجسر مهمومًا، يحدق ببصره في نهر « درينا ».. وذات مرة وهو يعبر الجسر مر به « باكتو شوشافيتش » فسأله:

ماذا بك يا ثابت؟ هل جننت؟ لا تفعل شيئًا إلا المرور على الجسر والنظر إلى النهر.

ـ كلما مررت على هذا النهر تذكرت والدي، والآن كبرت واستغرقتني الذكريات.. لدي شعور سيِّئ فيما سيحدث يا « باكتو ».

ـ لقد فقدت صوابك يا ثابت.

ـ أنت ترى ولا تبصر يا «باكتو ».. هل هناك أسوأ من هذا؟!

ـ ما هي الحياة يا ثابت.. نحن نعيش في عجلة منذ الولادة إلى الموت، وبعد الموت سيكمل ابنك هذه العجلة.

ـ السعي بين الصفا والمروة طلب لطهارة الروح.. أسأل اللّه أن ينور طريق حمزة.. من ضل عن طريق اللّه لا يظفر بالأمن.

ومنذ أن ضربه رجال مجهولون في تلك الليلة على الجسر لازم فراشه ولم يستطع القيام ولا الكلام.

وفي تلك الليلة المأساوية كان حمزة قائمًا خلف بيت « باكتو » ولاحظ دخول رجلين مسلحين عنده، وظن أنهما يبحثان عنه فانتظر حتى ينطلقا.. سمعت عدة طلقات.. لقد أطلقوها على ثابت.. خرجوا من البيت بعد أن سكبا البنزين وأشعلا النيران.. أسرع حمزة إلى بيته، وأطلق عليهما النار من بندقيته « الأوتوماتيكية »، فسقطا أمام بيته.. جرهما إلى بيته الذي أشعلاه بالنار.. لقد عرفهما إنهما إخوة لرادوفتش.. ثم غادر المكان.

وفي تلك الليلة نزل مطر غزير مصحوب بالرعد والبرق.. كان الماء يجري من كل مكان.. أحس أن الرعد شخص يدب برجليه، والبرق سيفه يبطش به.

* * *

٤

في سنة (١٨٤٥م) طلب صرب فوتشا من وزير« ترافنيك » بناء كنيسة كبيرة وسط المدينة، مختلفة عن كنيسة « كاورسكو بولي » التي ينتمي رهبانها إلى « أبريشيه ميايشيفو ».. كانو يرغبون في بناء كنيسة كبيرة على نمط الكنيسة الشرقية، تكون محاطة بأسوار عالية من جميع الأطراف، بأبواب حديدية ضخمة؛ كي ينفصلوا عن « بريكا تشارشيا »، وعن صوت المآذن، والسوق؛ حتى يتمكنوا من إقامة صلواتهم مطمئنين، ناظرين إلى الصور الكنسية، منعزلين عن العالم الخارجي، وبذلك كانوا في حاجة إلى كنيسة ذات أسوار عالية، ولم يخطر على بالهم أن يوافق الوزير على بناء الكنيسة، ولكن تمت الموافقة.

انطلق كبيرهم إلى « ترافنيك » بالرسومات الهندسية الخاصة بالكنيسة، وبعد فترة وجيزة بدأ العمل في بناء أكبر كنيسة في « بودرينيا ».. لم يعط الوزير الأموال للصرب، ولكنه وكَّل ثلاثة من التجار الأمناء من المسلمين - وهم « مورات كاراخوجي » و« إبراهيم كاشمي » و «مدين خنايليتش » - للإنفاق على إنشاء الكنيسة، كما أنفق تاجر صربي من فوتشا - وهو رادوفان غلوداشاي - من ماله لبناء الكنيسة، وقد تبرعت بالأرض التي ستبنى عليها الكنيسة السيدة « سافكة ولاسيليتش » المولودة في « دبروفنيك » وهي زوجة التاجر « دميتريا يوفتش ».

استمر بناء الكنيسة عشر سنوات، على خلاف ما أخبروا به الوزير من أن بناءها لن يتجاوز خمس سنوات.. وبعد مرور خمس سنوات من بداية البناء توقف التاجر الصربى عن إمدادهم بالمال لانتهاء الفترة المقررة لبنائها، فاتجهوا إلى الوزير والتجار المسلمين.

وقد أشرف على بناء الكنيسة المهندس « سباسوى ووليتش » من تيتوفو في مقدونيا والملقب بـ «ديشان »، وهو رجل هادئ السلوك، مقوس الظهر.. كان يرفع وجهه إلى أعلى إذا كلمه أحد؛ ولذلك لم يكن يتحدث كثيرًا، ولكنه كان حازمًا مع العمال كي ينفذوا كل ما هو مخطوط في الأوراق.

بقي من الذكريات صورة ذلك المهندس الواسع الكتف، المنحني الظهر، الذي كان يدور برأسه الصغيرة، مع لمحات بصره السريعة؛ وذلك لإصابته بمرض.. كان يشير بيديه إلى العمال لإنجار المهمة كما هو في الأوراق.. وهم لا يكادون يفهمون ماذا يريد، كأنهم غير ماهرين في إكمالها.. لم يفهموا أنهم أخطأوا في بناء القباب، ولكن الذي

جعله راضيًا جدًا هو ذلك البنيان الكبير للكنيسة الذي فصلها عن السوق، وذلك أهم مطلب له، والذي زاد رضاه تلك الأبواب الحديدية الضخمة المنقوش فوقها على دائرة حجرية تاريخ (٢٠ سبتمبر ١٨٥٧م).

كان لها ثلاثة أبواب، أحدها الباب الحديدي الضخم الذي يقع في الجهة الغربية.

كانت الكنيسة ذات جدران عالية، ونوافذ رفيعة، مقسمة إلى المذبح والهيكل، تختلف تمامًا عن الكنائس الأخرى القديمة، وكان على جانب الكرسي تمثالان لأسدين، مثلما كان في كنيسة « ستودينسي ».. وقد كان المهندس على حق في البذاءات التي يوجهها للعمال عند بناء القباب؛ لأنها لم تدم أكثر من عشرين عامًا حتى تصدعت وتشققت، فاستبدلوها بسقف على هيئة مثلث.

ومنذ (فبراير ١٩٩٢م) كان يزور الكنيسة أبرز سكان « فوتشا »، أحيانًا يدعوهم الكاهن « سيكولا »، وأحيانًا رئيس الحزب الصربي « رادوفان كاراديتش »، فبعضهم كان يذهب إليها تدينًا، بينما يذهب إليها البعض الآخر من أجل السياسة الصربية.

ومنذ بنائها لم تشهد عددًا كعددهم وقتئذ، حتى إن ذلك العدد فاق عددهم في (٢٠ يناير ١٩٤٢م) في احتفالهم « بتحرير فوتشا »!

تعجب المهندس « سباسوي » عندما رأى الصرب يرتدون الزي العسكري، ويدخلون إلى ساحة الكنيسة صناديق السلاح الذخيرة، بأمر من الضابط « كوفاتش »، في حين اجتمع كبار السن حول الكاهن « سيكولا » والأستاذ « أوستويا » ثم انطلقوا معًا إلى المذبح الكنسي.. وقد توافد الصرب إلى الكنيسة كأن سير العرم يتبعهم وهم يفرون منه يبحثون عن مأوى لهم.

شهد المسلمون كل ما يجري، ولكن ما الذي يستطيعون فعله؟ فقد شل تفكيرهم، كل شيء يجري بسرعة هائلة بدأ من الاحتفال في « تشاليبش » والاجتماع في كنيسة القديس « سيكولا » وانتهاء بالضابط الذي أتى من بلجراد.

المسلمون الذين كانوا على علاقة بـ « سراييفو » استطاعوا الحصول على السلاح، وقاموا بإخفائه في بيوتهم، لكن الصرب حصلوا على معلومات عن أولئك المسلحين من المسلمين.

لأول مرة منذ اجتماعاتهم الكنسية يحدثهم الكاهن « سيكولا » عما قرأ من القرآن..

تكلم بصوت منخفض، لكنه حاد حتى سمعت كل كلمة قالها:

« كتب في القرآن: إن اللَّه إله واحد، يأمر الناس بعبادته وطاعته، ومن الواجبات على العباد الصلاة بخشوع، والجهاد في سبيل اللَّه دون خوف في ذلك من لومة لائم، ومن يطبق ذلك فهو المسلم الذي سيدخل الجنة، التي فيها يتمتعون بالنظر إلى وجه اللَّه، والجنة الخضراء التي تجري من تحتها الأنهار، والحور المقصورات... ».

أراد الكاهن « سيكولا » أن يوضح كل شيء:

« محمد هو الرجل المقدس، أرسل ليصلح كل ما أفسده الآخرون، وهو أفضل المرسلين.. المسجد بسيط من داخله جدًّا لا صور فيه ولا تماثيل، ومن خارجه المآذن الرفيعة التي تنتهى بقمم مدببة مخروطية.. مناسكهم صعبة؛ فالمسلم لا بد أن يصلي خمس مرات في اليوم، وإن لم يجدوا الماء تيمموا بالتراب.. تعدد الزوجات مشروع عندهم.. ويؤمنون أن اللَّه قدَّر كل شيء ».

ثم توقف كأنه تذكر شيئًا:

« جيراننا منذ القديم كانوا على ديننا الأرثوذوكسي، الذي أسس في المؤتمرات المقدسة في « نيقية ».. يا إخواني أنتم باسم الرب ستحرروننا من القرآن! باركَكم الرب في كل خطوة تخطونها في سبيل ذلك، واللَّه معكم هناك، تقبلوا مباركة الكنيسة، وبالسلاح الصربي افتحوا لنا أبواب المجد، وليفتخر بكم الوطن، وكل ما ستفعلونه سيباركُكم الرب في كل خطوة تخطونها ».

ثم قام الأستاذ « أوستويا » متحدثًا:

« يا إخوتى الصرب، تذكروا ما كان مرسومًا على علم جمهورية صربيا المستقلة: من أجل الملك والوطن مع الإيمان باللَّه.. هذا هو القسم واليمين.. أوفوا بعهودكم لنثأر لأنفسنا مما حدث في « كوسوفو ».. سيتوحد الصرب.. هم ينتظرون ذلك ».

ثم تكلم العجوز « جرويو » وكان متكئًا على عصاه في جانب، وهو الذي كان يذبح جيرانه في التمرد الصربي الأخير على جسر « جيليزني » بصوت عال دوَّى في أرجاء الكنيسة:

« لاترحموا أحدًا! اذبحوا كل واحد منهم حتى صغارهم لا تتركوهم أحياء، اذبحوا « باليا »[1] حيث وجدتموهم، وألقوهم في نهر « درينا » فإنهم - من خوفهم - سيرحلون

(١) تعني الساذج الرجعي، يقصد المسلمين.

من هنا، وابدأوا بالقرى؛ لأن سكانها لا يستطيعون المقاومة، ثم يكون الاستيلاء على المدينة أمرًا يسيرًا، أحرضكم على ذلك.. هناك عند فندق «زيلنجورا » الذي لم يكن موجودًا من قبل، بل كان مكانه مقاه لإخوتي تجري من تحتها أنهار « شيهوتينا » كان يصنع الخمر والعسل الأسود في الغلاية.. آه فيها غَلَيْنَا « حامد موفتتش » ثم علقنا هيكله العظمي على شجرة عند مسجد جعفر بك.. وقال ناصحًا لهم: اذبحوا أولًا من أراد أن ينضم إلينا منهم، فإن من خان قومه لا نأمن أن يخوننا.. أريد أن أسمع الأوامر مرة أخرى من القائد « زاهري » والرائد « باولو جورتش »!! ذبحنا ثلاثة آلاف من المسلمين.. أريد أن أسمع هذا، وغدًا احرقوا سوق « بازاريتش » وجميع الدكاكين والمتاجر، لقد نسينا كل شيء !!ففي القرون الوسطى كانت هذه المدينة تسمى « رادوفينا » ثم سميت « فوتشا » ، وذلك المسجد « تسارفا » كان من قبلُ كنيسة[1].. فليباركم الكاهن « سيكولا »، عليكم خداع المسلمين.. تعرفون لماذا أقول لكم اذبحوهم جميعًا ولا تتركوا فيهم أحدًا؟! لأنني لا أريد أن يتكرر ما حدث في « كونوفو » مرة أخرى، الـ « كونوفو » عار في حق الصرب!

فقد طلب « شارتش » و « دافيدوفتش » و « رادوفتش » من سكان « كونوفو » أن يسلموا أسلحتهم، ولكنهم أبوا ولم يأمنوهم، وكيف يأمنونهم وقد قتلوا جميع المسلمين قبل أن يصلوا إلى « كونوفو »؟!

وبعد ذلك توغل الصرب في « كونوفو » واعتقلوا الأطفال والنساء والعجائز في بيت « سمايو زيتش » ثم ذبحوهم وأحرقوا البيت عليهم.. ولكن نجا عدد قليل من الأسر، ووجدوا مأواهم في بيت « علي تراكو ».. ولم يكن لدى سكان « كونوفو » من الأسلحة سوى بندقيتين، وقد نجح « علي تراكو » و« سليمان ديليتش » في الدفاع عن النساء والأطفال وإنقاذهم من المجزرة لمدة (٣٨) يومًا.. ورفض سليمان وعلي الاستسلام لهم، وبعد مفاوضات مع « البارتيزان »[2] اكتشفوا الفضيحة الصربية الكبيرة، وهي أنه لم يكن في البيت ست وأربعون بندقية، ولا ستة مدافع رشاشة كما كانوا يقولون في « فوتشا »، لم يكن هناك سوى بندقيتين ورجلين وكثير من النساء والأطفال.. والذي

---

(١) ما ذكره كذب ومخالف للتاريخ، وهو ليس غريبًا عليهم !! بنى هذا المسجد بايزيد الثاني (١٤٨١-١٥١٢م) معروف بمسجد ساريفا.

(٢) المعنى اللغوي لكلمة : محاربو العصابات أو المتمردون، خلال الحرب العالمية الثانية في أوروبا، داخل بعض البلدان (فرنسا، بولاندا، ألبانيا، اليونان، يوغوسلافيا سابقًا) ليحافظوا على استقلال دولتهم.

حدث أن الـ « تشتنيك الصرب » كانوا يطلقون النار على سطح بيت علي، فكان الرصاص يخترق الألواح الخشبية إلى الجهة الأخرى حيث الصرب الذين ظنوا أن البيت مليء بجنود أوستاشا الكاثوليك[1]، وانتشر القول بين سكان « فوتشا »: إنه لو أتت وحدات من جيش مملكة يوغسلافيا لما استطاعوا الاستيلاء على « كونوفو ».

* * *

(١) أوستاشا: المعنى اللغوي لكلمة : التمرد، و هي حركة نشأت نتيجة للطغيان الكبير ضد الكروات (الكاثوليك) في النظام الدكتاتوري الصربي، وهم عضو في المنظمة الفاشية الكرواتية في الحرب العالمية الثانية.

٥ طلب الصرب من المسلمين في قرية « جيجافو » أن يسلموا أسلحتهم من أجل « التهدئة » ووقف الاعتداءات.. كانوا يعلمون أن القرية التي تقع بالقرب من برود في « فوتشا » يوجد بها أربعون مسلمًا مسلحًا، وذلك كان يخيفهم جدًّا.. كانوا دائمًا يتفاوضون معهم لوضع أسلحتهم، وذات مرة أرسلوا « شوكور » لنصيحتهم - أو بالأحرى خداعهم - بتسليم أسلحتهم، وهناك في قرية «كوته » أخذ الصرب يعلمون «شوكور » كيف يخدع المسلمين.

حضر هناك بعض الصرب من قرية « كوته » وبدأت المفاوضات بين صرب فوتشا، والمسلمين من قرية « جيجافو » وغيرها من القرى المحيطة بها.. جاء من فوتشا « بيرو » المولود في « ميلافينا »، و « جويكو » المولود في « ترنو فاتشا ».. كان هؤلاء يطلبون من « أنور » إقناع المسلمين بتسليم سلاحهم من أجل التعايش السلمي مع الصرب.. ولكن أنور لم يفهم كيف يمكن أن يعيش الصرب مع المسلمين في سلام، وهم مسلحون، ويطلبون الاستيلاء على أسلحة المسلمين؟

خاطب نفسه: إن أرادوا السلام حقًّا فلتأخذ الشرطة السلاح من الجانبين، فقد كانت القرى الصربية المجاورة مسلحة بشكل جيد، ثم يطلبون من المسلمين تسليم أسلحتهم.. طرح أنور هذا السؤال أمامهم وهم في « كوته » فأجابه « فاسو »:

- جميع الصرب في «فوتشا « يملكون سلاحًا.. من يستطيع الآن أن يجبرهم على تسليم سلاحهم.. الصرب يريدون أن يكون لهم الحكم في « فوتشا » فقط؛ ولذلك هم محتاجون إلى السلاح، فكيف تطلب من الصرب أن يتخلوا عن أسلحتهم وهم يجاهدون من أجل أن تكون « فوتشا » صربية ؟! إذا سلم المسلمون أسلحتهم فسوف يعيشون تحت حماية الصرب في « جيجافو »، وإن لم يسلموها فلا مفر من غاراتنا عليها.. انظروا ماذا تريدون؟!!

أنـــــور: استمع إليَّ يا « فاسو » نحن لم نعتَدِ على أحد، ونحن في حاجة إلى الأسلحة لحماية أنفسنا، فكيف ندافع عن أنفسنا إذا كنتم قد قررتم مهاجمتنا؟

« فاسو »: أنا أقولها لك مرة أخرى، لن نهاجم « جيجافو ».. وإلا فلن يمنعنا أحد من الهجوم.

أنـــــور: إذا سلمنا أسلحتنا، فكيف نثق بكم؟!

« فاسو »: إذن أنتم لا تصدقوننا!!

لم يرد المسلمون وضع أسلحتهم، وكانوا مضطربين من رسالة « سافو » عن لزوم إقامة حكم صربي في « فوتشا »، ومن تعرضهم لهجوم الصرب إن لم يسلموا أسلحتهم، كما أبلغهم أنور.. ساءلوا أنفسهم: ماذا لو سلمناها ثم هاجمونا؟

رفع حامد - الذي بلغ الثمانين - صوته حتى يتمكن الجميع من سماعه:

لو تخلينا عن أسلحتنا فسوف يهاجموننا، ويقتلوننا جميعًا، على الأقل مع وجود السلاح سوف ينجو بعضنا.

اجتمع المسلمون مع « مارينكو » و « زوران » الصربيين، وهما من « جيجافو ».. وضع جميع المسلمين أسلحتهم أمامهم، وقعدوا على السجادة في أكبر غرف البيت ينتظرون ما سيتوصل إليه « باولوفيتش » و « أنور » وهم يعلمون أن آخر موعد لتسليم أسلحتهم صبيحة غد، انتظروا صامتين أن يبدأ « مارينكو » الذي كان جالسًا مع صفوت وأنور وزوران على الطاولة الكلام، فلما اجتمعوا قام « مارينكو » وقال:

ـ يا إخواني المسلمين، لقد عشنا منذ زمن في نفس القرية، وحان وقت الفراق لينضم كل منا إلى شعبه! فمنذ سبعة أيام انتقلت أنا وأهلي إلى قرية « كوته » لكي أكون مع إخواني الصرب.. أنتم لا تريدون العيش مع الكروات الكاثوليك في يوغسلافيا، فبقيتم أنتم والصرب، ونحن نريد أن نعيش مع شعبنا الصربي أينما كانوا؛ ولذلك ستكون السلطة في فوتشا صربية فقط؛ ونظرًا لأن الحكم في فوتشا صربي فينبغي أن لا يحمل السلاح أحد غير الصرب، وعلى الآخرين تسليم أسلحتهم إلينا.. هذا كل ما في الأمر! أنتم سوف تعيشون في « جيجافو » تحت حمايتنا.

أنهى « مارينكو » كلامه، وطأطأ رأسه وانتظر..

استغرب المسلمون من كلام « مارينكو ».. كيف يكون الحكم في فوتشا صربيًّا، وأكثر سكان فوتشا من المسلمين.

سأل إبراهيم الذي كان بجوار مارينكو ما معنى سلطة صربية يا مارينكو؟

- يعني أن يتولى الصرب الحكم.

ـ وماذا لنا؟

ـ ليس لكم شيء إلا أن تسلموا أسلحتكم لنا.

ـ سوف تقتلوننا جميعًا، إن سلمنا أسلحتنا يا جاري!

قال حامد أكبرهم سنًّا: إني أذكر عندما أخذ الصرب السلاح من المسلمين في الحرب الأخيرة، ثم اقتادوهم إلى جسر « جيليزني » في فوتشا.. عشرة من الصرب المسلحين سيطروا على ثلاثمائة مسلم غير مسلح فذبحوهم، وحينذاك كانت السلطة للصرب يا مارينكو، حتى جاء جنود البارتيزان، وكذلك ستفعلون في هذه المرة.

ـ هذه الأوقات تختلف عن الزمان الغابر، وها هو إبراهيم أمامك.. سله عني كيف كنت جارًا له.. قل لهم يا إبراهيم.. واسألوه!!

ـ لا أريد أن أكذب.. كنا دائمًا نتعاون كأسرة واحدة، وكان أولادنا يدرسون معًا في المدرسة.

– أرأيت! كيف أعتدي عليك بعد هذا.. سلموا أسلحتكم لنفرح جميعًا.. أنا سأرحل الآن، ويمكنكم إخبارنا غدًا عن قراركم.

قام أنور وكان طويل القامة أسود الشعر.. تحدث بهدوء لكنه أسمع الجميع:

ـ استمع يا مارينكو، أبلغ قومك في « كوته » أننا لن نتخلى عن أسلحتنا.. فكيف نحاربكم، وأنتم أكثر أسلحة منا.. هي للدفاع فقط، فلماذا تضايقكم إلى هذا الحد إذا كنتم لا تخططون لمهاجمتنا؟! جميع الصرب في القرى المجاورة مسلحون تسليحًا جيدًا، وأسلحتنا فقط هي التي تضايقكم.. اتركونا، فليكن الحكم في المدينة للصرب، ولكن لا تأخذوا أسلحتنا منا الآن.

– هل هذا هو القول الأخير؟

– نعم، هو ردنا النهائي.

توجه مارينكو وزوران نحو الباب، وأفسح لهم المسلمون الطريق للمرور.. وبعد مغادرتهم مر وقت طويل من الصمت حتى تكلم رحمان ذو البدن النحيف:

ـ اسمعوا، ربما كان من الأفضل أن نسلم أسلحتنا.. لن يدوم ذلك وقتًا طويلًا.. دعوهم يتوصلون إلى اتفاق مع سراييفو، والأمور لن تستقر في القرى كذلك، إنهم قالوا: إنهم لن يهاجمونا إذا سلمنا أسلحتنا.

قفز أنور على قدميه وقال: فماذا لو هاجمونا بعد تسليم أسلحتنا؟ قاطعه حامد: مهما فعلنا فسوف يهاجمنا الصرب.

لم ينتظر الصرب الجواب عن تسليم السلاح، وشنوا غارة على « جيجافو ».. حاصروا

بيت صفوت وحسن، بينما كان المسلمون نائمين.

بعد مشاورة طويلة بالليل ولم يتخذوا حراسًا.. أطلق الصرب النار على نوافذ البيت من الرشاشات الآلية، وطلبوا منهم الاستسلام.. سمعوا صوت مارينكو:

ـ يا أنور، أنتم محاصرون! استسلموا، وإن لم تفعلوا فسنشعل النار في البيت.. ثم أطلقوا النار مرة أخرى.

لم يتوقع سكان « جيجافو » ذلك الهجوم المباشر من جيرانهم، وهم في مرحلة التوصل إلى اتفاق.. فرد بعضهم بطلقات عشوائية، وبعد عدة دقائق سمع صوت: هيا بنا نستسلم.. خرج صباح الدين وأبوه صفوت من البيت، وبمجرد خروجهما أطلق عليهما الصرب النار فسقطا ميتين على الأرض.

صاح مارينكو مرة أخرى: لن نقتل بقيتكم إن رميتم السلاح عبر النافذة.

ولم يدر أنور ومن معه كيف يتصرفون.. بدأوا يلقون البنادق من النافذة، ثم خرجوا رافعي أيديهم مستسلمين.

لم يطلق الصرب النار عليهم أولًا، ولكن انتظروا حتى ابتعدوا عدة أمتار من البيت ثم ربطوا أيديهم بأسلاك شائكة، وعندما دخل مارينكو ومعه صربي آخر بيت صفوت وجد « حامدًا » يجلس على أريكة يحدق بنظره إلى الخارج من خلال نافذة مكسورة، ناداه صاحب مارينكو:

ـ يا حامد!

عرف حامد الصوت، واستدار نحوه.

ـ أنا ستويان بن يوفان رادوفتش.

ـ أخذوا ابني « راسم » يا ستويان!

وفي تلك اللحظة أوقد الصرب النار في البيت، وانسحب مارينكو منه، وجر الجنود ستويان بالقوة خارج البيت.

لم يتحرك حامد من على مقعده في البيت الذي اشتعل نارًا.. وقبض الصرب على سبعة وثلاثين مسلمًا من المسلحين، وعند أول نهير أطلقوا النار على أنور، وموير، وفريد، وسعاد، وصفوت، وحسن، وحمزو، وسمايو.. وذلك وفقًا لأوامر بيرو، وجويكو، ومارينكو، وزوران.. وأخذوا راسم إلى معتقل فوتشا، كما اعتقلوا فيه أيضًا

مويو، وألمير، وألودين، وزولفو، ورامز، وسعاد، وحيدر، وآفدو.. أما بايرو فقد أجبروه على إشعال النيران في بيوت المسلمين في منطقة « جيجافو ».

نقلوا الأطفال، والنساء في الشاحنات إلى المدرسة الابتدائية بحي « برود » بالقرب من فوتشا، أما البنات فأخذوهن إلى فندق « زيلانجورا » وإلى شقق سكنية بالقرب من مطعم « ريبارسكى » في فوتشا.

* * *

٦ [الساعة الثانية بعد منتصف الليل.. سقط رجل الإطفاء « جويان » مغشيًّا عليه في نهاية الجسر بحي « برود » القريب من فوتشا، فلما أفاق كانت الشمس قد طلعت.. رفع رأسه فإذا هو نائم على الجسر بجوار سيارة الإطفاء ذات الخرطوم الطويل الذي يصل إلى منتصف الجسر التي لا يزال ضوؤها الأمامي منيرًا.

كان ضئيل الجسم، صغير الرأس، ولأنه كان طويل القامة فقد بدا عليه الزي العسكري قصيرًا.. حدق بنظره نحو منتصف الجسر، كانت أفكاره مضطربة جدًّا.

كانت مهمته غسل برك الدماء على الجسر بخرطومه الكبير بعد منتصف الليل لمدة ساعة كاملة، لكنه لم يستطع غسل تلك الدماء كلها؛ لأن أثرها لا يزال عالقًا بالأرض، مع أن كثيرًا منها ذهب مع ماء الخرطوم في النهر وبعد عدة محاولات تبين له أن محاولة إزالة تلك الآثار العالقة بالأرض أمر عبثي، يشبه المستحيل.

إنه يذكر حينما أتى الصرب بأربعة نسوة من المدرسة وقد قتل أزواجهن، في « جيجافو » أو اعتقلوا في معتقل فوتشا وأمروهن بغسل الجسر، وكان هو يصب الماء، وبعد ساعتين من الغسيل الشاق للجسر أرجعوهن إلى المدرسة.. ثم ألقى « جويان » نظرة أخرى على الجسر، ولم يصدق ما رآه بعينيه.. لا تزال البقع السوداء موجودة.. فبرك الدماء كانت تتغلب على كل شيء من أجل بقائها كالعلامة هناك.. قرر أن يفرغ كل خزان المياه على بقع الدم الدكنة المنتشرة؛ ليعود بعدها إلى المدينة.

دخل السيارة وانتظر.. حدث نفسه: ماذا أفعل إن أمرت بتغسيل الدماء كل ليلة.. إن مهمة « رادومان » سهلة.. ليست هي إلا ذبح المسلمين من « جوزا » مع رجاله إلى منتصف الليل، ثم ينصرف إلى بيته تاركًا لي غسل الدماء].

كانوا قد دعوه أن يغسل الدماء التي سفكها « رادومان ».. فغدًا سيكون جميع المسلمين من القرى المجاورة لمنطقة برود في طريقهم إلى المذبحة.. وسوف ينوب عن « رادومان » « غويان » أو « بيرو » ثم بعدهما « بانكو »، ولكن لا أحد ينوب عن « جويان » في مهمة تغسيل الدماء.. ولكن من سيقوم بمهمة تغسيل الدماء من جسر « جيليزني » الكبير في فوتشا.

طابور طويل يمتد حوالي ثمانين مترًا، كانوا يمشون منكسين رءوسهم، خاطبهم الصرب:

ماذا دهاكم يا « باليا » أتريدون البوسنة مستقلة؟ أين رئيسكم «علي »[1] الآن؟.. هناك « رادومان » في انتظاركم.

كان في أول الطابور:

محمد، وحمدى، وأدهم، وعالم، وإسو، ومويو، وحليم، وأسد.. جميعهم من « ترنو فاتشا ».

عندما أشار « رادومان » بيده تحرك الجميع إلى الأمام، وعلى رأسهم محمد.. أمرهم « غويان » بخلع ملابسهم إلى خصورهم، وأن يرفعوا أيديهم فوق أقفائهم.. استل رادومان سكينة كبيرة وحادة من جراب، وانتظر.. نادى « غويان »:

- هيا يا محمد.

كان عمره ستين سنة، اقترب ببطء، ورادومان يحدق فيه، رفع رأسه وألقى نظرة نحو نهر « درينا » حيث كان أدناه جسر قديم تم تدميره أثناء الحرب الأخيرة على يد « البارتيزان » الذين ولوا أدبارهم - الذي تدور الماء أسفله دورانًا يشبه الدوامة.. تبتلع كل شيء، وقد ذبح عليه من قبل مسلمو بشكوفيتش.

مد رادومان يده اليسرى، وشد محمدًا من رأسه، وحناه كهيئة الركوع، وبتر حلقه بسرعة، وكاد أن يقطع عنقه عن آخرها.. سالت الدماء غزيرة ثم أغمد سكينته في صدره فتشنج جسده.. لم يسمع له صوت، ثم أسند جسده على سور الجسر.. كان الجميع ينظرون ولا يكادون يصدقون ما يحدث.

صاح « غويان »:

ـ ماذا بكم يا «باليا »؟ أخائفون؟ تقدم يا حمدي.. ألق جسد محمد إلى النهر.

اقترب حمدي..

صرخ « غويان »:

ـ ألقه إلى النهر!

رفع حمدي جسده وألقاه في النهر.. وسمع الجميع صوت جسده وهو يسقط في النهر.

كان رادومان يرقب حركة حمدي، وانتظر منه أن يبتعد عن سور الجسر، ثم أخذه

---

(١) يقصد علي عزت بيجوفيتش، رئيس البوسنة السابق.

برأسه وأغمد السكين في رقبته، حتى خرجت من الناحية الأخرى.. تفجرت الدماء على وجه رادومان، لكنها لم تمنعه أن يخرج سكينته من حلقه، ثم دفع جسده إلى سور الجسر.. كان جسده معلقًا على الجسر مكبًّا على النهر.

أخذ يتفحص فيهم بعيون المجرمين، ثم قال:

ـ تعال يا « مويا نوفتش ».

خرج « مويا نوفتش » من الطابور، كأنه لم يخش الموت، ثم اقترب من حمدي، وأخذ برجليه ورفعها إلى فوق، ثم دفع جسده نحو النهر، وتمسك برجليه وقفز معه إلى النهر!!

أسرع أربعة حراس مسلحين نحو الجسر، وحنوا رءوسهم باحثين عنه ببنادقهم ليصيبوه بها، لكنهم لم يروا إلا جسد حمدي الذي دار في الدوامة التي تدفع كل من يغوص أو يسبح إلى أسفل النهر.

وعلى بعد ثلاثين مترًا ظهر « مويا نوفتش » على سطح الماء، إنه نجا من الدوامة!! أطلقوا عليه النار، لكنه غاص في الماء، ودفعت به الأمواج السريعة إلى الأمام.

صرخ « غويان »:

ـ اتبعوه من كلا جانبي النهر، لا تدعوه يهرب، وأنت يا رادومان اذبح!!

اشتد الحراس المسلحون على من في الطابور، وأخذ رادومان يزيد في الذبح، واثنان من الحراس يلقيان بالأجساد في النهر، والدماء تسيل على الجسر.

كان « غويان » في عجلة في إكمال المهمة، وكذلك رادومان..

ـ يا رادومان، اذبح أنت فقط، وادفعوا أنتم بهؤلاء إليه.. عليك أن تذبح إلى منتصف الليل، ولا تبال بالدماء المسفوحة، فسوف تغسل في النصف الآخر.

أصبحت عملية الذبح عند رادومان أمرًا روتينيًّا، فليس هو إلا قطع الحلق والطعن بالسكين في الصدر في لحظة واحدة.. كان كأنه يعمل في مصنع لا يتوقف عن العمل.

وكان أربعة جنود مسلحين لا يزالون يبحثون على الشاطئ عن « ميانوفيتش ».. نزلوا تحت الجسر فلم يجدوه، وظنوا أنه قد غرق، أو أصيب برصاصهم عندما ظهر على سطح الماء.. وعندما ظهر « ميانوفيتش » على سطح الماء أحس بجثة محمد فوق رأسه، فاختفى تحتها، وغطى رأسه بقميصه؛ كي يتمكن من التنفس، وبذلك نجا من الحراس،

إنه رأى كثيرًا من الجثث المذبوحة على سطح الماء، منها ستة مربوطة على شكل نجمة تسبح فوق الماء!!

* * *

(٧) [في (فبراير ١٩٤٢م) قاد سبعة من الصرب المسلحين التشتنيك أربعة وثمانين مسلمًا إلى جسر « جيليزني » في فوتشا..وفي وسط الجسر كان أحد التشتنيك باركًا على ركبتيه، ممسكًا بيده اليسرى سكينة كبيرة، وكان على جميع هؤلاء المسلمين الاستلقاء تحت السكينة، ومن عصى كان جزاؤه ضربة على عنقه بكعوب بنادقهم، فإذا سقط على الأرض أمسكوا برجليه ويديه حتى يتم الذبح، وقد كانوا يفتشون كل جثة أملًا في وجود بعض المال أو الذهب قبل إلقائها في نهر درينا.

ذبحوا وقتذاك: آفدوا بتشوتش ن وسولو عيسانووتش، وأدهم عيسانوتش، ومونو آجانوفتش، ومورات آجانوفتش، وسمايل بتشوتيش.. ولما حان الدور على « درويش بتشفيتش » وفي تلك اللحظة نظر الحارس إلى نهر درينا، ففر درويش.. أطلقوا عليه النار من بنادقهم، لكنهم لم يصيبوه، وأثناء ركضه نحو نهاية الجسر انفكت الأسلاك التي كانت تقيد يديه، مما سهل هربه، لكنه واجه مجموعة أخرى من التشتنيك الذين أطلقوا عليه النار، فلم يصيبوه برصاصة واحدة، ثم نزل عند نهر درينا واختبأ بين الأدغال.

بحث عنه اثنان من التشتنيك، وعثر أحدهم عليه فدفعه درويش عن نفسه، وقفز في نهر درينا، فأخذوا يطلقون عليه النار لكنهم لم يصيبوه.. سبح بجوار جثة شقيقه يوسف.. وبذلك نجا].

كان رادومان يذبح المسلمين على نهر درينا ومن حوله برك الدم التي بدأت تتجمد، واتخذت لونًا أسود يميل إلى الحمرة، وقد لطخت حذاءه المطاطي، وبدت في منتصف الليل كطين أسود متجمد عليه آثار حذاء رادومان.. لطخته الدماء من رأسه إلى أخمص قدميه، لكنه لم يأبه بها.. انحنى ونظر إلى النهر عبر سور الجسر، وكان جميع الصرب قد انصرفوا إلا « غويان » الذي كان قائمًا في نهاية الجسر الذي لم يصبر على قول:

ـ واللَّه إن نهر درينا سوف يتغير لونه يا رادومان!

ـ لا يوجد مشكلة يا « غويان »، لقد أنهينا مهمتنا.. أريد أن أقول لك شيئًا.

ـ قل ما عندك.

ـ سوف يسألني الناس، كيف استطعت ذبح جميع هؤلاء المسلمين.. سوف أقول لهم بصراحة: لقد كان ذبح العشرة الأوائل أمرًا صعبًا، أما بعد ذلك فقد أصبح الذبح أمرًا آليًا سهلًا، كأني لا أذبح بشرًا؛ فـ« الباليون » ليسوا بشرًا، ها أنا آتٍ، أوصلني إلى فوتشا.

فليأت رجال الإطفاء ليغسلوا الدماء، وسنذبح غدًا أيضًا.

ساق غويان سيارته إلى فوتشا.

ـ كنا قلة وكان الباليون كثيرين، كان في مقدورهم أن يهاجمونا بسهولة، ويرمونا في نهر درينا.. ولكنهم يأتون إليك لتذبحهم فقط!

ما رأيك فيهم؟

ـ لا شيء يا « غويان ».. لم يتغير شيء فيهم منذ الحرب الأخيرة، والحروب قبلها، فقد كان « جرويو » البدين هو وأبوك في التمرد الصربي الأخير، يذبحون ليلًا ونهارًا دون انزعاج، يدفعونهم كالغنم إلى منتصف الجسر، وهم يأتون ويرقدون تحت السكين.. يا لهم من قوم! لقد فوجئت عندما قفز « مويانوفتش » عبر الجسر.. بالتأكيد قتلوه، لن يستطيع الفرار.. وأصارحك، لقد تمنيت أن يهرب.

ـ لماذا؟

ـ من أجل أن يقص على المسلمين قصة الجسر؛ لكي يبقى من يذكرهم.

* * *

٨

نزل « جويان » من سيارة الإطفاء، ولم يصدق ما رآه من دماء متجمدة على سطح الجسر، كانت تبدو كلحاف غطى سطح الجسر، ثم أخرج الخرطوم لغسل الدماء المتجمدة.. لم تكن مهمته يسيرة لأن الدماء كانت تقاوم المياه متشبثة بالأرض، لكنه بضغط الماء الشديد استطاع إزالة الدماء، إلا أنه لم يستطع غسل البقع الداكنة.. حينذاك فقد وعيه، وعندما أفاق ذهب إلى المدرسة القديمة، حيث النساء من « جيجافو ».

أحضر له الحراس أربع نسوة، اللاتي حككن الجسر، لكن اللون الداكن بقي أيضًا، وبعد مغادرتهن قال جويان لنفسه:

« مهمة رادومان الجزارية، أهون من غسل الدماء ».

***

٩

كان هناك على الجسر - في الساعة العاشرة مساء - ثلاثة وعشرون مسلمًا، يقفون في طابور، وعلى الجانبين ثمانية حراس، وفي الوسط كان « غويان » واقفًا ينتظرهم، وكان الجسر مضاء بأنوار السيارات.ثم ظهر رادومان، لكنه في هذه المرة لم يكن يرتدي الزي العسكري، وإنما كان يرتدي الزي الرسمي لشركة « ماغليتش »، وقد أدخل بنطاله داخل حذاء طويل للصيد.. كان قصير القامة، كبير الرأس، ولم يكن بين الصرب من هو أسرع منه، وعندما وصل إلى وسط الجسر، تلفت يمينًا وشمالًا، ثم قال لـ« غويان » غاضبًا:

- لم يغسل « جويان » الجسر جيدًا، هناك الدماء تظهر في كل جانب.. لا أدري لماذا أوكلت إليه هذه المهمة؟!

- كفى يا رادومان، إننا نذبح كل ليلة، وليس من السهل غسل كل تلك الدماء.

- لا ينبغي إهمال تنظيف الجسر يا غويان.. لا بد من تغسيله كل ليلة كما بدأنا أول ليلة.. في الليلة الماضية قتل الباليون شقيقي، والآن حان وقت الانتقام..

قاطعه غويان قائلًا، وهو يخاطب مسلمًا يقف في الطابور:

- هيا يا سمايو!

جاء رادومان في هذه الليلة، وأراد أن ينتقم لموت شقيقه فكان أسرع في الذبح من الليالي السابقة.. انبجست الدماء من كل أنحاء الجسر، وألقيت الجثث في نهر درينا، وقبل الساعة الحادية عشرة، لم يبق على الجسر سوى رادومان وغويان تمامًا كما كان في الليلة السابقة.

غـويـان: ماذا دهاك هذه الليلة يا رادومان!

رادومان: لقد شاهدت ما بي، شقيقي يستحق مائة من البالين.. هيا بنا لا بد أن ندعو جويان.

توجها نحو مركز الإطفاء في فوتشا، لكن غويان - في هذه - كان يقود السيارة ببطء ليتيح لنفسه أكبر فرصة للتحدث مع رادومان.

غـويـان:قتل أخوك؟

رادومان: أطلق عليه شخص النار في « دوني بولي ».

غـويـان: من أطلق عليه النار؟

رادومان: واحد من داخل مسجد « مُسْلك ».

غـويـان: انظر.. هذا المسجد هو مكـان اجتمـاعهم.. لو جاءنا أمـر من الكنيـسة بمهاجمتهم لفعلنا، ولكنهم أمرونا بالهجـوم على القرى ليفر الجميـع إلى سكان المدينـة جهـة « أوستيكولنا ».. ماذا ترى؟

رادومان: لن نترك لهم الفرصة لتكوين مقاومة.

غـويـان: أعرف.. لن نترك بيتًا ليقاوموا مثلما حدث في « كونوفو » من قبل، البيت الذي قاوم ثمانية وثلاثين يومًا.. لا بد أن نقتل الـ « بالين » حتى يرحلوا من هنا، فالآن لا يوجد « بارتيزان » ليدافعوا عنهم.. ليس لهم عندنا إلا السكين ونهر درينا.

كانت الشوارع مهجورة في فوتشا، وقد سمع فوق المدينة طلقات نارية من أسلحة « أوتوماتيكية »، وقد اشتعلت عدة منازل من قرية « زوبوفيتش » بالنار، وهي تقع على الضفة اليسرى من نهر درينا أعلى الجسر الخرساني، وقد سمع شعارات صربية من محطة الإطفاء (.. جيش القائد « دراجو » في كل مكان..).

لم يتمكن غويان من الصبر حتى قال:

- إنه قد بدأ يا رادومان!

- أتمنى أن أنتقم لموت أخي يا غويان.

***

١٠

عند دخول التشتنيك بيت « يوفان » في تشلبيش، قال لهم يوفان:

- اتركوا السلاح أمام البيت.

وكلما أتى فريق منهم أدخلتهم « ستويانكا » إلى أوسع الغرف، وجلسوا على الأرض، يرتدون الزي العسكري، والقبعة الصربية التقليدية التي حصلوا عليها، وعلى غيرها من الأسلحة في كنيسة القديس « نيكولا »، إلا الضابط « نيناد دافيدوفيتش » الذي كان يرتدي الزي العسكري لجنود الصرب في الحرب العالمية الأولى، والذي لم ينطق بكلمة، كما أنه لم يخلع حذاءه العسكري، ولا درعه الذي لفت أنظار جميع الحاضرين.

كان الضابط « دافيدوفيتش » قد تخرج من الأكاديمية العسكرية في بلجراد، ولأنه ولد في تشلبيش، اختير لهذه المهمة إلى تشلبيش.

وفي النهار وصل العجوز « رادوي ».. انقسموا إلى مجموعات، يتهامسون فيما بينهم، ولو لم يبدأ « دافيدوفيتش » بالكلام لظلوا على هذه الحال وقتًا طويلًا:

ـ حسنًا، قولوا لي ما الذي أنجزناه من « ترنو فتشا » إلى « أوستيكولينا »؟ لكن لا تكثروا من التفاصيل، بل إلى أين وصلنا، حتى نقرر خطتنا التالية.

ماذا حصل في « جيجافو » يا مارينكو؟

ـ رفض الباليون تسليم أسلحتهم؛ ولذا بعد ليلة المفاوضات معهم شننَّا مباشرة غارة عليهم.. لقد عرفنا أين يقضون ليلتهم، وأي نوع من الأسلحة معهم، ثم ذهبنا إلى « كوته »، وفي الرابعة فجرًا انطلقنا نحو بيت « صفوت بوستانجيا » الذي كان فيه المسلمون الذين رفضوا تسليم الأسلحة، وبمجرد أن بدأنا بإطلاق النار على البيت، خرج صفوت وابنه فقمنا بقتلهما ثم استسلم الآخرون، فقتلنا المسلحين ثم نقلنا الباقين إلى معتقل فوتشا، ومنعنا حامدًا العجوز الذي كان ضد تسليم السلاح من الخروج من البيت الذي اشتعل بالنار، ثم أحرقنا جميع البيوت في « جيجافو ».

ـ ماذا فعلتم مع النساء والأطفال؟

نقلناهم إلى المدرسة في « برود »، ثم أخذنا أجمل النساء والفتيات الشابات والصغيرات إلى فندق « زيلانجورا » عند « ياجو » و « ميلاف »، وأخذنا بعضهن إلى عمارة « ليبابرينا » وسوف يكنَّ في خدمة أبطال الصرب.. نسيت أن أذكر شيئًا: لقد حررنا أيضًا قرية « ترنو فاتشا » أعلى منطقة برود، ولم يعد هناك وجود لعائلة « جينوفتش ».

ـ ماذا عنك يا رادومان؟

ـ أنا - شخصيًّا - لا أعرف عدد المسلمين الذين ذبحتهم.. كل من كان يصلح للذبح ذبحته! ويشهد على ذلك « غويان » الذي كان يساعدني، و « جويان » الذي كان يغسل الدماء.. أنجزنا إنجازًا كبيرًا، فذبح الباليان أسهل من ذبح الخنازير؛ لأن ذبحها مناضلة وينبغي أن يمسكها رجلان، وبعد الذبح تظل تتحرك، والتغلب عليها أمر صعب، أما الباليان فهو يرقد تحت السكينة.. كل شيء سار بشكل متسلسل.. لا أستطيع أن أفهم كيف استطاع أربعة عشر من جنودنا اقتياد سبعين مسلمًا إلى حتفهم، ولو كانوا يعقلون لهاجمونا بأيديهم، ففي وسعنا أن نطلق النار على النصف الأول، ولكن النصف الآخر سيستطيع القبض علينا، لكنهم ينتظرون دورهم في طابور الذبح كما ينتظرون وجبة غداء في مطعم « ماجليتش ».

ـ هل تعلم لِمَ هذا؟ دعوني أذكر لكم.. كلما اندلعت الحرب، نذبح المسلمين على الجسور، وننهب ونحرق بيوتهم من أجل خطيئتهم في اعتناق الإسلام، وهم يدركون ذلك؛ فمن حق الصرب قتل المسلمين الخائنين، وعليهم أن يستسلموا، ويوشك أن يأتي الوقت الذي ينتظروننا فيه على الجسر دون أن يسوقهم أحد!!

اسمحوا لي أن أخبركم شيئًا.. سيأتي جنود من الحرس الصربي. والنسور البيضاء من بلجراد لمساعدتنا.. سيعبرون حدود الجبل الأسود، وفى غضون شهر واحد سوف يفر المسلمون من هذه المناطق، والأمر متروك لنا في أن نقتل أكبر عدد منهم، وألا نسمح لهم بتكوين مقاومة، وبمجرد انسحاب المسلمين المسلحين من « دوني بولي » سوف يتم تحريرفوتشا.

في إحدى الغرف كان هناك حوار يجرى بين « يوفان » و « ستويان » و « ستويانكا ».. كان ستويان طويل القامة، عالي الجبهة، وقد بدا عليه الزي العسكري جميلًا، ومع أنه كان مكتئبًا، يمشي في الغرفة جيئة وذهابًا إلا أن أمه ستويانكا كانت معجبة به، وكانت تحدق فيه بعينيها.

أما يوفان فقد كان غاضبًا؛ لأن الصرب دمروا بستانه، وحطموا براميل البراندي، وحولوا منزله إلى « زريبة »! يجتمعون فيه لاتخاذ جميع القرارات.

وأما ستويانكا فهي كانت تشعر أنها ذات أهمية؛ فقد ودعت الصرب قبل انطلاقهم، وضافتهم بعد عودتهم صباحًا، وأعربت عن سرورها عند سماعها باحتراق« جيجافو ».

كانوا في غرفة صغيرة ينام فيها « نيجو رادوفيتش » والد يوفان، وكان قد بلي جسده، وعمي بصره، وبلغ خمسة وثمانين عامًا.

ستويان: أحرقنا المنزل الذي كان فيه « حامد » والد « راسم » في جيجافو.. هل تذكرون أن الأطباء لم يتمكنوا من علاج يوفان، وأن الذي عالجه بالأعشاب هو حامد، وابنه كان يساعدني في المدرسة، وأنتما تعرفان ذلك.

نيجو: ينبغي ألا تشفق على المسلمين!

ستويان: إنهم لم يسمحوا لي بالعودة إلى ألمانيا يا جدي، لقد عينوني في الجيش الصربي!

نيجو: مكانك بين مقاتلي الصرب.

ستويان: لو أعطيت لهم المال لأخلوا سبيلي.

نيجو: على أية حال، فسيخلون سبيلك في غضون شهر، بعد الاستيلاء على فوتشا.

ستويان: كيف عرفت ذلك؟

نيجو: لقد أخبرني بذلك الضابط « دافيدوفيتش » الذي سيحقق ما عجزنا نحن عن تحقيقه.. لماذا أنت ساكت يا يوفان؟!

يوفان: أنا أ.. أ..أ..أ.. لا أدري، هكذا.

نيجو: قالت لي ستويانكا كل شيء، وأنا أعلم أنك اشتريت بندقية، وأن جميع القرارات تدبر بهذا البيت، وأنت قلق مما يحدث في بستانك.. لا تكن جبانًا؛ فجميع الصرب يعلمون أنني كنت أذبح المسلمين مع « غويو » العجوز على جسر « جيليزني » في الحرب الأخيرة؛ ولذلك فإنهم جميعًا يقبلون يدي، والآن حان دورك أنت، وستويان من بعدك، و « دوشان وسافو » أولاد ستويان من بعدكما.. إن فشلنا في هذه الحرب فالدور على أبناء ستويان لتحرير الأرض.. لقد بدأت هذه الحرب منذ معركة « كوسوفو » ولن تنتهي إلا بقيام دولة صربية وطرد المسلمين!! هذا كل ما في الأمر؛ فواجب الصرب هو تحرير أرضهم، وعليك يا ستويان البقاء هنا حتى يتم الاستيلاء على فوتشا، ثم يمكنك بعدها الذهاب إلى ألمانيا.

ستويان: لقد بلغت شركتي ذروتها، وأنا هنا لتحرير المدينة من غير الصرب.. معظم السكان في ألمانيا بعد سكانها الأصليين من الأتراك المسلمين.

نيجو: يا ستويان، لقد توقف تاريخ الصرب عند معركة « كوسوفو »، ولا يزال هكذا، وبدون مملكة « دوشان » لا وجود للصرب.

ستويان: أنا ما أطلقت رصاصة واحدة في « جيجافو » ولكني رأيت الجميع كيف يقتلون النساء والأطفال، وهذه جريمة! لقد أحرقوا والد راسم حيًّا في منزله.

نيجو: استمع إلي يا ستويان، أشرح لك بعض الأمور.. الصرب لا يرتكبون الجرائم، إنهم يحررون ما كان تابعًا لهم، وأخذ منهم منذ وقت بعيد، وهذا هو التمرد الصربي الرابع ضد الأتراك، وأمام المسلمين أحد خيارين: إما مغادرة فوتشا، أو أن يصَلُّوا معنا في الكنيسة، عندها لن تكون هناك جرائم، ولكن على ما هو عليه الآن فلن نتمكن من إقامة مملكة دوشان، والصرب يفعلون كل شيء بمباركة الكنيسة.. لا تقل جرائم!! فلو سمعك سكان تشلبيش لأخذوك إلى كنيسة القديس « نيكولا ».. ولا تقل إنك لم تطلق رصاصة واحدة في جيجافو؛ فعندما تقتل أول مسلم سوف تحيا كوسوفو في روحك، ولك أسوة في رادومان، لقد دخل تاريخ الصرب!!

وبعد خروجهما وجه ستويان الكلام لأبيه يوفان:

ـ ماذا سنفعل يا يوفان.

ـ هل سمعت ما قاله نيجو؟!

***

(١١) في تلك الليلة اهتزت « بازاريتش » بالانفجارات، وكانت النيران مشتعلة في سوق « بربيكا ».. لقد أحرق الصرب مسجد « تسارافا »، وقبل إشعال النار فيه وضعوا كمية من المتفجرات تكفي لنسف الجسر الخرساني على نهر درينا بأكمله، فكان كلما انتشرت النيران في المسجد دوت الانفجارات.

وفي اليوم التالي اجتمع الصرب في كنيسة القديس نيكولا، وحضر جنود الصرب، والضباط، والسياسيون، والمحاربون القدماء في الحرب العالمية الأولى، والمدنيون الذين لبسوا الزي العسكري مع القبعات الصربية التقليدية ذات شارات التشتنيك..كانوا يقفون جماعات ويتحدثون.. تحلق الجنود في دائرة وأخذوا يتعانقون ثلاثًا.. كان الجو في الكنيسة حماسيًّا حتى ظهر « أوستويا » والقديس « سيكولا » اللذان وقفا في المقدمة في مواجهة الجميع في قاعة الكنيسة، وقد صمت الجميع لسماع أوستويا.

أوستويا: يا إخواني الصرب، لقد عشنا لنرى هذا اليوم العظيم، في الليلة الماضية أحرق مسجد تسارافا بأكمله.. أتعلمون أن مكانه في العصور الوسطى كان يوجد كنيسة، حتى جاء الأتراك فحولوها إلى مسجد بكل سهولة، وأضافوا لها المآذن، وظنوا أنه سيبقى مسجدًا للأبد.. هدم أبطال الصرب هذا المسجد، وسوف نبني مكانه كنيسة، وأحرقنا سوق « بربيكا » بأكمله حيث كان فيه متاجر المسلمين، وتم تفجير عدد من المساجد في فوتشا.

ـ لماذا لم نفجر مسجد آلآجا؟

ـ سوف نفجره أيضًا، وستكون فوتشي مدينة صربية لا مسجد فيها، ولن نسمح ببقاء أي شيء تركي في فوتشا، ومن اليوم فصاعدًا سوف نسمي فوتشي « صربينيا »!

ففي العصور الوسطى كانت « رادوفينا » وخلال الحكم العثماني « خوتشا » واعتبارًا من هذا اليوم هي « صربينيا ».

ساد الصمت ثم رفعوا أصواتهم:

صربينيا.. صربينيا.. صربينيا!!

تابع أوستويا كلامه:

أيها الإخوان، أكبر القرى التركية في هذه المناطق هي « ييلتش »، وقد كنا فيها قبل عدة أيام، وضيف سكانها « لوبو نكشج » و « فويكا تسيتسوفيتش » وهي عضو حركة

« رافنو جورسكي » التشتنيكية، وقدموا لهم شاة مشوية، وفي النهاية ودعاهما وداعًا حميمًا جدًّا!

لم يتوقعوا أنهم معرضون للهجوم بعد وقت قليل، وقد لاحظ « لوبو » أنهم لا يمتلكون أسلحة للدفاع عن أنفسهم.. كل شيء كان جاهزًا للهجوم، وسوف يكون في أول مايو.

سوف ينضم إلينا جنود الوطن اليوغسلافي من « كالنوفيك ».. كل شيء قد تم تدبيره مع العقيد « بافلوفيتش » من كالنيك، و « ميلينكو فوكوفيتش »، ورئيس الشرطة في « ميليفينيا »، وقد أجمعوا على حرق قرية « ييلتش » وقتل جميع سكانها!

تقع مدفعياتنا ورشاشاتنا في قرية « يودانا » بالقرب من الكنيسة في قرية « فوجتسا »، لن نترك أحدًا منهم، وليس أمام الباليين إلا ثلاثة اختيارات:

إما أن يسيروا نحو « حوساد » أعلى جبال « ييليتش »، أو الاختباء في أكشاك الرعاة في وادي « بسترتسا »، أو في البيوت القريبة من نهر « جروبتسا »..وهناك سنقبض عليهم جميعًا!

* * *

١٢ قذف الصرب « ييلتش » بقذائف الهاون لمدة يومين، من القرى الصربية « بودينا » و « فوجستا ».. ففي الوقت الذي كان سكان ييلتش يستضيفون « لوبو » و « فويكا »، يلقون إليهم بالمودة، كان الصرب يبحثون عن المواقع المناسبة لوضع المدافع والرشاشات، وقد كانت هاتان القريتان أنسب مكان ترى منه ييلتش بوضوح.

وفي الوقت الذي كان « لوبو » يعانق فيه سكان ييلتش، كان العقيد « بافلوفتش » يراقبه من منظاره:

- بالتأكيد كانوا يقولون له: نحن لا نرغب في الحرب، ظانين أن قريتهم بعيدة عن فوتشا، ولن تمتد الحرب إليهم.. أعرف كل قرية مسلمة، إنهم لا يهتمون بقرية مسلمة مجاورة وهي تحترق، يفكرون فقط كيف لا تصل النيران إلى بيوتهم، كل قرية تسعى لحماية نفسها، وكذلك فوتشا.. كل يريد النجاة لنفسه وأهله، ونحن ننزعها واحدة تلو الأخرى، ولو اتحد جميعهم ما ضرهم أحد.

- قولك صحيح أيها العقيد، ففي الوقت الذي نأخذ فيه مواقعنا لوضع المدفعيات، فإن سكان « ييلتش » يعانقون « لوبو »، ويضيفونه بشاة مشوية، مع علمهم أننا أحرقنا جميع القرى تقريبًا حول فوتشا، ومع ذلك لا يزالون يعتقدون أننا سنتركهم سالمين.

تم تخطيط عملية ييلتش على يد العقيد ولوبو في معسكر كالنيك، وقد أمضوا عدة أيام في تحديد أبعاد القرية، ثم أتوا بالمدفعيات ومدافع « هاوترز » إلى مواقع « بودينا » و « فوجتسا » وحشدوا أفضل رجال القناصة، وقبل قذف القرية وصل إلى « فوجتسا » كل من أوستويا ولوبو، فإن عملية كهذه لا يمكن أن تبدأ بدونهما.

أعطى العقيد المنظار لـ« لوبو ».

العـقيد: لقد حصلنا على هذا المنظار من مقر القوات المسلحة في بلجراد، يمكنك أن ترى من خلاله كل شيء بوضوح، كأنه أمامك.. كيف تسير الأمور هناك يا لوبو.

لـوبـو: هؤلاء سكان كالشياه، لديهم بعض البنادق القديمة، ولكن أحدًا منهم لن يطلق رصاصة واحدة. لقد كان « بايروفتش » - وهو مسلم - صادقًا حين أتى إلينا بقائمة المسلمين المسلحين في القرية، وهم يعتقدون أننا سنرحمهم؛ لأنهم لا يريدون القتال، وهذا يسهل مهمتنا.

قعد العقيد وأوستويا على الطاولة في مكان مستوٍ كان يرى منه كل شيء في ييلتش بوضوح:

- اضرب!!

انهالت القذائف على ييلتش، وسمع دوي الانفجارات في أنحاء جبل « زيلانجورا »، وكأن الأرض قد انقلبت على وجهها، وعلى إثر نزول القذائف على الزرائب والبيوت اشتعلت فيها النيران.

اضطرب سكان ييلتش، ولم يعرفوا كيف يتصرفون؟ إنهم كانوا على علم بأن الصرب ينقلون المدفعيات إلى « فوجتسا »، لكن لم يخطر على بالهم أنهم سيقذفونهم بها.

كانوا يفرون نحو « حوساد » ثم يعودون إلى بيوتهم، ولما رأوا أن البيوت قد دمرت فروا ثانية نحو جبل « حوساد » واختبؤوا داخل أخصاص الرعاة.

كثير منهم اختار البقاء داخل المنازل ظنًّا منه أن هذا لن يدوم طويلًا، واختبأ كبار السن والضعفاء في « بدرومات » المنازل، بينما كانت تشتعل النيران فوقهم.

لم يبق بيت واحد سليمًا، وكل هدف أراد الصرب إصابته كان أمرًا ميسورًا من مواقع فوجتسا؛ وذلك لدقة مدفعيات كالينكوف!!

تناخب العقيد ولوبو كئوس الخمر.

لوبو: أحسنت أيها العقيد.

العقيد: من أجل صربيا الكبرى.

سرعان ما اشتعلت زرائب المواشي المليئة بالأعلاف كالجحيم، وامتد الحريق إلى أسوار المنازل، وهرب النساء والأطفال نحو غابات « زيلانجورا »، بينما حاول الرجال التسلل إلى القرية مرة أخرى، كانوا يشاهدون بيوتهم وهي قطعة من النار.

كل شيء كان يسير وفقًا لما خططه الصرب مسبقًا.

لجأت كثير من الأسر إلى « اسطبل » كبير لـ « مصطفى طوزلاك » الذي كان يقع في نهاية القرية، وهو المكان الوحيد الذي لم تمتد إليه النيران، بينما فر البعض الآخر من سكان ييلتش في جماعات نحو بيوت قرب نهر « جروبيسا » التي لم تكن معرضة للقصف من قبل الصرب.

دبت الفوضى في أرجاء القرية، فمنهم من يفرون من القرية لإنقاذ أنفسهم، ثم بعد

فترة قصيرة يعودون إليها ظانين أن التدمير قد انتهى، لكن الصرب لم يوقفوا القذف، فقد دمروا ييلتش عن آخرها بأمر من العقيد « باولوفيتش ».

لم تحظ قرية من التدمير بمثل ما حظيت به تلك القرية.. توقف القصف عند الظهيرة، وأصدر « باولوفيتش » أوامره عبر جهاز اللاسلكي:

– قد فعلنا بالمدفعيات ما ينبغي فعله! اقتلوا كل واحد منهم!

شن التشتنيك غارة على ييلتش بقيادة « بيروألز » و « ريستو ترفكوفتش » و « رايكو » و « لوكة » و« بردراج » و « درافان ».. كان الجميع يرتدون الزي العسكري مع القبعات الصربية التقليدية ذات شارات التشتنيك.

اقتحموا القرية من ثلاث جهات؛ حتى لا يتمكن أحد من الهرب، فجميع هؤلاء الذين رجعوا إلى منازلهم لقوا حتفهم في عقر دورهم، أو ذبحوا أمام منازلهم، وكان الصرب يقتلون حتى النساء والأطفال، كما تعرضت الفتيات للاغتصاب قبل قتلهن.

حاصر التشتنيك اسطبل « مصطفى طوزلاك »، وعندما فتحوه رأوا بداخله كثيرًا من النساء والأطفال، ثم أغلقوه مرة أخرى، وتعالت أصوات البكاء والصياح.. قاموا بسكب البنزين عليه، ثم أشعلوا فيه النار، كما رشقوه بالقنابل اليدوية عبر النوافذ، وأطلقوا الرصاص على الباب من خلال الرشاشات الآلية؛ فلم يستطع أحد ممن في الداخل الخروج.

قال أوستويا للعقيد: قرية ييلتش وسكانها في اللَّهيب!

أجابه العقيد: لم يعد وجود لأقدم قرية مسلمة.

اتجه القائد « بيروألز »، والمعلم « ريستو ترفكوفيتش » مع فريقهم نحو نهر « كروبسا »، إنهم كانوا على يقين من أن كثيرًا من سكان ييلتش قد اختبئوا داخل البيوت عنده، أو اتجهوا نحو « حوساد » لأنه لا مكان آخر يهرب إليه.

تلك البيوت كانت لأغنياء فوتشا، يستريحون فيها على شواطئ نهر « كروبسا ».

وصل الصرب إلى كوخ « حامدو » على نهر كروبسا، ولما فتحوا بابه وجدوا هناك كثيرًا من الأسر مختبئة فيه، بينما اختبأ الآخرون في بيت « زولفو سرنيا ».

أخرج بيرو وريستو الأسر من الكوخ، وأمروهم بالوقوف خارجه، قال أكبرهم – وهو زولفو – لبيرو:

ـ اسمع يا بيرو، اقتل العجائز منا، واترك أبناءنا: « ألفدين » و « أكرم » و « عابد » و « نجاد » واسمحوا لهم بالرحيل.

- اخرس يا باليا!

ووفقا لما خُطط له، وأمروا به، هاجم التشتنيك العائلة مستخدمين السكاكين؛ فبضربة واحدة أسقط « بيرو » « زولفو » على الأرض ثم جره من شعره وقطع حنجرته. انفجرت الدماء على بيرو وزولفو، وأعرض الآخرون بأعينهم لئلا يشاهدوا ذبحه.

أخذ شخص يبكي في هدوء كان نشيجًا هادئًا كنشيج شخص فَقَدَ كلَّ شيء يقف مذهولًا يخشى أن يستدير وينظر.

أخذ « شوشا » و « لوكا » من التشتنيك يذبحون « عاصما »، وأما ولداه « ألفدين » و « نجاد » فقد ذبحا على يد معلميهما: « درافو كرونتش » و « ريستوتر فكوفتش »، وتدفقت دماؤهم تخالط نهر « كروبسا ».

لقي جميع أفراد الأسرة مصرعهم في دقائق معدودة.

وعند كوخ حامدو ذبحوا: « يوسف جينتش » وزوجته، و « مصطفى خوجيتش »، و « أدهم طوزلاك »، وزوجته « فاطمة »، و « هوسو »، و « عزير » و « أنور » وزوجته الصربية « ييلينا » !!

قال بيرو لـ « ييلينا »: تعالَيْ معنا.

ردت عليه: أنا سأبقى مع أنور وعائلته.

بيرو: أنت صربية يا ييلينا، والسكين ليست إلا للمسلمين!

ييلينا: إذن اذبحوني معهم.

جاء التشتنيك بإخوة « بارلوف » مكتوفي الأيدي، فاقترب منهم معلمهم « ريستو ».. نظرا إليه ولم يعرفا ماذا يقولان له، كان ريستو ساكتًا في البداية ثم تحدث:

ـ خذهما إلى النهر واربطهما في شجرة هناك.

أخذ أربعة من التشتنيك الأخوين، ثم رجعوا وقالوا:

ـ هناك.. هناك يا ريستو إنهما في انتظارك!

وصل ريستو إلى تلميذيه، وهو يعلم أنهما لن يستطيعا الإفلات من العقاب.. كان

« ألفدين » - وهو أصغرهما - أنجب طالب في صفِّه، وكان ريستو دائمًا ما يفخر به، ويباهي به زملاءه من المدرسين.

ألفدين: لا تقتلنا يا أستاذنا!

ريستو: لا تخف يا ألفدين.. سمعت أنكما شاركتما في نقل الذخيرة من فوتشا إلى القرية.

ألفدين: نعم، كنا نطيع كبارنا، وكل ما قدم لنا في فوتشا حملناه إلى قريتنا.

ريستو: نحن نعلم كل شيء، ففي كل مرة تذهبون لجلب الذخيرة كنا على علم بذلك، وعرفنا من أين حصلتم عليها.

ألفدين: هل تخلي سبيلنا؟

ريستو: لماذا أخلي سبيلكما؟

ألفدين: لم نخطئ في شيء.

ريستو: بل أخطأتم.

أنزل ريستو رشاشه من على كتفه، واستل سكينته، وبكل عزمه وقوته أخذ يمزق أجسادهما بسكينته، وهما يصرخان صراخًا ملأ كل أرجاء « زيلانجورا ».. في حين استمر ريستو يمارس تقطيع جسدي تلميذيه.

على إثر صرخة الأخوين وصل « بيرو » و « دراجن » و « ميلنكو ».. وقفوا على بعد عشرة أمتار من موقع المذبحة، وراقبوا كل شيء.

كانت أرواحهما قد صعدت، وأجسادهما في الأغلال على الشجرة قد ضرجت بالدماء، وكان لا يزال أستاذهما « ريستو » يمارس الطعن والتقطيع لأبدانهما.

لم يشهد « بيرو » و « ميلينكو » مثل هذه المذبحة، فقد كانت أشد ضراوة من مذبحة جسر « جيليزني » في الليلة التي قتل فيها المسلمون شقيق رادومان.

ذلك هو المعلم « ريستو ».

وجد « بيرو » و « جيفكو » في أحد البيوت التي احترقت « كامل »، وهو إمام المسجد، في الثمانينيات من عمره، كان يرقد مريضًا على فراشه، فقطع « جيفكو » رقبته وهو على السرير.

وفي الغرفة المجاورة ذبح ريستو « زينة » التي بلغت الثمانينيات، و « عائشة » وهي امرأة عجوز عمياء.

وبعد هذه المذبحة، كانت الشاحنات تصل إلى بيلتش من « ميليفينا » و « فوتشا » و « كالينكوف »، وفي مدة ثلاثة أيام نهب الصرب كل ما وجدوه في بيوت المسلمين، حتى إنهم حملوا أجهزة التلفاز، مارين على الجثث التي ملأت المكان.

وبمجرد بداية عمليات النهب ظهر « لوبو نكشج » و « فويكا سيسوفتش » فأخذ « لوبو » يبحث عن الأنوال[1] التي كانت فتيات بيلتش ينسجن عليها أجمل أنواع السجاد، وأخذت « فويكا » تبحث عن الذهب في الصناديق المزخرفة القديمة، كل واحد منهما كان يعرف عماذا يبحث، حتى إن بعضهم ذهب إلى الغابات بحثًا عن الأغنام والأبقار.

مضت عشرة أيام على مذبحة بيلتش، بعدها أصدر العقيد « باولوفيتش » أمرًا لوحدات الجيش الوطني اليوغسلافي للبحث عن الأحياء من سكان بيلتش في الغابات، وأن يطلبوا منهم العودة إلى بيوتهم، ويضمن الجيش الوطني حمايتهم.

أخذت قوات الجيش تفتش « غابات زيلانجورا » يرافقهم القواد، فوجدوا فيها سكان بيلتش الذين بلغ بهم الإعياء مداه، فهم في حاجة ماسة إلى النوم والراحة.

عندما رأى السكان الجيش الوطني تجمعوا حوله يسألونه عن قريتهم، وفي مكان تجمعوا حول العقيد « سترتميروفيتش » الذي كان يتكلم بصوت عالٍ أسمع حتى الذين لم يتجمعوا حوله خوفًا من خيانته:

- إننا لن نتمكن من مساعدتكم؛ لأن عدد التشتنيك فاق المائتين، ولكن وصلت إلينا الآن تعزيزات، وليس في وسعهم مهاجمة القرية مرة أخرى.. ارجعوا إلى منازلكم، وسوف نساعدكم في إعادة بنائها، وإن حاول التشتنيك مهاجمتكم مرة أخرى فسوف نلقنهم درسًا لن ينسوه، فالآن سيطر جيشنا على بيلتش!!

سأل « عمر زينل »: من أين حصل التشتنيك على المدفعيات الثقيلة، ومدافع الهاوترز؟ ما أعطاهم إياها إلا أنتم، وقد ضمن لنا « لوبو » عدم هجومهم علينا، وكنا نثق به، ثم تعرضنا للهجوم.

العقيد: لم نعطهم مدافع الهاوترز، والمدفعيات الثقيلة، وإنما أتوا بها من الجبل

---

(١) جمع « نول » وهو ما يصنع به الثوب ونحوه، المعجم الوجيز مادة (ن. و. ل).

الأسود، « ولوبو » لم يكن يعلم أنهم لن يستمعوا إليه إلا بعدما حدث ما حدث.

صدَّق سكان ييلتش قول العقيد؛ فعادوا إلى منازلهم المدمرة والمنهوبة، وعندما وصلوا أمرهم الجيش الوطني بدفن موتاهم، فقبروهم في نفس القرية، وبالقرب من النهرين: « كروبسا » و « بستريسا »، فأحصوا (١٢٨) قتيلًا.

وعندما أتى المساء ناموا في بيوتهم المهدمة، ولم يوقظهم إلا طلقات الرصاص من الرشاشات الآلية، ولما خرجوا من بيوتهم وجدوا أنفسهم تحت حصار التشتنيك بقيادة زعيمهم « بيرو ألز »!

لم يبدُ في الأفق جندي واحد من الجيش الوطني اليوغسلافي، وقد تم إطلاق النار على الذين خرجوا من بيوتهم، ثم دخلوها فقتلوا واغتصبوا، ثم نقلوا ثماني عشرة امرأة وفتاة إلى « ميليفينا » في بيت « كرامان » حيث كان فيه العديد من الفتيات والنساء من « جيجافو » و « زوبو فتشا » و « فوتشا »، يخرجن عند حاجة جنود الصرب إليهن، وأحيانًا تأخذهن « فويكا » إلى فوتشا.

كان أكثرهم مكثًا في بيت « كرامان » النقيب « بيرو ألز » و« يانكويانتش » الملقب بـ« توتا »، وفي بعض الأحيان كان يأتي أفراد من أسرة « ألز » الذين استولوا على ييلتش وهم « جيلكو » و« بافلو » و« لوكا » و« نيناد ».

جاء البيت أيضًا: « رايكو » و« رادميلو » و« زوران » و« نيناد » و« جويكو » و« ازدرافكو » و« ريستو » و« دراجن ».

- استطعت أن تقنع الـ« باليين » مرة أخرى أيها العقيد!

- ليس لديهم خيار، ولا مجال لديهم للمناورة؛ ولذلك فعليهم الوثوق بنا.

* * *

١٣ عند الصباح تسلل « ستويان رادوفتش » إلى منزله، فدخل الحمام، وخلع الزي العسكري، ودخل حوض المياه. كانت المياه تتدفق؛ لتغسل الأوساخ ودماء المسلمين التي سفكوها.

لم يخرج من الحمام إلا بعد أن طرق الباب والداه: يوفان، وستويانكا.. ارتدى ملابسه، حيث كان والداه ينتظرانه في غرفة منيرة بالشموع.. لم يناما طوال الليل، ينتظران عودته، وحين دخل ستويان الغرفة عانقه والداه.

قعد ستويان على كرسي خشبي دون أن ينبس ببنت شفة، وكان يوفان صامتًا كذلك، في حين بدأت ستويانكا بالكلام:

ستويانكا: هل حررتم بيلتش؟

ستويان: نعم!

ستويانكا: لم تعد للمسلمين.

ستويان: نعم.

ستويانكا: مَنِ الآن في بيلتش؟

ستويان: لا أحد.

ستويانكا: كيف ذلك.

ستويان: لقد ذبحنا سكان بيلتش، وأحرقنا بيوتهم، ونهبناها.

ستويانكا: قتلتم جميع سكان بيلتش!!

ستويان: ذبحنا أكثر مما قتلنا منهم.

ستويانكا: هل الباليون مشردون في « زيلانجورا »؟

ستويان: نعم، الذين لم يثقوا بالصرب مشردون هناك.

ستويانكا: لا أفهم!

ستويان: فر كثير من النساء والأطفال في البداية إلى « زيلانجورا » فقتلنا من استطعنا اللحاق به، أو قطعنا رءوسهم، ثم ذهب الجيش الوطني اليوغسلافي إلى الجبل ليقنع الباقين بالعودة إلى ديارهم المحرقة؛ لأننا كنا في حاجة إليهم لدفن موتاهم، فعادوا لاطمئنانهم إلى حماية الجيش الوطني اليوغسلافي.

ستويانكا: عادوا مرة أخرى إلى بيلتش!!

ستـويـان: وثقوا بنا مرة أخرى، وبعد أن دفنوا موتاهم قتلناهم جميعًا.. لو أخبرت أحدًا عن ذلك في ألمانيا، لما صدقني أحد!

ستويانكا: وكيف كان دور عشيرة « ألز »؟

ستـويـان: لم يتركوا أحدًا إلا ذبحوه، والمعلمون من « ميليفينا » و «بيلتش » ذبحوا طلابهم، فقدْ فَقَدَ ريستو صوابه عندما أخذ يذبح.

ستويانكا: كان والده مثله في الحرب الأخيرة، بمجرد أن بدأ بسفك الدماء بسكينته لم يتوقف، وهذا هو حالهم عندما يتعلق الأمر بالمسلمين، فقد كان هناك قتال بين الصرب في عيد القديس إيليا، وأريقت الدماء، لكن أفراد أسرة « تريفكوفيتش » لم يسلوا السكاكين، ولكن الصراع إذا تعلق بالمسلمين لم تغمد أيديهم.. قاطعها يوفان:

- هذا هو الأمر مع أسرة « تريفكو فيتش »، وجدك « نيجو » خير من يعرف ذلك، لقد أوصانا أسلافنا بإحياء مملكة « دوشان »، وعليك أن تسلك هذ المسار يا ستويان.

أحيانًا أسأل نفسي: لماذا يزعجنا جيراننا إلى هذا الحد؟ ولكن ستويانكا كانت على حق! لقد مضت القرون، وكل شيء يعيد نفسه، لماذا نحن نخالف الآخرين ولا نقاتل؟! هذا هو تاريخنا وتاريخ المسلمين، اليوم علينا أن نستمع إلى « رادوفان كاراديتش »، وغدًا تستمع الأجيال الجديدة إلى شخص جديد، وليس على المسلمين إلا الوثوق بنا، وكلما وثقوا بنا يقل عددهم، بتقتيلهم، وهكذا تسير الأمور.. أنا أيضًا مندهش من هذا، ولكن ستويانكا على حق، نحن مع الصرب كيفما كانوا، عشيرة « رادوفيتش » أبطال بين سكان تشلبيش، وما علينا إلا أن نكون معهم.

ستـويـان: ما حدث في بيلتش يعد جريمة يا يوفان، لقد ذبحنا النساء والأطفال، وحتى كبار السن على فرشهم، وأحرقنا كل مكان لجأ إليه النساء والأطفال.

يــوفــان: الصرب لا يرتكبون الجرائم، هم يقومون بتحرير أرضهم، تذكر هذا دائما يا ستويان، هذه أرض صربية لا يمكن للمسلمين العيش فيها، وقد كنت في بعض الأحيان أعتقد هذا مثلك، فكنت أذهب إلى نيجو.. اذهب ونل بعض الراحة وغدًا اذهب إلى نيجو!!

ستـويـان: كيف أنام يا يوفان؟ بيلتش تمنعني من الراحة، هل يمكن لمن فعل ذلك أن ينام؟ فذلك ريستو قطع بسكينه لحوم طلابه إربًا إربًا، وذبح بيرو أسر سرنيا بأكملها، الجد والابن، والحفيد، وقد احمرت مياه نهري « بستريسا » و « كروبيسا » من الدماء.

١٤

[بعد منتصف الليل أحرق صرب فوتشا بيت « صفوت » و « ألماسا » من عائلة « جدريا » المسنيين، والتي كانت تقع وسط المدينة، وعندما اشتعلت النيران في المنزل خرجا منه، فأطلقوا عليهما النار، فسقط صفوت على الفور، وأصيبت ألماسا بجروح، فأمسكت بـ « درابزين » السلم، وهي تنظر إلى من أطلق النار، حيث كانت النيران تضيء كل شيء حول البيت، واستطاعت امرأة مسنة كهذه أن ترى مشعلي النار.

عرفت « ميروسلاف » وهي لا تكاد تقدر على الكلام:

– تعال يا ميروسلاف، إني أراك!! ثم سقطت من على الدرج على الحصباء أمام البيت].

كان قد جاء والدا ميرو سلاف من الجبل الأسود إلى فوتشا، حيث فرصة العمل في شركة « ماغليتش »، وعندما علما أن « صفوت » و « ألماسا » لم يرزقا بأولاد، وأنهما يعيشان في بيت فخم كبير، طلبا منهما استئجار طابق من البيت.

أعجبت « ميريانا » و « أوستويا » برقة صفوت وألماسا وسكينتهما، ولما أرادا دفع الإيجار له قال لهما:

ـ انتظرا حتى تعتادا على العيش هنا.

وقد أسكنهم في الطابق العلوي بأكمله، فوق طابقهم الأرضي.. كانت غرف البيت واسعة وكان من الممتع الجلوس في الحديقة المحيطة بالبيت، التي فرشت بالفسيفساء، وقد أحاط بها سور.. وفي ركن من الفناء نحو البوابة الخشبية الكبيرة بنيت نافورة المياه الرخامية، وقد أحيطت بقاعدة خشبية على الجانبين، وفي وسط الحديقة كانت هناك منضدة خشبية، أحيطت من كلا جانبيها بمقاعد خشبية، وكانت تظللها شجرة التوت، التي تغطي بفروعها المنزل والفناء.

البيت البوسنوي التقليدي ذو الفناء، مع نظافته وسلامته، يورث انطباعًا لا يمحى من ذاكرة من يراه.

كانت العائلتان تلتقيان، بعد العصر في حديقة البيت، فقد كان على « ميريانا » و « أوستويا » الاستيقاظ مبكرًا في الساعة السادسة صباحًا للّحاق بالحافلة التي تنقلهما إلى مصنع « ماغليتش » في « برود » قرب فوتشا، ثم الرجوع بعد الظهر من المصنع.

وفي فصل الصيف كانا يحتسيان القهوة في حديقة البيت مع « صفوت » و« ألماسا »، أما في فصل الشتاء – وقت نزول – الثلج فقد كان كل من « صفوت » و« أوستويا » ينظفان الثلج من البوابة الكبيرة.

هكذا كانت تسير الحياة في هذا البيت البوسنوي، لا سريعة، ولا بطيئة.

وبعد ذلك بعامين رزق « أوستويا » و « ميريانا » بابن.. وفي الوقت الذي كانت تضع ميريانا وليدها كان الجميع – أوستويا وصفوت وألماسا قلقين عليها.. ولما سمعوا صرخة المولود ذرفت عيون الجميع فرحًا به. وقد سمياه « ميروسلاف ».

ومنذ ذلك الوقت ازداد نشاط البيت، وكانت الأنظار كلها متجهة إليه، وكثيرًا ما كان يلوم صفوت ألماسا على عدم حمل « ميروسلاف »، وكان كلما أحس بتعب ميريانا في هدهدة وليدها ليلًا، طلب منها أن تساعدها في هدهدته لتأخذ ميريانا قسطًا من الراحة.

لم يصدق أوستويا أن هناك أناسًا في أخلاق صفوت وألماسا.

وذات يوم في براجن – وهي منطقة بين برود وفوتشا – انزلقت حافلة « ماغليتش » عن طريقها، وسقطت في نهر درينا، وكان على متنها أكثر من ثمانين عاملًا.

حاول العمال إنقاذ أنفسهم عند غرق الحافلة، فصرخوا وحطموا النوافذ، وتقافزوا في محاولة للبحث عن النجاة.. لم يستغرق ذلك إلا بضع دقائق، وقد لقي ستة عمال مصرعهم، وأصيب كثير منهم بجروح، وبعد نقل « ميريانا و أوستويا » إلى المستشفى ماتا هناك.

بلغ « ميروسلاف » عامين عند وفاة والديه.. وفي قاعة المحكمة وقَّع صفوت وألماسا إقرارًا على الاعتناء بميروسلاف، وبذلك تغيرت حياتهما وأصبحت أكثر نشاطًا، وقد تمحورت كل اهتماماتهما بـ «ميروسلاف ».

لم تتركه ألماسا لحظة، وأتى له صفوت بكل ما يريد، فقد قدما له أفضل رعاية على كبر سنهما، حتى إنهما لم يجدا وقتًا للحديث على شرب القهوة كما كانا يفعلان من قبل.

كان كلما اقترب « ميروسلاف » من الدرج قفزت نحوه ألماسا خوفًا عليه من السقوط، ومع قدوم الربيع صنع صفوت أرجوحة له على شجرة التوت، ولما دخل ميروسلاف الصف الأول من المدرسة سجل باسم ميروسلاف جودريا.

كانا يتابعان دروسه، وكان كلما قدم من المدرسة يطرق حلقة البوابة الكبيرة، فإذا دخل الفناء نادى، ثم يضع حقيبته المدرسية على المقعد الخشبي، ويخرج دفتر درجاته ليُري ألماسا ما حصل عليه من درجات عالية.

ولما أنهى الصف الخامس اشترى له صفوت « أوكرديون ».. أصبح ميروسلاف محبوبًا عند أصدقائه ومدرسيه على حد سواء، وكان متميزًا في دراسته، كما كان يغني في فريق المدرسة الموسيقي، وكان يحمل الأوكرديون في رحلاته المدرسية، وكانوا لا يستغنون عنه فيها.

في كثير من الأحيان كان يتجمع أصدقاؤه في باحة منزله.. معهم قيثاراتهم، ومع ميروسلاف الأوكرديون، ويأخذون يغنُّون إلى وقت متأخر من الليل حتى تملأ أصواتهم شوارع « بازاريتش »، وكانت ألماسا تأتي إليهم بالعصائر.

لقد ملأ صوت ميروسلاف قلب صفوت بالحماسة، فلم يغن أحد الأغاني الوطنية البوسنوية كميروسلاف، وذلك بشهادة مدرس الموسيقى.. كان صوته غاية في الجمال، وقد أثرت أغاني الحب على الجميع.. لم يكن في حياة ميروسلاف إلا ألماسا وصفوت، والمدرسة، وأصدقاؤه، والأوكرديون.. كل شيء كان له ترتيب زماني ومكاني:

الدروس.. اللعب على الأوكرديون والغناء.. التنزه مع أصدقائه، كان له كثير من الأصدقاء، من الفتيات والفتيان.. كل شيء كان يدور في فناء منزله، وفي الوقت الذي كان يجتمع فيه ميروسلاف، وأصدقاؤه في حديقة البيت، كان يترك صفوت وألماسا لهما الحديقة، ويخلوان بأنفسهما في هدوء وعزلة.

أصبح من شأنه أن يخرج صباحًا إلى المدرسة، ولا يعود إلا مساء، ويمضي صفوت وألماسا أكثر أوقاتهما على الفراش، ولم يروه إلا نادرًا. وفي بعض الأحيان كانا ينظران إليه من زاوية النافذة.. كيف يدخل مع أصدقائه إلى باحة البيت، إنه صار شابًّا يافعًا، طويل القامة، كث الشعر، أسوده، يشبه والده تمامًا، كان جادًّا مثله، يزن كل كلمة قبل نطقها.

مرت الأيام ولم يرياه، وقد دنت مرحلة تخرجه من المدرسة الثانوية.. كانا يعرفان أنه مع أصدقائه، وفي النصف الثاني بعد انتهاء العطلة الشتوية لم يعد إلى المنزل إلا بعد منتصف الليل، ولم يدخل أصدقاؤه باحة البيت من يومها.

أثار ذلك هموم ألماسًا وصفوت.. توقف ميروسلاف عن عزف الأوكرديون.. التزم

صفوت الصمت، وأخذ يمشي ذهابًا وإيابًا داخل غرفته.

مضت الأسابيع ولم يروه، وذات مرة همس إبراهيم جار صفوت إليه: بأن ميروسلاف كان يدخل صناديق مليئة بالأسلحة في كنيسة القديس « نيكولا ».

لم يخبر صفوت ألماسا بذلك، لكنها علمت بذلك من نساء المدينة.. شعرا بالقلق لكنهما ظلا صامتين.. لم يعرفا ماذا يقولان لـ « ميروسلاف »، إنهما لم يتدخلا أبدا في أموره، وما اعتادا على هذا.

وذات ليلة لم يستطع صفوت النوم، كان ينظر في حديقة البيت التي أضاءها مصباح، علقه جاره إبراهيم على سطح منزله، وكذلك فعل كل جيرانه.

نزل صفوت إلى الفناء، وقعد على المقعد، فجاءه إبراهيم.

إبراهيم: السلام عليكم.

صفوت: وعليكم السلام.

إبراهيم: أراك قلقًا لا تستطيع النوم.. وأنا كذلك لا أقدرعلى النوم منذ أيام.

صفوت: أنا سعيد لأنك ركَّبت هذا المصباح ليضيء لنا، ويمكننا الجلوس بالليل في باحة البيت.

إبراهيم: ما وضعتها إلا بسبب خوفي يا صفوت!

صفوت: لم الخوف؟

إبراهيم : إن الصرب يحرقون المنازل، وأخشى أن يحرقوا منازلنا أيضًا.

صفوت: ولذلك وضعت المصباح؟!

إبراهيم: نعم.

صفوت: لتراهم بوضوح.

إبراهيم: نعم.

صفوت: وماذا بعد؟

إبراهيم: إنهم يحرقون المنازل في « دوني بولي »، ودمروا « جيجافو » و « بيلتش » ومسجد « تسارافا »، واعتقلوا المسلمين في « دوني بولي ».

صفوت: سوف يمر كل هذا يا إبراهيم.

إبراهيم: أنت لا تعرف أي شيء.

صفوت: وماذا علي أن أعرف؟

إبراهيم: قبل الفجر يأتي إلى هذا البيت « ميروسلاف » مسلحًا، وأنتما نائمان، ثم يأتون ويأخذونه معهم.

صفوت: اترك ميروسلاف يا إبراهيم.. يجب أن يكون مع شعبه أيضًا، وأنت تعرف أن الشباب يجتمعون حوله.

إبراهيم: ربما كان يشاركهم في « جيجافو ».

صفوت: إنه صغير جدًّا على هذا يا إبراهيم.

إبراهيم: إنك لا تعرف أي شيء يا صفوت.

في تلك الليلة قعد صفوت وقتًا طويلًا في غرفته ينظر من خلال النافذة ينتظر ميروسلاف، وفي الساعة الثالثة فجرًا دخل ميروسلاف، مرتديًا الزي العسكري، وعلى رأسه القبعة الصربية التقليدية، وقد علق على كتفه رشاشًا، وبمجرد دخوله ألقى نظرة على المصباح الكهربي على بيت إبراهيم الذي أضاء فناءهم.. تلك النظرة أزعجت صفوت.. ليس هذا هو ميروسلاف الذي عرفه صفوت وألماسا.

بعد منتصف الليل بساعة تم حرق منزلين أسفل الشارع، أعلى سوق « بازاريتش » من قبل حركة « شباب البوسنة الجديدة » بقيادة « ميروسلاف جوجيريا » الذي تلقى الأوامر من كنيسة القديس نيكولا.

أعطى جريو العجوز ميروسلاف مفاتيح منزل بالقرب من فندق « زيلانجورا » ليأخذ ألماسا وصفوت إليه، ويقوم برعايتهما.

اصطحب ميروسلاف - في عملية السلب والنهب - أصدقاءه الذين قضى معهم أيامه في المدرسة، وغنَّى لهم في فناء البيت.

دخل هو وزملاؤه باحة بيت إبراهيم المضيئة.. فتحوا البوابة بركلة واحدة، وألقوا على السقف زجاجات مليئة بالبنزين.. لم يحتج الأمر سوى رصاصة واحدة لتشتعل النيران في البيت.

أسرع إبراهيم وعائلته خارج البيت، فأطلق عليهم ميروسلاف وزملاؤه النار من رشاشاتهم.

وفي اللحظة التي كانوا يطلقون فيها النار على بيت إبراهيم، سمع دوي رصاص في الباحة المجاورة.. ارتبك ميروسلاف، وأسرع نحو باحة منزله، فوجد ألماسا تعتمد على « درابزين » الدَّرَج، كانت تنظر إليه، وقد سقط جسد زوجها صفوت على الأرض، وقد سمع الجميع قولها:

- إني أراك يا ميروسلاف!

ورأوها عندما سقطت على الدَّرَج.

في الليلة التالية دخل ميروسلاف وحده باحة البيت، فقد علم أن جثتي « صفوت » و « ألماسا » قد نقلتا إلى « فيليتشفو » ودفنا هناك.. كان ينظر إلى جدران المنزل الذي احترق نصفه، ذلك المنزل الذي نشأ فيه. ثم رقد على الفسيفساء، وأخذ يتنفس الهواء الذي امتلأ برائحة الخشب المحترق.

أخرج من جيبه زجاجة براندي، فشربها حتى الثمالة، ثم رماها بعيدًا فتحطمت ألف قطعة.

نام، ثم استيقظ بعد منتصف الليل.. شعر أن رأسه على وشك الانفجار، وحرارة جسده مرتفعة جدًا.. قام بصعوبة على رجليه، وانطلق إلى أسفل الشارع، ثم مر بسوق برييكا المحترق، وتوجه نحو مطعم « فويفودا »، الذي كان مقر استراحة الصرب بعد إتمام عملياتهم المسائية.. كان لديه صراع شديد.. اتكأ على حائط السوق أعلى المطعم، وعندما جمع قواه هبط إلى أسفل.. كان يزعجه رشاشه الآلي الذي على كتفه، وتواردت على خاطره ذكريات سالفة، من لقاءات في الفناء تحت شجرة التوت القديمة، يغني مع أصدقائه، وتقدم لهم ألماسا العصائر.. أثارت هذه الذكريات نفسه وحماسته، فانطلق يغني كما كان يفعل في باحة البيت:

- صيدفا أثارتها أمها.

- صيدفا أثارتها أمها.

- استيقظي يا صيدفا.

- استيقظي يا صيدفا.

تحمس ميروسلاف للأغنية، وامتلأت روحه بالجمال والحب مثلما كان يفعل في الفناء.. لم يكن يعرف أنه وصل إلى المطعم.. الجميع في الداخل كانوا صامتين

ينتظرونه حتى دخل وهو يكمل أغنيته:

- تظنين أني نائمة يا أماه.

- لكنني شابة أفارق روحي.

فتح ميروسلاف الباب، ووقف في المدخل.. الجميع كانوا ينتظرون من يبدأ الكلام، وهو ينظر إليهم باستغراب.. أراد أن يكمل أغنيته، ولكن في تلك اللحظة سمع صوتًا من زاوية:

- انظروا.. جاء إلينا جودريا الصغير!!

تصلب ميروسلاف ولم يتحرك، وكان لا يزال قائمًا على عتبة الباب، وأخذ يتفحص بناظريه المتحدث، وأراد أن يفيق من جمال الأغنية البوسنوية التقليدية.. عرف أنه « يوفان ستويانوفتش » الذي كان يجلس في زاوية، وهو الذي اصطحبه في الهجوم على بيلتش، وهو الذي لقبه بـ « جودريا الصغير ».

أراد ميروسلاف أن ينزل الرشاش من على كتفه؛ ليصوبه أو ليحتمى به، ولكنه بدا وكأنه ينزعه من شخص آخر تشبث به.. انتهى كل شيء في لحظة!! لقد أطلقوا عليه النار وقتلوه.

أخذ الصرب ينهبون بيوت جيرانهم المسلمين المحترقة، ولأن بيت صفوت لم يحترق بأكمله فإن الطابق السفلي لا يزال سليمًا - فقد سكنته أسرة صربية كانت تستأجر بيتًا عند أحد المسلمين أعلى السوق، وحسبوا أنهم سيرثون البيت لعدم وجود وارث، فقد كان ميروسلاف الوريث الوحيد ولكنه قتل بيد الصرب.

في تلك العائلة الصربية كان هناك العديد من الأطفال الصغار الذين قضوا أيامهم يلعبون في فناء المنزل، ورغم أن أعلى فروع شجرة التوت قد احترقت، إلا أن أحدهم علق أرجوحة بفرع من فروعها، ولعب فيها الأطفال من الصباح إلى المساء، وكان يسمع منها أيضًا صوت أوكرديون، وإذا ملوا من الأرجوحة تنازعوا الأوكرديون كأنهم يحاولون تمزيقه.. لم تكن نغمات موسيقية، بل أنينًا، أو نواحًا، أو خوارًا.

لم يمض على ذلك إلا وقت قصير حتى جاء أصدقاء ميروسلاف، ودخلوا الباحة واشتعلت النار في البيت، كانوا ينظرون بحزن إلى السقف المشتعل، والأطفال الذين قعدوا على المقاعد حول المنضدة.

وقبل انصرافهم قال أكبرهم (ميلوفان):

– قد اتفقنا مع ميروسلاف أن نحرق البيت وننقذ ألماسا وصفوت، ولكن جريو العجوز أمرنا بقتلهم، لأنه لم ينس قصة « كونوفو ».

وفي اليوم التالي – وبحلول المساء – أحرق الصرب جميع بيوت المسلمين أعلى « بازاريتش »، وساقوا الرجال إلى معتقل، وسجنوا النساء والأطفال في سجن للنساء في « فيلتشفو »، أو إلى صالة « بارتيزان » الرياضية، ونقلوا الفتيات فوق سن (١٢) سنة إلى مطعم « بوكبيلا » باتجاه « تينيشتا » أو إلى بيت « كورومانوف ».

كان لا بد أن تنفذ أوامر زعماء الحرب « بيرو ألز » و « يانكوفيتش » (توتا).

* * *

(١٥) كف الصرب عن البحث عن المسلمين في الغابات، كما كفوا عن العمليات العسكرية الجديدة، ولم يصطفوا كما كانوا أمام الكنيسة.. كانت هناك معلومات بين سكان فوتشا أنه جرى اجتماع سري بين أوستيا وماكسيم، ولكن أحدًا لم يعرف ما الذي أسفر عنه هذا الاجتماع.

بعد هذا الاجتماع تجمع الجيش الصربي في حي « آلاجا »..كانت المدينة كلها في انتظار الأحداث الجديدة، أما الصرب فينتظرون الأوامر بإخراج المسلمين من فوتشا أو صربينيا كما سماها الصرب.

وقد أصابت هذه الأحداث وذلك التربص الشيخ مصطفى بالهَمّ، وقَتَرة على وجهه، حينما كان ينحدر من برج الساعة.. إنه تذكر كلمات والده:

- إذا رأيت أن الحرب قد وضعت أوزارها، وهدأت الأمور، والجميع ينتظر شيئًا مجهولًا، اعلم أن الصرب يخططون ويمكرون.

وبينما كان يهبط من برج الساعة، والسماء قد اتخذت لونًا أصفر فاتحًا، استشعر سوء مصير مسلمي فوتشا.

حدَّث نفسه قائلًا:

- أليست هذه آية من آيات اللَّه؟

ولكن في هذه المرة بدت وكأن أحدًا بسط هذه الغيوم الصفراء فوق المدينة، واصفر كل شيء، حتى نفوس صرب فوتشا أصبحت صفراء.. كان السكان خائفين، يرتقبون شيئًا ما يخشونه، فمنهم من أراد وقوعه ولكن الخوف ملأ قلوبهم، مع أن أحدًا لم يحاول تخويفهم بذلك الحادث، ولكن قذف في قلوبهم الرعب، وهو أمر ظهر من خلال محادثات الأسر.. كانوا يخشون من ذلك الاصفرار، وما ينجم عنه، وبسبب ذلك انطووا على أنفسهم، وثقلت حركتهم.

وفي منتصف الليل، قبيل الاحتفال بعيد القديس إيليا، سمع انفجار مروع، دَوَّى صوته دويًّا شديدًا كسر جميع نوافذ بيوت البلدة، كما تسبب في تصدع جدران بعض البيوت، وانقلبت أثاثات الشقق، وسقط النساء والأطفال على الأرض.. لم ينم أحد في هذه الليلة، كانوا ينتظرون انفجارًا آخر.

بعد هذا الانفجار سمعت الأجراس في كنيسة القديس نيكولا، وسمع من وسط

المدينة من مكبر للصوت، جواب ما كانوا ينتظرونه:

- إخواني الصرب، تم تفجير مسجد آلاجا!

خرج الصرب فرحين مندهشين، لا يعرفون كيف يحتفلون بهذا الحدث العظيم، هل يعانق بعضهم بعضًا، أم يرمون قبعاتهم في السماء تعبيرًا عن غبطتهم.

جاء الناس من كل مكان في المدينة يسرعون نحو آلاجا، ووطئ آلاف منهم ساحة المسجد ليشهدوا هذا الحدث العظيم.

« فويو » المجنون، كان دائمًا يبهج أهل البلدة، وهو الآن يردد عبارات:

- هيا.. هيا ياميلوتين!!

كان هذا هو الحدث المنتظر، وهو الجواب على جميع أسئلة الصرب. لم يعد هناك وجود لذلك المسجد الجليل، الذي سماه المسلمون « المسجد المتعال ».. وبعد أن انمحى آخر رموزهم الدينية، فلا مرحبًا بهم في صربينيا!

تجمع كبار الصرب وصغارهم في ساحة مسجد آلاجا، ومن مسافة بعيدة كانت أنقاض المسجد، وآثار الانفجار واضحة بشدة، بسبب تسلط الأضواء الكاشفة عليه.

كان يقع على الضفة اليمنى لنهر « تشيهوتينا ».. قبل تلك الليلة كان هناك مسجد، إنه مشهد لحلم الصرب القديم.. اختفى أجمل مسجد بمنطقة البلقان، لم يبق منه إلا قطع حجرية ضخمة متصدعة.. بعض أجزاء المسجد اهتز كيانها لكنها لا تزال قائمة.

كان يبدو كأن أحدًا خلط الكتل الحجرية ووضعها على كومة ضخمة.. ربما يأتي شخص ما فيعيد بناء المسجد من جديد من نفس الأحجار بكلمات سحرية! هكذا كان يبدو للصرب وهم مجتمعون في ساحة المسجد.

كان جنود الصرب يقفون حول المسجد يتلقون الأوامر من الضابط « دافيدوفتش » وهو يركب فرسه، ويصرخ فيهم كالمجنون بألا يسمحوا لأحد من سكان البلدة بالاقتراب من الكتل الحجرية.

لم يقترب أحد من المسجد المدمر، فالجميع كانوا ينتظرون الكاهن سيكولا، الذي وصل مؤخرًا مع ماكسيم، يرافقهم ضباط وجنود الصرب، وقفوا مبهوتين حينما رأوا حطام المسجد المشهور، فبينما كان الجميع يلوذ بالصمت كان الكاهن يحدق طويلًا

إلى المسجد المدمر، ثم رفع يديه إلى السماء وتكلم بصوت مبحوح:

- المجد والبركة على جميع شهداء كوسوفو، وعلى الذين قتلوا من أجل الدين المسيحي، والشعب الصربي في يوم العيد في « فيدوفدان »، والبركة على « يوفان ديسيوتا » المقدس، وعلى الأم أنجليا النبيلة الصربية، وستيفن شتيلا.. هؤلاء هم الذين أقاموا كنيسة القديس « في سريم » (وهي أرض مستوية)، والفخار لـ « كرينا » من أجل سعادة جبل « بتروا » و « لابيت » والدير المقدس في « جومو جوفينا ».. آميـــن.

ثم أمن الجميع على دعائه.

توجه ماكسيم - وهو مضطرب - نحو الجموع، وقال:

- لا وجود لسوق برييكا، ولا مساجد في صربينيا، ولن يكون هنا مزيد من الأسماء التركية: أرطغرل.. مسجد سلطان فاطيما.. تسارافا.. على عاتق.. مصطفى باشا.. ولا وجود لجامع آلاجا.. لا وجود لشيء تركي.. لقد عشنا من أجل هذا اليوم.

أجاب الجميع في صوت واحد: آميـــن.

كان جامع آلاجا قد وقفه حسن ناظر الفوتشاكي ابن يوسف، وقد نقش على بوابة المسجد الرئيسية:

تم بناء هذ المسجد الموقر المعظم من قبل الواقف حسن بن يوسف.. باسم اللّٰه تعالى، وابتغاء مرضاته.. حبًّا للّٰه.. يا باقي تقبل مني.

وقد انتشرت بين مسلمي فوتشا قصة بناء هذا المسجد، وبمرور الزمن زاد الناس فيها ونقصوا.. إلا أنها ظلت وكأنها وحي الأساطير، وربما كان ذلك لأن الجميع يحبون الأساطير؛ لأنها تأخذهم إلى عالم خيالي يشبه عالم « التنينات »، وقصص أبناء الأمراء، والصراع بين الخير والشر.

كان الأطفال يتجمعون حول آلاجا أثناء عودتهم من المدرسة إلى بيوتهم، لا يلتفتون إلى البراعة والجمال الزخرفي للمهندسين، الذين أتى بهم حسن ناظر من آسيا، ولا إلى الفن المعماري على الطراز العربي، بل الأمر الذي رسخ في عقولهم هو قصة تلك الأم التي عرفت ولدها بعد أن فارقها إلى إسطنبول لمدة عشر سنوات.. وقد بني مسجد آلاجا في ذلك الموقع الذي تعرفت فيه على ولدها.

وفقًا للأسطورة، فقد كان حسن ناظر من أسرة فقيرة في قرية « وقف » قرب

« تشلبيش »، ولما بلغ عنفوان شبابه أراد أن يخرج إلى العالم ويسافر فيه، لكن والديه كانا يعارضان تلك الفكرة، وعلى إثر مشاجرة مع والديه بسبب تلك الفكرة، قرر المغادرة على أية حال.

ذهب إلى السلطان في إسطنبول، وعرض نفسه عليه، وهناك برع في كل العلوم حتى حاز ثقة السلطان ورضاه، وقد كان يرافقه في بعض حملاته العسكرية، وبسبب ذلك اكتسب ثروة كبيرة، وبعد مرور عشر سنوات سمح له السلطان بالعودة إلى أهله، وأعطاه صكًّا ببناء مسجد في فوتشا؛ فانطلق حسن يحمل معه ثلاثة أكياس من الذهب، وفي الطريق قبض عليه قطاع طريق، فقيدوه وأخذوا أكياس الذهب الثلاثة، واقتادوه إلى الخان الذي أمضوا فيه ليلتهم.

أخذ حسن يدعو ربه، فانفكت قيود يديه ورجليه، فأخذ أكياس الذهب من اللصوص الذين كانوا مخمورين، ووصل إلى فوتشا بسلام، ولما وصل إلى الضفة اليمنى لنهر « شيهوتينا » وجد أمه العجوز تنشر الغسيل في الشمس.

سألها عن اسمها فأخبرته، وأخذت تقص عليه قصة ولدها حسن الذي تشاجر معها ومع أبيه، ثم ذهب إلى الولاية، ومن يومها لم تسمع عنه شيئًا، فسألها حسن:

- هل يمكنك معرفة ابنك بشيء؟

أجابته: نعم، بعلامة على ذراعه.

كشف حسن عن العلامة التي في ذراعه، وقال لها: هل عرفت ولدك الآن؟!

ومن شدة فرحها فارقت الحياة.. وفي تلك البقعة بنى حسن المسجد.

أحضر المهندسين من آسيا، ثم ذهب معهم إلى قرية « فيكوتش » بحثًا عن محجر لبناء المسجد، وعندما وصلوا القرية أمضوا ليلتهم عند « فرننيتشا » تحت صخرة « سوكولتسا ».

وفي منتصف الليل، وعلى بعد نصف ساعة من مكان مبيتهم، هبطت صخرة كبيرة أيقظتهم من نومهم، ودب الخوف في قلوبهم، وأخذ كبيرهم يهدئهم بقوله:

- لا تخافوا لقد منحنا اللَّه هذه الصخرة كي نبني منها المسجد!

ومع طلوع الفجر ذهبوا إلى موقع الصخرة، فوجدوا صخورًا مكسورة، الواحدة في حجم المنزل، فأخذ البناؤون ينحتون الحجارة التي صنعوا منها الأعمدة ووضعوها

في مدخل مسجد آلاجا.

تم بناء المسجد بسرعة، ثم دعا حسن مهندسًا وطلب منه أن يبدأ في بناء القبة، فقام رئيس المهندسين بأخذ مقاسات الجدران على الورق، وأعطى نسخة لحسن، واحتفظ لنفسه بنسخة، ثم ولَّى مدبرًا، ولم يُر لمدة عام.

غضب حسن لذلك؛ لأنه لن يستطيع بناء المسجد بدونه، وبعد عام رجع إليه ذلك المهندس، وكاد حسن أن يقتله من غيظه عليه، إلا أنه طلب منه أن يمهله، ويهدأ حتى يتسنى له النظر في المقاسات التي قدمها لحسن في العام الماضي، وأخرج هو نسخته وأخذ يقيس جدران المسجد مرة أخرى، فظهر أنها أقصر من المقاسات السابقة بعشرة سنتيمترات، لأن الكتل الحجرية هبطت قليلًا.

قال له المهندس:

- لو بنيت القبة على الجدران حين أمرتني ببنائها لانهارت بعد سنوات قليلة، ولكن الآن فأنا أقسم باللَّه أنها قادرة على البقاء إلى يوم القيامة!

أدرك حسن أن المهندس كان على حق، فعفا عنه وشكره وكافأه، وتم إكمال بناء المسجد.

وبعدما أتم بناء أجمل مسجد، استشهد ولده إبراهيم، فحزن عليه حزنًا شديدًا، ودفنه في الضريح الذي كان قد أعده لنفسه، ونقش على قبره بخط نسخي جميل ستة عشر سطرًا:

« انتقل إلى الآخرة، المغفور له، الشهيد السعيد: إبراهيم بك بن حسن شلبي ناظر. غفر اللَّه له ذنوبه، ولوالديه. في بداية (جمادى الآخرة سنة ٩٠٠ هـ)، شهيدًا في معركة في حملة عسكرية. إنه شهيد سعيد ».

وفى عام (١٦٦٤م) زار الرحالة والمؤرخ الشهير « أولياتشلبي » ذلك المسجد وكتب عنه فقال:

« لقد رحلت إلى مدن عديدة، وزرت أماكن كثيرة، ولكني لم أشاهد قط جمالًا كهذا.. ».

فجَّر الصرب آلاجا وجميع المساجد الأخرى في فوتشا، كانوا يعتقدون أنهم بذلك يمحون فترة الحكم العثماني، التي ظلت خمسة قرون في تلك المناطق.

كان ماكسيم يريد أن يطمس الفترة العثمانية من تاريخ الصرب، وأن يجمع بين العصور الوسطى التي أسست فيها الدولة الصربية، وبين فترة الحكم النمساوي الهنغاري.. بعد تدمير كل المساجد، فكأنه رجع إلى العصور الوسطى في مملكة « دوشان ».

قال « بتكو تتشنشار » رئيس بلدية صربينيا في كنيسة القديس نيكولا:

- منذ مئات السنين اشترك الشعب الصربي في بناء المساجد، ولكن الأتراك لم يدفعوا لهم مقابلًا لعملهم، وهذا هو سبب تدمير الصرب لتلك المساجد!!!

- لا وجود لآلاجا بعد، يقولون: إنه أكثر جمالًا من الجسر القديم في « موستار »، وجسر « سيكولوفيتش » على نهر درينا.. ونفس المصير ينتظر الجسر في « موستار » و « سيكولوفيتش ».

شهد المسجد كل الجيوش التي مرت عليه عبر العصور، وخلال الحرب الأخيرة حذر الأمير « ظهاري أوستوتيش » التشتنيك من نهب المسجد، لكنهم لم يستجيبوا له، وأخذوا من المسجد كل ما يمكن أخذه، وكان من ذلك سجادة أهداها ولي العهد النمساوي « رودولف » للمسجد، فقاموا بتقطيعها ووزعوها على جنيرالات إيطاليا حتى يسمحوا لهم بذبح المسلمين في فوتشا.. وبقي قبرا حسن ناظر وابنه بدون تلك اللوحات التي توضع على القبور، ولكنهم لم يهدموا المسجد.

ارتفعت فوق قبة المسجد مآذن رفيعة مكونة من أربعة عشر ضلعًا، وطولها ثلاثة وثلاثون مترًا، وكان محيط القبة من الحجر المنحوت، وشرفة المئذنة تتألف من أربعة عشر عمودا حجريًا، يُصعد إليها من خلال سُلَّمين، وكان السُّلَّم يعتمد على جدران المئذنة الداخلية، والعمود الحجري في وسطها ونقش على المنبر الحجري:

« لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه »

والمسجد من الداخل مزين بزخارف طبيعية، وقد قيل عن الرسام « مانيا » - من الإمبراطورية العثمانية -: إنه عندما يرسم الشمس، تستشعر من صورتها الحرارة، وإذا رسم حديقة، يمكنك أن تشم عبيرها.. وقد قيل مثل ذلك في رسومات هذا المسجد، وقيل أيضا عنه: إن أعظم عمل فني في الدولة العثمانية، كان في فوتشا بعيدًا عن إسطنبول.

كل ذلك كان بفضل حسن ناظر، ورمضان أجا المهندس زمن السلطان سليمان،

وكوجا ميمارسينان بن عبد المنان أجا، الذي أفنى حياته في بناء هذا المسجد الفريد.

جلب الصرب المتفجرات لتدمير تلك التحفة الأثرية.. أتت بها نفس الشاحنتين اللتين كانتا أمام كنيسة القديس نيكولا في الليلة الأولى، وفي اليوم التالي تم تفريغ جميع الصناديق منها أمام المسجد.

كانوا يضعون المتفجرات في الثقوب المحفورة في جدران المسجد، وقد استغرقت العملية ثلاث ليالٍ.. كان الصرب على علم بذلك، لكن أحدًا لم يتحدث به.

***

١٦

على الرغم من أنه قد مضى أكثر من ثلثي الليل، إلا أنه لا يزال منزل أسرة « رادوفيتش » مضيئًا بالأنوار.. ففيه كان يجتمع سكان تشلبيش بعد جولاتهم المسلحة في القرى المسلمة، وفي الأيام الأخيرة الماضية شربوا كثيرًا من براندي يوفان قبيل عملياتهم المسلحة.. يتدفق ذلك البراندي في دمائهم ويهيجهم على الحركة، إذا خالط رءوسهم.

انتشرت دماء المسلمين في المروج خلف البيوت المهجورة، والحدائق أمام البيوت القديمة في حي فوتشا، والأعلاف في الزرائب، ومنحدر الشواطئ على نهري « بستريسا » و« تشيهوتينا »، والبساتين والغابات.

كانت الدماء تجري، كما يجري البراندي في دماء الصرب، وكلما ازدادت جرائمهم كانوا في حاجة إلى براندي يوفان، الذي كان يحرمهم من النوم، ويدفعهم إلى ارتكاب مزيد من الجرائم.

كان « غاغولا » من بلجراد على حق عندما قال:

- هذا البرندي يحيي الموتى.

وكان يوفان رادوفيتش يشرب مزيدًا من الخمر حتى اختلط عليه الليل والنهار، وعند المساء يكون قد سكر حتى الثمالة، فيأتيه فريقه! وقبل الفجر يرجع إلى بيته شبه نائم، مع بقع داكنة على زيه العسكري.

لم يكن هذا هو يوفان الذي يعتني ببستانه وخمره، لقد أصبح رجلًا جديدًا ينتظر الليل ليمارس مع فريقه عملياته العسكرية.. كان يشعر أن الخمر تجري في عروقه مع دم نيجو رادوفيتش، وهي أقوى من إرادته.. كان كلما أتى إلى نيجو حدثه من على فراشه:

نيجو: سيذكرك سكان تشلبيش يا يوفان، وذكرهم لك على هذه الحال من التقتيل أفضل من ذكرهم لحسن ضيافتك، واعلم جيدًا أن الصرب يصنفون الصربي إلى صنفين: إما خائن قذر، وإما بطل.. وهم يريدون رؤية نيجو رادوفيتش في صورتك.

كلما كانوا يستعدون للمهمة أرسلتهم إليك ليصطحبوك معهم، وقد قصوا لي مرة أنك أشعلت النار في بيت عائلة حسن بيجوفيتش وهم محاصرون داخله، وأنا أيضًا أحرقت منهم في التمرد الأخير.

يوفان: لا تتحدث بهذا يا نيجو.

نيجـو: ما الذي يمنعك من الحديث في ذلك؟ عندما يأتي إلى « رادوي » نتحدث فيما حدث وما يحدث الآن.. قال رادوي: إن كل شيء يدور دورة كاملة، إنه قتل عائلة « موسلتش » في «زاويات » واليوم سلَّم ابناه نفس الأسرة لزعيم الحرب من كتيبة النسور البيضاء؛ ولذلك قال رادوي: إن كل شيء يدور دورة كاملة.

يوفـان: لا ينبغي علينا أن نتحدث عن هذا، أينما أذهب أجد الدماء.. في جميع القرى لا يوجد سوى الدماء.. في كل قصة دماء.. حتى زيي العسكري.. في بيتي.. وفي منامي أرى الدماء.. ليت لهذا الأمر نهاية!!

نيجـو: اشرب الخمر يا يوفان، وكل شيء سوف ينسى.. لا تنعزل؛ لأن العزلة تؤدي إلى التفكير، وبسهولة يمكن أن تصاب بالأمراض؛ لذلك اشرب مع الجماعة وغَنِّ معهم.. غَنِّ الأغاني الصربية لتزداد قوتك.. ما دام هناك غناء فالصرب لن يستسلم.. في هذه الليلة سيخرجون لمهمتهم، وسأقول لهم أن يأخذوك معهم.

يوفـان: كيف يصغون إليك؟!

نيجـو: إنهم يسمعون كلامي.

يوفـان: لماذا؟

نيجـو: كيف تقول لماذا؟ وأنا الذي حررت تشلبيش من المسلمين، وأذكر ذلك في الأغاني الصربية.

يوفـان: لقد سمعت، ولكن أنت...

نيجـو: نعم، قد كبرت، والذي أبقاني على قيد الحياة هو الأغاني الصربية، وأبطال الصرب الذين يخبرونني بكل شيء، أنت وستويان فقط لا تخبراني بشيء.. هل ستويان شجاع؟

الذين يأتون إلي لا يسعهم إلا الثناء عليه، يقولون: إنه كان في البداية يحدق فقط، ولكن لما تحركت فيه دماء رادوفيتش تغير حاله تمامًا.. يكفي قتل واحد لكي تفرج عن نفسك، وبعد ذلك لا حدود!!

لقد ترك المسلمون منازلهم في القرى وفي المدينة.. كان أمرًا جيدًا أن بدأنا بالتطهير العرقي في القرى، ليفر سكان المدينة بأنفسهم.. ولكنني سمعت أن هناك مجموعة من المسلحين المسلمين في الغابات، يقطعون الطريق على أولادنا، ويحاصرونهم.

يوفـان: هم لـم يذكروا لك يا نيجو...

نيجـو: ماذا؟

يوفـان: إذا لم يستسلم رجالنا يطلق المسلمون عليهم النار، ولكن إذا استسلموا، يأخذون منهم السلاح ثم يخلون سبيلهم.

نيجو: أرأيت، أيضًا هذا يعيد نفسه، يبقى الصرب على قيد الحياة، ثم يجتمعون مرة أخرى ليبذلوا أقصى جهودهم للعثور على الأتراك في الغابات.. وماذا سمعت أيضًا؟

يوفـان: يقودهم واحد يسمونه « حمزة ».

نيجـو: ربما كان هذا ابن ثابت.. كان والد ثابت يعيش في تشلبيش، وقتله واحد من عائلتنا « رادوفيتش ».. من قال لك: إن قائدهم « حمزة »؟

يوفان: هؤلاء الذين استسلموا له.

نيجو: الشرطة الصربية تراقبه منذ عامين!

يوفـان: ولماذا؟

نيجـو: لقد قرأ كثيرًا من الكتب عن الصرب.

يوفان: هذا جيد.

نيجـو:.. حتى إنه وجد في المتحف والمكتبة، وثائق وطنية منذ فترة « نتشرتانيا »[1] إلى يومنا هذا.

يوفـان: ما « نتشرتانيا » الذي تتحدث عنه؟

نيجـو: كن حذرًا يا يوفان، حمزة أذكى رجل في المسلمين، فبمجرد أن يبدأ الإمام بـ « العواء »! يذهب إلى المسجد.. وفي النهاية سنخشى منه.

يوفـان: رجالنا خائفون من الخروج في العمليات، خوفًا من أن يقطع عليهم طريقهم.

نيجـو: إنهم يخافون من كوسوفو!

يوفـان: كيف يكون ذلك؟

نيجـو: لا يسمحون لأنفسهم أن يخسروا معركة، وهذا سبب خوفهم من أولئك الذين

---

(١) هو برنامج سياسي وطني لإنشاء صربيا الكبرى، واستعادة الإمبراطورية الصربية التي كانت في العصور الوسطى، و إخضاع كل من (بلغاريا، مقدونيا، ألبانيا، اليونان، الجبل الأسود، البوسنة و الهرسك) للشعب الصربي.

يدافعون عن أنفسهم.

يوفـان: كل واحد منا يخاف أن يقطع حمزة طريقه.

نيجـو: لن نسمح بـ «كونوفو » مرة أخرى.

يوفـان: وماذا عن حمزة؟

نيجـو: سيحاصره الصرب ثم يسلخونه.

يوفـان: الوحدات الصربية تقوم بتدريبات من أجل الإمساك بحمزة وعصابته، وفي كنيسة القديس نيكولا يرغبون أن يقود العملية ابننا ستويان.

نيجـو: ستويان!

يوفـان: يريدون منه في الكنيسة ذلك؛ ليكون الرجل الثاني في هذه العملية بعد الضابط « دافيدوفيتش ».

نيجـو: لكن.. لو.. لو.. عندما يقبضون على حمزة، فليأخذه ستويان إلى المعتقل عند « بوري » في « دوني بولي ».

يوفـان: من « بوري »؟

نيجـو: الأتراك في السجون يعرفون جيدًا من هو « بوري ».. عندما كان يأتي رجال الأركان[1] إلى تشلبيش، كانوا يتحدثون عنه دائمًا.. يذهبون إلى السجن ليشاهدوا كيف يضرب « بوري » الأتراك.

يوفـان: لكن ستويان يرفض قيادة العملية.

نيجـو: لماذا؟

يوفـان: لا يريد.. لا أدري ماذا يحدث؟ إنه يعتقد أنهم يرسلونه إلى موت محتم؛ لأنه لم يوقع على ورقة ليرسل بموجبها أوستويا إلى ألمانيا للحصول على أمواله لصالح الجيش الصربي.. والآن هو لا يريد أن يقود الصرب.. لو غضب أوستويا لسجنه، وذلك عار على أسرة « رادوفيتش ».

نيجـو: ادع لي ستويان يا يوفان.

***

(١) هم فريق من التشتنيك.

١٧ لم يعد « غويان » و « رادومان » يطلبان من « جويان » غسل الدماء على الجسر في « برود »؛ لأنهما سمعا أنه أُغشِيَ عليه، وسقط في برك الدماء وسط الجسر، ووجده مقاتلو الصرب في الصباح عند عودتهم من مهمتهم التي أخرجوا خلالها سكان قرية « ترنو فيتش ».

ونظرًا لأنه لم يقم بغسل الجسر، فقد تجمدت الدماء عليه، وظن الجنود أنهم يسيرون في الوحل، لكنهم اكتشفوا الأمر من اللون القرمزي على الأحذية.

وبعد أن حملوه داخل سيارة الإطفاء، أفاق ثم جمع أنفاسه ثم نظر إليهم، وتمتم بصوت مبحوح كان يكرره قبل أن يُغشَى عليه:

– مهمة رادومان سهلة، ليست إلا تقطيع الحناجر، ولكن غسل الجسر أمر أصعب منه.

عندما سمعه الجنود ظنوا أنه قد جُنَّ.. كيف يكون النوم على الجسر أصعب من قتل الأتراك، وإحراق بيوتهم.. إن كان محقًّا فيما يقول، فعليه أن يقوم مقامه.

تيقن الجنود أنه جُنَّ، فتركوه على مقعد السيارة، لأنه بدا في حاجة ماسة إلى النوم والاستراحة، وعند الظهيرة أحس بمن يهزه من كتفيه.. فتح عينيه فإذا به يرى « غويان » و« رادومان »:

– هيا.. أنت.. قم!

كان وجه رادومان متغيرًا من الغضب، كاد أن يزلقه ببصره، وكانت يده قصيرة خشنة.

– قم يا جويان! أنت نائم كالجماد.. بدلًا من أن تغسل الجسر.. هل جننت؟

– ها أنا قادم.

– سنكون في انتظارك عند المدرسة.

نحيفًا.. طويلًا.. اتجه نحو المدرسة وهو بين النوم واليقظة.. لم يفهم لماذا أيقظوه، فأمامه وقت طويل إلى العشاء، يمكنه أن يغسل فيه الجسر.. حتى إن الدماء قد تجمدت على زيه العسكري.. كان يريد فقط أن يسمع ما يريدانه منه، ثم يكمل غسل الجسر في وقت لاحق.

وراء المدرسة اصطدم برادومان وغويان.. كان في المدرسة عائلات من القرى المحيطة الذين نجوا من الذبح.

رادومان: اسمع يا جويان..

جـويـان: تحت أمرك.

رادومان: قلتَ صباحًا: إن ذبح المسلمين أسهل من غسل الدماء على الجسر.

جـويـان: هل قلت هذا؟! آه.. أتذكر هؤلاء الجنود الذين نقلوني إلى السيارة، وقد كنت نائمًا على الجسر.

رادومان: أأنت قلت: إن مهمتك أصعب من مهمتنا.

جـويـان: لا أذكر جيدًا.. نعم لقد قلت: غسل الدماء أصعب من ذبح !! مسلمين.

رادومان: إذن ما سمعناه صحيح.

جـويـان: غسل الجسر أصعب من ذبح المسلمين.

رادومان: إذن هؤلاء كانوا على حق.

جـويـان: أنا أقوله لكم الآن.

رادومان: ولماذا مهمة الغسل أصعب من الذبح.

جـويـان: أنتـما تعـودان إلى ديـاركما، وتغتـسلان من آثار الدماء، وأنا أبقـى على الجسر، ولا أحد يستطيع غسل الجسر ولا حتى جويان، لقد سكبنا خمسة صهاريج مياه دون جدوى.

رادومان: ما الصعوبة في مهمة الغسل؟

جـويـان: حسنًا، هذا الزي كله مغـطى بالـدماء.. وهذا دم محـمـد من « ترنو فاتشا » يلطخ ساقي.

رادومان: أنت فقدت عقلك يا جويان.

جـويـان: وأنتما ستفقدان عقليكما.

رادومان: كيف؟

جـويـان: لقد فر « مويانوتش » يا رادومان.

رادومان: نعم، وماذا بعد؟

جـويـان: سوف يعرف أنك ذبحت الأبرياء.

رادومان: وماذا إذن؟ أنا أريد أن يعرف ذلك.

جـويـان: وماذا عن الدماء؟

رادومان: وماذا؟

جـويـان: كيف ماذا؟

رادومان: اسمع يا جويان، ما دمت على قيد الحياة، فلن تقوم بغسل الدماء مرة أخرى، اذهب إلى بيتك ونم، ولا تأت إلى عملك في مركز الإطفاء بعد الآن، فأنت مريض وتحتاج إلى الراحة، فيوشك أن تصبح « صربينيا » بلدة صربية خالصة.. وإن كنت تتفلسف بمن يقوم بأصعب مهمة فينا.. فاحذر!!

جـويـان: هل تهددني يا رادومان؟

رادومان: اعلم أني سأقتلك.

جـويـان: أو ربما تذبحني! فويل لمن يغسل دمي!

رادومان: سأقتلك يا جويان.. لا نريد أن نرى وجهك، تبًّا لك.. عالج نفسك.

مشى جويان نحو الصهريج وتسلق ودخل السيارة.. لم يستطع النوم، بل فكر فيما قاله رادومان.. حدث نفسه:

لو استمررت في الذهاب للعمل فسوف يقضون عليَّ بالتأكيد.

لم يستطع استيعاب أن تكون وظيفة أحد قتل الناس على الجسر، فقد كان رادومان يؤديها كما يؤدي عملًا في شركة « ماغليتش ».. كان جويان يعمل في محطة إطفاء الحريق حتى قبل التمرد الصربي، حيث اعتاد أن يقود الصهريج كلما دعي لإخماد الحريق.. وهؤلاء يجبرونه على أن يغسل الجسر.. إنه لم يتصور يومًا أنه سيقوم بغسل الدماء، في الوقت الذي تشتعل فيه القرى بالنيران.

شعر أن النوم يغالبه، كأنه سيُغمَى عليه مرة أخرى.. إنه تمنى أن يخلد إلى النوم، وعندما يستيقظ يستدعيه الحارس لينضم إلى صفوف فرقة مكافحة الحريق، مثلما كان يحصل على الجوائز في يوم الاحتفال ببلدية فوتشا.

تمتم:

- تبًّا لرادومان.. قطعه للحناجر أيسر من غسل الدماء.. ثم سقط مغشيًّا عليه!!

* * *

١٨

لم يذهب جويان إلى العمل بعد ذلك، وبذلك لم يكن على علم بما يحدث في فوتشا، وكل ما حدث كان يدور برأسه.. إنها أحداث جاوزت سبعة أيام.. ذهبت زوجته وأولاده إلى عائلتها في صربيا، فأصبح وحيدًا منتظرًا أن ينتهي كل هذا، ولكن بعد محادثته مع رادومان أيقن أن الحرب ستستمر بضع سنوات، وهذا الأمر كان يخيفه.

متى تعود عائلتي إلي؟

عندما يترك الصرب العمل، يكون من الصعب إرجاعهم إلى العمل.. هل من سبيل إلى تغيير ذلك؟.. على الطريقة التي يفكر بها رادومان، فلن تتغير الأمور أبدًا، فهو يذبح من أجل أن يقدسه الصرب، ويجعلونه بطلًا.. قبل ذلك التمرد كان معروفًا بالكسل، والآن وقت الكسالى!!

أصبح جويان خائفًا، وأحس أن الصرب سوف يموتون أيضًا وليس فقط جيرانهم المسلمون، إنه سمع أن المسلمين في « بابرتينا » نصبوا كمينًا لقافلة يرافقها جنود الصرب، وطلبوا منهم الاستسلام، ولكنهم بدأوا يطلقون النار، فقُتِل أربعون مقاتلًا صربيًّا.

كان قد سمع أن هذه المعركة لن تدوم أكثر من بضع دقائق.. وقد كان المسلمون مسلحين بشكل جيد، فأطلقوا النار على الصرب من وراء حصونهم، فقُتِل الصرب وهم يحاولون الهروب.

تلك الأنباء أغضبت صرب فوتشا،.. قالوا: إنهم سينتقمون عن كل صربي بمائة مسلم، فأخذت مجموعات من الصرب السكارى، يفتشون القرى المدمرة بحثًا عن النساء والأطفال الذين عادوا إليها، إذ إن الرجال لجؤوا إلى الغابات احتياطًا لأنفسهم وقد ذبح هؤلاء كل من وجدوه انتقامًا لقتلى الصرب في «بابرتينا »، وكانوا يبحثون عن المسلمين حتى في البيوت الصربية، فقد أتتهم الأنباء عن اختباء بعض المسلمين عند العائلات الصربية.

كان ذلك يحدث بالفعل، فكانوا إذا اكتشفوا ذلك أخذوا أولئك الصرب إلى معتقل في « دوني بولي » حيث معتقل المسلمين من هذه المناطق.

أصبح الصرب في فوتشا خائفين عند رجوعهم من مهماتهم العسكرية كل صباح؛ لأنهم لا يعرفون أين ينصب لهم المسلمون الكمين، ولم يعودوا يسعون للانتقام لجنود

الصرب، كانوا يتمنون فقط العودة من مهماتهم إلى بيوتهم سالمين، وألا يقعوا في كمين المسلمين.. قذف الرعب في قلوبهم، وقَلَّت طاعتهم لقوادهم.

ففي إحدى المرات هدد إخوة « ستانكوفيتش » قائدهم بالسلاح، بأمر الجنود بإطلاق النار لتخويفهم وليس لقتلهم، فانفصل إخوة « ستانكوفتش » عند عودتهم عنهم، وكانوا بذلك على يقين من أنهم أمَّنوا أنفسهم من المسلمين.

فكر جويان في هذه الأمور، وكان يعرف أنها ستطول طالما استقر المسلمون في الغابات.. وكان كلما رأى رادومان وغويان أصيب بوعكة صحية.. كانت تطفو على ذاكرته صور الجسر على نهر درينا، حينما كان مستلقيًا عليه في برك الدماء، فلم يستطع أن يتعافى من ذلك.. كان يزداد سوءًا كل يوم، وكان دائم العمل ليذهب عن نفسه التفكير.

ولأنه كان يعيش وحيدًا، فإن حياته لم تكن سهلة، ففي بعض الأيام عندما كان نائمًا على أريكته، ظن - بعدما استيقظ - أنه كان نائمًا على الجسر في برك الدماء.

وكان كلما مر برادومان أدار رأسه بعيدًا؛ حتى لا تلتقي عيونهما.. وفي المساء كان يشاهد جنود الصرب - ومعظمهم من المتطوعين الذين أتوا من صربيا - كيف يغتصبون النساء، ويأخذونهن إلى موقع بناء « بوكبيلا »، وفي فنادق فوتشا المختلفة، وفي صالة البارتيزان الرياضية، وفي المدرسة.

كان رئيس الشرطة « دراجان جاجوفتش » على علم بكل هذا، وكان هناك « جيلو » و « إشو » و « توتا » الذين لم يحاربوا، ولكنهم اغتصبوا المسلمات، وأخذوهن إلى شقق « ليبابرينا »..

كان جويان هو الوحيد الذي يشاهد كل هذا، وكلما توقف تفكيره في الجسر شعر بالتحسن.

* * *

(١٩) في يوم واحد فقط تغير كل شيء تمامًا، فبمجرد أن قام جويان من سريره دخل عليه رادومان، وعندما رآه غلب عليه الخوف، وتوقف عن الحركة بين سريره ومنضدة كانت عليها زجاجة خمرة.

رادومان: (سأله مباشرة وهو قائم عند الباب): ما الأمر يا جويان؟ لا تفعل شيئًا غير المشي في أنحاء المدينة كل يوم!!

جويان: قلت لي لا تأتي إلى محطة الإطفاء مرة أخرى.

رادومان: لماذا تشيح بوجهك عني؟

جويان: لأني أتذكر الجسر والدماء.

رادومان: وماذا عن شبابنا المقتولين، ألا تذكرهم؟ لقد قتل الأتراك في « بابرتينا » أربعين جنديًا من جنودنا.

جويان: نعم رجالنا يُقتَلون.

رادومان: وأنت تحزن على المسلمين.

شوش ذلك على جويان.. ثم تابع رادومان كلامه:

اسمع يا جويان، أنا سأغادر فوتشا ولن تراني مرة أخرى فيها، ولكن لو سمعت بأنك تحدثت عن قتل الأتراك على الجسر، سوف أعود من أقصى العالم لأقتلك.. تذكر ذلك جيدًا، لا تنطق لأحد بكلمة!

جويان: لقد هرب « مويانوفيتش »، وسوف يتحدث.

رادومان: كيف يمكنه الهرب، لقد بحث عنه جنود الصرب على طول الطريق، حتى جسر « جيليزني » ولم يجدوه، أما أنت فلا تكلم أحدًا عن هذا، وإن فعلت فسوف أعرف.

.. رحل من بيت جويان على الصورة الغريبة التي قدم بها عليه.. كان جويان يخشى من رادومان، ولكن هذا لم يكن يؤرقه.. بل من رؤية نفسه ليلًا ونهارًا في برك الدم.

لقد اعتاد على الاستحمام بالماء البارد في الصباح.. كان يخيل إليه أن دم محمد يتدفق مع كل قطرة ماء.. وبدأت الأفكار تحاصره، لم تعطه لحظة راحة، وما استطاع الجلوس، فأخذ يرتدي ملابسه بسرعة كأنه سيتأخر عن العمل.. اضطر إلى السير حتى يشعر بالتعب؛ لأن الخطر يأتي مع الوقوف، فطالما هو متعب فإن الأفكار تتركه، وهكذا يومًا بعد يوم يهيم على وجهه في الشوارع دون قصد.. إنه لم يقابل أحدًا في الشوارع،

فالصرب كانوا يستعدون للهجوم على « جوراشدا » وهو في حاجة ماسة إلى السير ليبعد صورة الجسر عن ذاكرته، وفي تعبه سلامة له.

ذات صباح كان ينتظره « دانيلو » أمام منزله.. لم يره جويان منذ أن بدأ الصرب بـ « تحرير فوتشا!! »؛ لأنه كان يذهب مع أبنائه في جميع القرى؛ ولذلك لم يره جويان.

رفع جويان يده مشيرًا قبل السلام عليه.

دانيلو: مكانك يا جويان!

توقف جويان، ونظر إلى دانيلو بارتياب.. كان قصيرًا جدًّا، ذا ساقين قصيرتين، وركبة غليظة، وبطن كبيرة.

رفع دانيلو يده مشيرًا مرة أخرى:

دانيلو: ماذا يجرى معك؟ لماذا أنت في هروب مستمر؟ ستطوف حول منزلك في النهاية! يتحدثون عنك، فالناس يروون، ويتحدثون، وإن لم تر أحدًا.

جويان: وماذا يقولون يا جاري؟

دانيلو: يقولون إنك جننت.

جويان: كيف؟

دانيلو: أنت تجري وحدك، وتكلم نفسك.. وقالوا: إنك تجري كثيرًا، ثم تقعد بعدما تتعب، ثم تقوم فورًا كأن أحدًا يطاردك.

جويان: فصلت من وظيفتي في محطة الإطفاء.

دانيلو: سمعت ذلك أيضًا.. لكن انتظر قليلًا أنا أعلم ماذا تريد؟ سأعود فورًا.

كان جويان في حاجة إلى الحركة، ولكنه انتظر ليرى ما هو الشيء الذي يحتاجه.. رجع دانيلو بسرعة؛ لأن بيته يقع خلف بيت جويان، ولما اقترب منه مد نحوه زجاجة كبيرة قائلًا:

- هذان لتران من « براندي كمثرى » أفضل من موقد الشتاء، اشرب منه فإنه سيسكرك وستنام يومين، وبعد أن تستيقظ ستكون في حالة جيدة، وذلك أفضل من الجري.. ثم استرح ثلاثة أيام، واشرب مرة أخرى فستنام مرة أخرى، وكلما استيقظت كنت في حالة أفضل.. أنا أعلم بعلاجك.. لن يفرج عنك الكرب إلا البراندي!!

هيا اترك الزجاجة واجرِ، وعندما تعود اشرب رشفتين من البراندي الصربي.

٢٠

في بيت يوفان، وحول فراش نيجو وقف كل من ستويانكا، ويوفان، ورادوي العجوز.. شعر نيجو بقرب أجله؛ ولذلك دعاهم.. هرع الجميع إليه لعلمهم بمرضه منذ عدة أسابيع.. كل ما فعله هو التحدث إلى رادوي العجوز، الذي لزمه ولم يغادره.. اجتمع الجميع وهو ينظر إليهم ثم بدأ الحديث:

- أود أن أقص عليكم قصة حقيقية عن تشلبيش، وكيف سكناها؟

كان المسلمون يعيشون هنا من قبل، وكل هذا كان ملكهم، وأفضل الأراضي التي تقع عليها بساتين يوفان كانت ملك أسرة « فضلليتش ».

اقتحمنا تشلبيش يوم عيد ميلاد المسيح، ومن أجل البرودة الشديدة والثلوج، لم يكن لدى المسلمين أدنى فكرة عما كان على وشك الحدوث، وقبل وصولنا دخلت الشرطة الصربية إلى القرية، واقتادت جميع الرجال إلى الشرطة، وهذا ما عرفناه بعد ذلك.

كان الخائن « فوين ليتتش » يدخل بيوت المسلمين، وينصحهم بالخروج والهروب.. رفضت النساء الهروب، ولكنهن سمحن لـ « فوين » أن يصطحب أطفالهن من أجل حمايتهم.

واقتربنا من حفرة في جبل « جورا » كنا في انتظار المسلمين الذين أُخِذُوا إلى مركز الشرطة.. حاصرناهم، وخلى رجالنا من الشرطة بيننا وبينهم، فحملنا عليهم بالسكاكين، وذبحناهم جميعا ثم ألقينا جثثهم في الحفرة، ثم دخلنا القرية وذبحنا نساءهم وأبناءهم.

حشرنا في بيت واحد نحو خمسين امرأة وطفل، وأشعلنا فيه النيران.. كان من المخيف جدًّا سماع صراخهم، وذلك الخائن « فوين » أخذ الأطفال معه وسلمهم للبارتيزان.

أحد هؤلاء الأطفال واسمه « حمزو فضللتش » - كنا قد قتلنا أباه وأحرقنا أمه - أصر لما كبر على استرجاع أراضي والده.. أرأيتم ماذا حدث بسبب هذا الخائن.

واسمحوا لي أن أقول أيضًا:

- أول شخص قتلناه في التمرد الصربي كان « عزير راموفيتش ».. أطلق عليه النار من بندقيته أحد أفراد أسرة « فندوب » من نهر تشلبيش؛ ولذلك فإن جميع الصرب في هذه المناطق يقدسون أسرة « فندوب ».

وأول من قطع رأسه على جسر جيليزني أثناء ذلك التمرد، كان « عابد راموفيتش ».

لقد سمعت يا ستويان أنك تلقيت مجموعة من أفضل المقاتلين؛ من أجل هزيمة الأتراك في الغابات.. كن حذرًا، وإذا حوصرتم فأطلقوا عليهم النار، فأنتم لا تحتاجون إليهم أحياء.

اقتلوا حمزة الذي يتحدث عنه الجميع، فقد سمعت أن إخوة رادوفيتش قتلوا أباه « ثابتًا »، والصرب يقولون: إن حمزة قتلهم انتقامًا لأبيه، وبمقتل حمزة لن يعود لأسرة قدريتش وجود في هذه المناطق.

فيما مضى أنقذ الخائن « فوين » « فضلليتش »، ولكن لا ينبغى لأحد أن يكون ناصرًا لقدريتش الصغير.. هكذا يا ستويان.. اعتن بنفسك، فعلى عاتقك أسرة رادوفيتش، ومن بعدك تقع المسؤولية على « دوشان » و « سافو ».

ستويان: لن أقود الصرب ضد حمزة يانيجو.

نيجو: هو واجب عليك يا ستويان.

ستويان: لا يا نيجو، هم سألوني أولًا عن أموالي، ولما رفضت إعطاءها إياهم، يرسلونني إلى الغابات لأتعقب حمزة.. اختصوني من بين جميع هؤلاء الجنود النسور البيضاء، ورجال شيشل، ورجال من فيلق « أوجتشكي » لقيادة هذه الوحدة الخاصة.

نيجو: حسنًا، لا تكن في المقدمة، ولكن عليك الخروج، وإلا سجنوك.

ستويان: لكني أخشى أن يطلق علي النار أثناء المعركة، دعهم يسجنوني إذن، فأنا لا أبالي، فقد سئمت من كل هذا، كفانا سفك دماء، نحن صرب مرضى، وليس لنا دواء!!

نيجو: إن سئمت أنت من القتل، ادع ابنيك: « سافو » و « دوشان » إلى صربينيا، إنهما قد تجاوزا الثامنة عشرة من عمرهما، ويبدو أن هذا سيستمر لبعض الوقت، وليس مكانهم هناك بل هنا.

وفي اليوم التالى مات نيجو رادوفيتش بطل الأغنيات الصربية في تشلبيش.

* * *

٢١

خاطب جويان نفسه:

ـ إن ظللت أشرب فلن أحتاج إلى الجري..

كان دانيلو على حق، فبعد رشفتين وجد نفسه في حالة سكر شديد، كان ينام ليل نهار، وكلما انتهى من شرب كأس سكب أخرى، وكلما كثر شربه قل أكله للطعام.

على الرغم من أن الجميع في محطة الإطفاء كانوا يشربون الخمر فإن جويان لم يكن يشربها حتى هذه اللحظة؛ ولذلك فإنه سَكِر من أول رشفة، وبعد رشفتين أو ثلاث غلبه النعاس، ومنذ ذلك الوقت كان ينام خلال الليل.

وقبل النعاس كان يشعر كأن حريقًا اشتعل في جسده، وكأن أحدًا كان يذكي هذه النار.

خاطب نفسه:

- كل ذلك مثل موجات الحرارة في الصيف إذا اشتعلت الحرائق في الغابات، فكل ما في الطبيعة يمكن أن يوجد في الإنسان.

كان يقضي وقته بين: البراندي، والنوم، والجري، واستمر على ذلك عدة أيام، لكن البراندي كان على وشك النفاد.

وذات يوم قبيل حلول المساء، ذهب إلى دانيلو، فتحت الباب زوجة دانيلو « إبيلا » وقالت:

ـ كيف حالك يا جارنا؟ هل تعافيت؟

جويان: لا أدري.

إبيلا: لقد نحل جسمك.

جويان: نعم.

إبيلا: سأدعو دانيلو على الفور.

وصل دانيلو يحمل زجاجة.

دانيلو: ها هي، جارَنا.. لتران آخران.

جويان: شكرًا دانيلو.

دانيلو: يقولون إنك الآن لا تكلم نفسك.. كنت أعرف ذلك.. لا ينبغي أن تظل وحدك، فأفضل دواء للصرب هو الشراب والأغاني الصربية، لا يوجد دواء في العالم أفضل منه

لهم، وأنت وحدك، يجب أن تأكل، لا تشرب فقط.. هل تعرف من كان يسألني عنك؟

جويان: من؟

دانيلو: رادومان.

عندما سمع اسم رادومان طفت الأفكار القديمة في رأسه، ولم تعد رشفة أو رشفتان من البراندي تنيمه، كما كان من قبل.

قال لنفسه:

– الثالثة منها ستخلدني إلى النوم بالتأكيد، وتسخين بدنه هذا أصابه بشعور جيد، ولكن جسده في حاجة إلى المزيد.. ومع كل كأس كان يريح جسده وروحه.

بعد الجرعة الأولى كان لا يزال مستيقظًا، إنه كان يشرب ليغمر صورة رادومان داخله؛ وليغرق جميع الجسور في باطنه؛ وليغسل كل الدماء داخله.. كان عليه أن يتغلب على كل هذا قبل أن يغلبه السكر ثم قام بعد ذلك.

وعندما غادر الجيش كانت « دراغتسا » من لوبوفيتش أول شخص نقب خلال كتل مسجد آلاجا الحجرية، وسرقت منه السجاد أثناء الليل.

وذات مرة – بعد منتصف الليل – استيقظ جويان من نومه، وخرج يحمل رشاشًا آليًا، وكانت تدور في نفسه أفكار.. كان يمشي ويسقط ثم يقوم مستندًا على جدران المنازل.. أخذ يترنح أسفل التل.. أراد الجري لأن الأفكار تحاصره كلما توقف.. كان النوم يغلب عليه، لكنه لم يظفر بنوم.. أخذ يترنح في الظلام وهبط أسفل الشارع، فوجد نفسه في حديقة مسجد آلاجا.

سمع صوتًا يناديه: تعال يا جويان.

سمع صوتًا آخر: تعال يا جويان.

سمع عديدًا من الأصوات: تعال يا جويان.

بدأ يسير نحو الأصوات.. شعر بأن أحدًا يكلمه، لكنه لم ير أحدًا حوله إلا نفسه، وتلك الأصوات.

سمع صوتًا أمامه: تعال يا جويان.

رفع رأسه ورأى أعمدة مكسورة على أنقاض مسجد آلاجا، وكومة من الأحجار البيضاء.

وقف وقفة الموت، حيث أضاء بياض الأحجار جوانب المكان.

سمع العديد من الأصوات: هل ترانا يا جويان؟

أجاب متخوفًا: أين؟

- لك عيون ولا ترانا!

ها نحن هنا: محمد..حمدى.. أدهم.. مويو.. حليم.. نحن أول من ذُبِحنا على يد رادومان، وأنت غسلت دماءنا!

جويان: مهمة رادومان في شق الحناجر سهلة..

- أنا اسمي « أدين ».. قطع عنقي المعلم ريستو.

جويان: من السهل قطع الحناجر.

- أنا عائشة، قطع حلقي أيضًا.

جويان: إنه من السهل قطع الحناجر.

- أنا ألماسا، وهذا صفوت، ماذا حدث لابننا ميروسلاف؟

جويان: لا أدري.

- أنا حامد المعالج بالأعشاب من جيجافو.

جويان: وأنت هنا أيضًا يا حامد.

- لماذا نحن غير موجودين يا جويان؟

جويان: أنتم موجودون، ولكن أنا لست موجودًا.

- ها أنت هنا..

جويان: وأنتم هناك الآن أنا أراكم.

- كيف أنت غير موجود؟

جويان: المرض أسوأ من الموت.

- أنا مصطفى كاشمو، لقد قطعوا حلقي، وحلق والدي.

صرخ جويان: الذبح أسهل من الغسل.

ثم صرخ بأعلى صوته: الذبح أسهل من الغسل، سيأتي ميانوفيتش؛ لينقذني يا رادومان،

إنه لا يزال على قيد الحياة، إنه ليس موجودًا في المسجد.. حدّث يا ميانوفيتش ماذا حدث على الجسر؟

كان جويان يصرخ: حدث!!

تراجع جويان إلى الوراء، وأراد أن يفر، لكنه أحس أن شخصًا ما وراء العمود الحجري.. لقد عرفه: إنه رادومان!! لقد أطلق عليه النار.فسقط على الأرض أمام رواق المسجد، وغرق في دمه.

وعندما أفاق وجد نفسه في الفراش، وحوله إيبيلا ودانيلو.. لقد كان مشهدًا حقيقيًّا وليس من خيالات مسجد آلاجا.

شعر بآلام في بطنه، ولم يستطع أن ينقلب على جنبه.. سمع دانيلو يقول:

- لقد جننت، وأطلقت النار على نفسك، لقد أخرج الطبيب رصاصتين من جسدك.. عليك الاسترخاء، ولا تشرب، ألم أقل لك يكفي كأسان.

نزل دانيلو إلى مسجد آلاجا، وبالقرب من الرواق رأى بركة من الدم المتخثر، وفيها رشاش جويان، ولكن لم يكن هناك رصاص فارغ.. ومن بعيد رأى العمود الحجرى، وعنده ظرف رصاص من رشاش أوتوماتيكي، وتساءل مستغربًا:

- هل يمكن أن يكون أحد قد أطلق النار على جويان؟

وفجأة انقلب شيء ما وراءه، فاستدار مذعورًا.. لقد انهار عمود حجري خلف رواق المسجد.. أصبح دانيلو خائفًا وأخذ يفر.. وفى اليوم التالي كان يجري في الغابات!!

أثبت تحقيق خبير من بلجراد أن أحدًا أطلق النار على جويان، وأن رصاصة واحدة لم تخرج من رشاشه.. ومنذ ذلك الوقت عينوا جنديًّا هو « ميلانوفتش » ليحرس حديقة المسجد، ليلَ نهارَ ولا يسمح لأحد بالاقتراب منها.

وفي الليلة السابعة من تعيينه، سُمع إطلاق للنار في الحديقة من جديد.. وجدوا « ميلانوفتش » مغمى عليه، ورشاشه لا يزال ساخنًا من أثر الطلقات.. لم يتحقق أحد من أين خرجت الطلقات، وبعد أن أفاق أخذ يشرح لضباط الشرطة الصربية ما الذى جرى:

- أربعة كانوا يسيرون نحوي.. أطلقت عليهم النار، لكنهم لم يتوقفوا، ولا أدري أين هم الآن!!

أعفي « ميلانوفتش » من الخدمة العسكرية، ومنذ ذلك الوقت ظلت الحديقة

بلا حراسة.. كان الجميع في انتظار نهاية لهذا.

لم ينته المطاف عند هذا الحدث..فكثير من الصرب كانوا يأتون إلى حديقة مسجد آلاجا سرًّا خلال الليل.. يقفون عند الجدران المدمرة يرمقون الأنقاض.

لم يحدث شيء، حتى أطلق النار على أنقاض المسجد « ميلون » العجوز.. تجمد الباقون من الخوف، ونظروا إليه.. اقترب « ميلون » إلى الجدار بهدوء وقال:

- ألماسا، وصفوت كانا يجلسان هنا!!

وفي وقت لاحق أطلقت النيران مجددًا في حديقة آلاجا بالليل.. فقد فاجأ الرجالَ الذين أتوا إلى الحديقة آخرون من الجانب الآخر، وبدافع الخوف أطلقوا عليهم النار.. وفي الصباح عثر على قتيلين من كتيبة النسور البيضاء.

صدر قانون بمنع الاقتراب من حديقة المسجد ليلًا، ومن يخالف ذلك يعرِّض نفسه لدفع غرامة.. لم يكن هناك حاجة لإصدار هذا القانون؛ فإن الجنود العائدين من حملاتهم الليلية كانوا يرمقونه من مكان بعيد، ثم يفرون.

سأل جويان نفسه:

- متى ستكون نهاية لكل ذلك؟

..وكانت زجاجة البراندي لا تفارق دانيلو... ولم يعد رادومان إلى فوتشا.

***

٢٢

استيقظ ستويان فوجد نفسه في معتقل المسلمين في « دوني بولي ».. هو يذكر جيدًا أنهم جاءوا به في الليلة السابقة.. كان في الحبس الانفرادي. غرفة صغيرة مربعة.. أرضيتها خرسانية.. وسقفها عالٍ.. شعر بمجرد استيقاظه بالبرودة.. أثرت حتى في الجدران البيضاء فاصفرت.. كانت البرودة تتصاعد من الأرض.

فرشت الأرض بحصير مغطى ببطانية رقيقة.. الباب الحديدي كاد أن يصل إلى السقف.. كان كل هذا لأسرى المعتقل!!

لم يكن النوم ممكناً لأسرى المعتقل في مثل هذا الحبس الانفرادي ذي الأرضية الإسمنتية، بحصيره المغطى ببطانية رقيقة، إلا إذا غلبته رائحة الرطوبة، أو أن تخدعه الحرارة من عظامه المحمومة.

لم يكن هناك عقاب أسوأ من أن يفقد الأسير وعيه تحت ركلات حراس المعتقل، ثم يلقى به على الأرض في الحبس الانفرادي، ويظل على تلك الحالة حتى تأكل الرطوبة بدنه فتتسلل إلى عظامه، وتحل محل حرارة الجسد الطبيعية، وذلك أول علامات المرض.. حتى أن أفضل المعتقلين صحة فقدوا صحتهم في ذلك الحبس الانفرادي، فضلًا عن كبار السن والمرضى.

ينبعث الضوء إلى « الزنزانة » من خلال نافذة صغيرة ذات شبكة تحت السقف.. كان ستويان يجلس على الحصير؛ فلم يستطع النوم بسبب البرودة.. وفي وقت متأخر من الليل كان يسمع صراخ المعتقلين.. لم يستطع النوم إلا في الصباح.

خاطب نفسه:

- إن كل ما قيل حول هذا المعتقل كان صحيحًا. ولكن ما الذي سيحدث لي؟

إنه يتذكر جيدًا أن جنودًا مسلحين جاءوا بالليل، حيث كان يوفان وستويانكا نائمين.. كان مستريحًا بعد عودته من عملية في « كوزيالوكا » فقد قتلوا فيها جميع من لم يستطع الهرب، وأحرقوا المنازل فيها، ثم أحرقوا المنازل في « باتويتسا » و « ليبوفتش » و « بوروفتش » و « دوني ليشتا » و « جورني ليشتا ».. في كل قرية قتلوا كل من فيها.

وفي هذه المرة رفض ستويان التوقيع على وثيقة تحويل النقود إلى حسابهم.. قال لهم: ها أنا أقتل، وأذبح باسم مملكة « دوشان »، أما أموالي فهي لي، وعندما أراد الانصراف،

قال له الضابط « دافيدوفتش » بحضور « أوستويا »:

- تعال إليَّ غدًا، سأجعلك قائدًا لمجموعة خاصة؛ لتنقبوا عن حمزة في الغابات.

حدث نفسه:

- هذا هو العقاب.. وإن لم تكن عقوبة، فليرسلوا رجلًا أكثر خبرة مني؛ فمن السهل عليهم أن يحاصروا المسلمين الذين تخلوا عن أسلحتهم، ولكن فليحاصروا حمزة.. لن أعطيهم أموالي ولو قتلوني.

لم يستجب ستويان للضابط « دافيدوفيتش »؛ ولذلك زج به في السجن.. في اليوم التالي فُتح الباب الحديدي للزنزانة الانفرادية.. وقف رجل ضخم، يكاد يملأ المدخل على عتبة الباب.

فوجيء ستويان عندما رآه، ويبس مكانه، بل أخذ يحدق إليه.. طويل القامة.. سمين البدن.. كبير الرأس، ينبثق من كتفيه كأن ليس له رقبة.. هذا العملاق كان يرتدي أكبر منه بدرجتين.. كان يبدو وكأن أحدًا يمزح معه.. جاء يحمل صينية في يديه مع بعض الخبز، وكوب شاي.. نظر أحدهما إلى الآخر، ثم تكلم الحارس:

- أعرف أنك لا ترفض محاربة الأتراك، وأعرف كل شيء، ولكن يجب عليك أن تعلم أن المعتقل ليس للأتراك فقط، بل فيه الصرب الذين رفضوا القتال.

يقول عنك السجناء: إنك جيد في ساحة المعركة، ولكنهم لم يقولوا لماذا جاءوا بك إلى هنا.. لا بد أن هناك أسبابًا سياسية.. ما اسمك؟

- ستويان.

- يسمونني بوري.

ارتعش ستويان : هذا هو بوري!! إذن أنا بين يدى بوري.. ذلك الضخم.. الرجل المفضل عند رجال الأركان، ومن أجله كانوا يأتون المعتقل في « دوني بولي ».. كان نيجو يتحدث عنه.. حتى النسور البيضاء تيمنوا به. هذا هو بوري، برأس كرأس الثور، ورقبة ملتحمة بقفاه، وبطن كبيرة، ويدين كبيرتين عملاقتين.. هذا هو بوري الذي أنعم اللّٰه عليه بالجسم، وسلبه نعمة العقل.. هذا هو بوري الذي يتحدث الناس عنه، وعن صنيعه بالسجناء منذ سنين.

كان السجناء يعتقدون أن وظيفة المدير هي تدبير الأمور، وأما وظيفة بوري – وقد

أنعم اللَّه عليه بالقوة - فتنفيذ ما يأمر به المدير.. فطالما أن بوري موجود، فلا خوف من عدم تنفيذ الأوامر؛ حيث كان بوري فخورًا بما يقدمه من خدمات بقوته.

إنه كان يعلم أن الجميع يخشونه، مما جعله يشعر أنه رجل مهم؛ ولذلك نسجت القصص عن قوته أحيانًا، وعن قلة رشده أحيانًا أخرى، وكثر فيه الكلام.

كان ستويان يضحك - في تشلبيش - عندما حكوا له كيف ذبح بوري ثورين باستخدام المنشار الآلي.. قالوا: إنه ربط الثور بشجرة الجوز، وقام بإدخال رأسه في شق الشجرة، وربطها بحبل متين، ثم أخذ المنشار واقترب منه قائلًا:

- سترى الآن يا ثور، كيف يجزر بوري؟!

انفجرت الدماء على بوري وكان الثور مناضلًا ولكنه لم يتوقف حتى أنفذ المنشار إلى شجرة الجوز.. كان مغطى بالدماء ونشارة الخشب.. انفصل جسده عن رأسه التي ما زالت مربوطة في شق الشجرة.. وعندما دخل البيت بمنظره هذا قال لأولاده:

- اذهبوا، وألقوا نظرة على الثور!!

كان بوري يعمل في ذلك المعتقل قبل الحرب، عندما كان يسجن فيه أولئك الذين ارتكبوا الجرائم، وكان هو الحارس.

كل القصص بدأت في تلك الأيام، عندما كان الجميع راضين نوعًا ما.. وبعد سماعه لتلك القصص كان يمشي مزهوًّا، رافعًا رأسه، وكان المدير راضيًا بالانضباط في السجن، بينما كان الأسرى يهزأون منه.

في ذلك الوقت كان هناك رجل معروف بمكره وهو من « فيشا جراد » يحاكي بوري، حتى في حديثه، مما كان يضحك جميع السجناء.. كان بوري لا يبالي بهذا الاستهزاء؛ لأن الجميع كانوا يسكتون عندما يمر بأروقة السجن، الأمر الذي كان يجعله يزهو بنفسه.

بوري، لا يتكلم كثيرًا، لكن السجناء كانوا يتذكرون كل كلمة يقولها، وينقلونها إلى ذلك الرجل من « فيشا جراد » الذي كان يكتبها في أوراق، كان معروفًا بين السجناء أنه يدرس في المدرسة الليلية؛ ليحصل على شهادة لمحو الأمية، بينما كان العديد من المعتقلين ممن حصلوا على شهادات جامعية عليا، ولكنهم لم يترددوا في مناداة بوري برئيسهم، حينما كانوا يعملون في موقع البناء، وهو يوبخهم قائلًا:

- اعمل يا ثور! لم تكن تذاكر!

كان السجناء يضحكون من هذا، بينما كان ذلك الرجل من « فيشا جراد » يكتب على أوراقه، وكان في نهاية العمل يصفهم ويرافقهم إلى المعتقل، وحينما يمر بالبلدة يرفع رأسه فخورًا بوظيفته، يريد أن يكسب احترامًا أكثر من سكان فوتشا، وأن يقال: إن السجناء يطيعونه.

ذات مرة استطاع أحد السجناء - وهم في طريقهم إلى السجن - أن يفر ويتسلق أعلى شجرة طويلة للتوت قرب السجن، وبينما هو في أعلى الشجرة، هددهم برمي نفسه منها إن لم يأتوا له بمدير السجن.. طلب زيارة أهله لبضعة أيام، واجتمع حوله سكان فوتشا ليروا ماذا سيحدث؟ كان الجميع في انتظار أن يفعل بوري شيئًا، أو أن يأتي مدير السجن.. لكن بوري لم يكلمه، بل واصل سيره وذهب إلى بيته، وبعد قليل عاد وهو يحمل منشارًا آليًّا.. سكت الجميع كأن على رءوسهم الطير.. ماذا سيحدث؟!

وقف بوري تحت الشجرة، وأخذ نفسًا عميقًا، ورفع المنشار، ونظر إلى السجين، ثم قال:

- انزل إلى أسفل، وإلا أنزلتك بمعرفتي!!

كان الجميع يعرفون أن بوري لا يمزح، فبمجرد أن فتح المنشار الآلي قفز السجين من على الشجرة.. الجميع كانوا راضين: المدير، والسجناء، وأهل القرية، وبوري.

وفي مناسبة أخرى، رص السجناء قطعًا من الطوب المكسور، وأوهموا أنه سليم، وبدأوا يمارسون حركات « الكاراتيه » لكسر الطوب، وبوري ينظر من بعيد كان وراء كل ذلك الماكر المخادع من « فيشا جراد »، الذي لم يهدأ خلال كل السنوات التي قضاها في السجن، فكان الواحد منهم يكسر قالبي طوب بضربة واحدة، أما ذلك الماكر فقد كسر ثلاثة في آن واحد.

كان السجناء يعلمون أن بوري يراقبهم، كانوا يقطعون الحجارة كما يقطعون لوحًا من الفلين.. كانوا يتصايحون كلما كسروا الطوب، وكان ذلك الصياح مسموعًا من مبنى الإدارة، ولكن أحدًا لم ينزعج بذلك الضجيج.

أحب بوري أن يغتنم كل فرصة لإظهار قوته أمامهم، فلما رأى أن الماكر من« فيشا جراد » قد كسر ثلاثة قوالب من الطوب بضربة واحدة احمر وجهه من الغضب، ثم رفع يده مشيرًا إليهم، وصاح من الطرف الآخر من السجن:

- قف.. قف..!

وقف الجميع خائفين؛ لأنهم لم يسمعوا من بوري مثل هذا الصراخ منذ وقت طويل.. كانوا يتوقعون شيئًا، وكانوا يخشون أن يكتشف بوري خدعتهم؛ فيسجن أحدهم بسبب ذلك في السجن الانفرادي.. أسرع بوري غاضبًا مشيرًا إلى الرجل الذي من « فيشا جراد » وصرخ:

- أفسحوا لي المكان، فإن استطاع هذا الهزيل كسر ثلاثة قوالب من الطوب، فأتوني بأربعة منها، فسوف ترون كيف يسحق بوري الطوب.

ساد الصمت.. حتى كأنك تستطيع أن تسمع دبيب النمل.. انتظر الجميع ليروا ماذا سيفعل، أول من بدأ بالخدعة الرجل من « فيشا جراد »، وسار نحو كومة طوب غير مكسور، بينما تجمد باقي السجناء من الخوف، ووقفوا في دائرة منتظرين، وتركوا الأمر للماكر من « فيشا جراد »، ومع أنهم كانوا يريدون فعل شيء إلا أنهم كانوا يخافون من عواقبه.

صرخ بوري صرخة شديدة، أحس موظفو السجن على إثرها أن شيئًا ما على وشك الحدوث؛ فخرجوا من مكاتبهم ليروا ماذا يجري في ساحة السجن.. أقام الماكر أربعة قوالب، ثم اختلط مع باقي السجناء.. كان الجميع ينظر إلى البطل بوري.. أراد بعض السجناء منعه من ذلك، ولكن هذا هو ميدان بوري، فكيف يثنونه عن ذلك؟!

كان أكثر شيء يسعده في حياته هو إظهار قوته كلما أتيحت له فرصة، ولن يسمح لنفسه أن يفوته هذا السباق بأي ثمن.. وإن بقي شيء من الذكريات في الأزمان السابقة من حياة بوري، فهو عندما عرض قوته وتحدث عنه الناس.

احمرَّ وجهه من الغضب، واقترب من الطوب، ثم أخذ نفسًا عميقًا حتى يتسع صدره؛ مما جعله يبدو أكبر مما كان، ثم رفع ذراعه اليمنى دون أن ينطق بكلمة، وتنفس نفسًا عميقًا آخر يشبه جلادًا في الساحة ثُم صرخ محركًا يده نحو الطوب بأقصى قوته؛ فكسر الطوب كله، لكنه أنّ أنينًا يشبه أنين الدب.. أمسك يده اليمنى، وأسرع نحو البوابة.. اندهش جميع الموظفين، ثم أسرعوا نحوه، بينما أسرع السجناء إلى زنازينهم، ثم نقلوه إلى المستشفى بسيارة السجن.

أسفرت الأشعة الطبية عن كسر عظمتي ذراعه كلتيهما.. بقي بوري في الجبس في المستشفى أربعة أيام، وعندما زاره السجناء في المستشفى سألهم:

- هل حطمت كل الطوب؟

- نعم حطمتها!

وعندما ظهر بوري في ساحة السجن بذراعه المكسورة، خرج جميع السجناء لتهنئته على النجاح.

تقبل بوري تهنئتهم بعجرفة، وعندما وصل إليه ذلك الماكر قال له بوري:

- أنت لست هزيلًا بعد كسرك لثلاثة قوالب.

لم يكتشف أحد خداعهم، ولم يبح السجناء بذلك لأحد، ثم نقل السجناء جميع الطوب إلى جوار الجدار الذي كان يجري بناؤه بالقرب من المبنى الإداري.. وبعد شهر اكتشف أمرهم، وعند ذاك لم يستطع أحد أن يوقف غضب بوري، إذ أخذ يركل ويدوس على الماكر من « فيشا جراد » انتقامًا منهم، بينما هم مستلقون على الأرض.

لم يستطيعوا عدّ ما تكسر من عظامهم، ولم يخرجوا إلى ساحة السجن من كثرة الآلام عدة شهور، وكان أول من استجمع قوته الماكر من « فيشا جراد » فظهر في ساحة السجن، وتجمع السجناء حوله، يرغبون في حديثه، لكنه التزم الصمت، إلا أنهم أصروا.. كانوا كلما خرجوا إلى ساحة السجن انتظروا حديثه.

وذات مرة اختلسوا الخطى من حوله، حينما كان يستنشق دخان سيجارته..أخذ نفسًا عميقًا، ورفع رأسه على طريقة بوري، ثم صاح بصوت قوي:

- إن استطاع ذلك الهزيل تحطيم الثلاثة، فأتوني بأربعة منها!

انفجر الجميع بالضحك، وتبدل حالهم كأنهم كانوا يترصَّدون تلك اللحظة، ولم يسمحوا بفواتها.

ارتجَّت ساحات السجن بضحكهم، حتى خرج جميع الموظفين على الشبابيك.. هذه أول مرة يضحكون فيها بعد تعذيب بوري، ولم يكترثوا بالآلام التي في أجسادهم والتي كانت تذكرهم بغرفة لها باب حديدي، فالعبارة التي قالها كانت منتظرة من نفوسهم، وأجسادهم المعذبة، بينما كانوا يتجولون في الفناء صامتين، مكتئبين، وهذا هو سبب اجتماعهم عدة أيام حوله، ومن تلك اللحظة خرج السجناء عن كربهم.

في هذا السجن كان هذا هو السبيل الوحيد لبقائهم أحياء.. كان السجناء في حاجة إلى بوري، وكان هو في حاجة إليهم.. استلقى اثنان على قفاهما من الضحك كالأطفال،

بينما كان البعض الآخر يقومون ليأخذوا نفسًا، ثم ينهارون في الضحك مرة أخرى.. كانوا يترجَّونه:

- قلها مرة أخرى.. باللَّه عليك.

- قلها مرة أخرى.. وسوف يعطيك كل واحد منا سيجارة.

- حسنًا، اجمعوها.

وحينما بدأ الجميع يبحثون عن السجائر في جيوبهم، قام الرجل من « فيشا جراد » وأخذ نفسًا عميقًا ورفع رأسه، وقال:

إن استطاع ذلك الهزيل تحطيم الثلاثة، فأتوني بأربعة منها!

حيث كان بوري ينظر إليهم عابسًا من مسافة بعيدة، ولا تزال ذراعه اليمنى في الجبس.

* * *

كان هذا في الأزمان الماضية، أما الآن فقد أمر رجال الأركان بوري الذي يزن مائة وخمسين كيلوغرامًا أن يدوس الأتراك داخل الزنازين الانفرادية، ومن أجله كانوا يأتون إلى المعتقل، وكلما جاءوا إليه بأسير تركي قال له:

- ارقد على الأرض لتذوق من بوري سحق العظام.

وفي اللحظة التي كان يقوم فيها بوري بكسر عظام السجناء، كان رجال الأركان يضحكون بملء أشداقهم:

- هذا هو بوري.

- تبلي بلاءً حسنًا.

- فليذق « باليا » تحطيم العظام منك.

كان رجال الأركان معجبين ببوري جدًّا، حتى إنهم لم يلتفتوا إلى صراخ السجناء، وتعذيبهم، بل كانوا ينظرون فقط إلى بوري، وهو يطيع الأوامر بجدية، ولو أمر أن يهاجمهم بالمنشار الآلي لفعل، ولم يتردد مثلما كان يذبح الثور بالمنشار.

كان رجال الأركان يتلذذون برؤية نشاطه في تحطيم العظام، وينحازون إليه في أي مشكلة؛ لأنهم كانوا يشاهدون بين أيديهم شخصًا أحب - حقًّا - وظيفته. كانوا كلما سمعوا أن بوري في زنزانة انفرادية انفضوا إليه، وتركوا ضباطهم، ولم يسمحوا لأنفسهم

أن يفوتهم هذا المشهد.

كان الأتراك يستلقون على بطونهم على الأرض في زنزانة كبيرة، وينطلق بوري يجري من الممر إلى الزنزانة، ويقفز من عتبة الباب بكل قوته عليهم، ويقوم على قدميه فورًا.

بعد كل قفزة كان يتبعها صراخ مروع، وهذا كان يحفزه إلى المزيد، إنه أراد أن يُعرِّف الجميع ما الذي يمكن أن يفعله بوري.. ومن شدة الآلام كان السجناء لا يستطيعون رفع رءوسهم، أو أن يأتوا بأي حركة، ثم يتوقف، وقبل مغادرته يقول:

- هذه طريقة بوري في سحق العظام.

في بعض الأحيان كان بوري يذهب إلى غرفة الحراس، في محاولة للابتعاد عن رجال الأركان؛ لأن كل ما يقوم به كان فعله وليس فعلهم، أو يذهب إلى مكتب صغير ليس فيه أحد، وهناك كان يقعد صامتًا، ويعاني وحده، فإن أكثر شيء كان يضايقه هو صيحات رجال الأركان حينما كان يؤدي عمله، ولا أحد يستطيع منعهم من دخول الزنزانة الانفرادية.. كان يقوم بوظيفته متبرعًا، لكنهم كانوا يستهزئون، ويتمتعون بها.

***

٢٣

خاطب ستويان نفسه:

ـ إذن هذا هو بوري.

ستويان: كم من الوقت سأمضيه في الحبس الانفرادي؟

بـوري: ماذا تعني؟

لا يبقى الصربي في زنزانة انفرادية أكثر من يوم، أو يومين.. الصرب الآخرون الذين رفضوا قتال الأتراك ليسوا في زنازين انفرادية، بل زنازينهم مريحة كالشقق، يتجولون في المعتقل، بل باستطاعتهم زيارة مدير المعتقل « ميشو ».

ستويان: وماذا عنِّي؟

بـوري: أمر سياسي تعرفه أنت أفضل مني.

ستويان: أمضي النهار داخل هذه الزنزانة، وبالليل أسمع الصراخ، فكيف أنام في تلك الظروف؟

بـوري: لا ينبغي عليك أن تنام.

ستويان: ماذا تعني؟

بـوري: الجميع في هذا المعتقل في انتظار الظلام، ونحن نعيش خلال الليل!

ستويان: خلال الليل!!

بـوري: تمامًا مثل تلك الأفلام.. يستيقظ مصاصو الدماء أثناء الليل، ويريقون الدماء.. يسمونهم « صوهارين »، وعملهم إراقة الدماء بالليل.

جلب بوري معه حساءً ملفوفًا:

- لا تشكو من الطعام، هذا هو الطعام الذي يقدم في الزنزانة الانفرادية.

ستويان: لا أشكو الطعام.

بـوري: هذا النوع من الطعام سيجعلك نحيفًا.

ستويان: هو يغذي جلدي وعظامي.

بـوري: هذا أنا أقوله للأتراك، وفي غضون شهر لا يبقى منهم إلا الجلد والعظام.

هل سمعت عن باتك؟

ستويان: هل هو مسلم؟

بـوري: نعم هو تركي!

كان ضخمًا مثلي، والآن لا يزيد وزنه عن أربعين كيلو غرامًا.

ستويان: أنتم تقدمون لهم كسرة خبز وحساء كرنب، دون كرنب.

ولكن ما الذي سيحدث معي يا بوري؟

بـوري: سوف يخلي سبيلـك لأنك كنـت تقاتـل الأتـراك، وهـذا هو أهـم شيء.. ما الذي فعلته؟

ستويان: لم أفعل شيئًا!!

بـوري: كيف لم تفعل شيئًا؟

ستويان: لا شيء.

بـوري: إذن هو أمر متعلق بالسياسة.. بعد مشاوراتهم سيعلموننا ماذا علينا أن نفعل بك؟ لكن اسمع يا ستويان، إنهم أرسلوا إليك كرات القطن هذه.. فحبسك بجوار الجسر، وفي هذه الليلة يستيقظ مصاصو الدماء.. إن كنت تنوي النوم، فضع هذه الكرات في أذنيك.

أخرج بوري من جيبه كرات قطن تكفي لتغطية رأسه كله. لم يستطع ستويان أن ينسى « مصاصي الدماء » الذين ذكرهم بوري.. سأله:

ستويان: كيف لا تسأم من هذا؟

بـوري: اسمع يا ستويان أنا أحب القيام بهذا، وقد كنت أفعله قبل التمرد، ألا ترى أن الجميع في حاجة إلى خدماتي، ويتحدثون عني؟ أنا أعيش حياتي يا ستويان لا يهمني شيء آخر، وهذه أفضل أيامي، فمهمتي تكسير عظام الأتراك، وهذا ليس أمرًا، ولكن لا تسأل أحدًا هذه الأسئلة، أنا أرى أنك هنا بسبب السياسة، أنصحك أن تكون حذرًا.

استيقظ ستويان بالليل على طلقات من الرشاش الآلي، والصراخ، فأراد أن يضع القطن في أذنيه، لكنه رماها خلف الباب، وسرعان ما نهض على قدميه.

رفع الحصير وأسنده على الحائط باتجاه النافذة، وعندها سمع ارتطامًا بالماء في نهر درينا، وطلقات نارية متتالية، ثم ارتطامًا بالماء.. كان من الصعب عليه أن يتسلق بواسطة الحصيرة؛ لأنها كانت تنطوي، لكنه أمسك بقضبان النافذة، وقد رأى تحته جسر جيليزني، لقد رأى أسرى المعتقل يصطفون في طابور يمتد من البوابة الرئيسية للمعتقل

إلى منتصف الجسر، مكتوفي الأيدي، يحرسهم مسلحون، أخذوا يطلقون النار في السماء، إنها نفس صورة جسر « برود »!!

جنديان يقفان في منتصف الجسر: وأحدهما يمسك سكينة كبيرة، وتغطيه الدماء، والآخر يمسك رشاشًا آليًا..

.. يتوسل السجناء:

- لا تفعل بالله عليك يا « تاشو »!

صرخ الحراس، وهم يطلقون النار فوق رءوسهم:

- اخرسوا « باليا ».

- من فضلك يا « زوكا » لا تفعل.

- اخرس يا باليا.

تحرك الطابور إلى الأمام:

- هيا يا رامز، وليأت معك أخوك.. كان زوكا يشير إليهما برشاشه الآلي.. تحرك رامز نحو زوكا ببطء:

- زوكا أيها الصديق لا تقتلني!!

- هيا.. هيا.

وفجأة ضربه زوكا بكعب بندقيته على رأسه فأسقطه على الأرض باتجاه سور الجسر، ثم أخذه تاشو من رأسه ورفعها، وطعن سكينته الكبيرة في عنقه.. انبجست الدماء على« تاشو » لكنه لم يعبأ وأخرج السكينة بسرعة، وأخرج بها حنجرته، ثم أخذه وهو يتحشرج فأطلق زوكا عليه النار.. ثم جاء أحد الحراس ودفعه في النهر عبر الجسر.

وحينما كان هؤلاء يذبحون، كان المعتقلون يبكون ويشيحون بوجوههم عن ذلك المشهد، أما الذين كانوا في وسط الجسر فقد كانوا في حشرجة الموت، لكن أصواتهم لم تكن مسموعة بسبب إطلاق النار.

لاحظ ستويان أن الحراس قاموا بتشغيل السيارات حتى يتغلبوا على أصوات الصراخ.. خاطب نفسه:

- رأيت رادومان يذبح مثلهم في برود بالقرب من فوتشا عندما أحرقنا « جيجافو ».

اقترب سجين آخر:

- زوكا، أيها الصديق، لقد قتلتَ أخي لا تذبحني أنا..

- أنت ستصبح مثله يا سليم، أنا أعرفكم جميعًا « باليا ».. اقترب إلى هنا.

- هيا اذبح !!

- اركع.

فلما ركع سليم انحدر « تاشو » إلى أسفل ووضع السكين في رقبته، وفي لحظة أصبح سليم في حشرجة الموت، وسقط في وسط الجسر.

بدأ المعتقلون الآخرون في الصراخ، وأخذ الحراس يطلقون النار مرة أخرى، وتعالى الضجيج من محركات السيارات.. دفع زوكا رشاشه في ظهر سليم، وأطلق عليه النار، وأشار إلى الحارس بدفع جثته إلى النهر.. وسمع ستويان صوت ارتطام بنهر درينا.

نزل ستويان من النافذة، ووضع الحصير في الجانب الآخر من الزنزانة، وحشا أذنيه بالقطن، ورقد.. لكن النوم لم يطاوعه.

كان ستويان مديرًا ناجحًا لشركته، والآن هو في صربينيا كما يسميها الصرب فوتشا سابقًا.. خاطب نفسه:

- يا إلهي! هل نحن الصرب فقدنا عقولنا.. في جميع أنحاء العالم يحاول الناس التقارب، ويسعون من أجل تحقيق الازدهار الاقتصادي، لكن الصرب وحدهم يريدون العيش في مملكة دوشان، والعصور الوسطى، وبدلًا من التوجه إلى عصر المعلومات يريدون مملكة دوشان التي كان أثرى رجل فيها هو من يملك أكبر مساحة من الأرض.. لن تنفعهم أراضي المسلمين الآن.. من أجل عودتهم إلى مملكة دوشان عليهم قتل جيران؛ لأنهم ليسوا على دينهم.

يا إلهي! هل فقد الصرب عقولهم؟ كيف سيعيشون في مملكة دوشان وحدهم؟ كيف سيعيشون مما سرقوه من جيرانهم؟ أين مصانعهم؟ أين رجالهم الناجحون في الإدارة؟

على مدى عشرين سنة، استطاع توسيع شركته وتطويرها، ومن ثمرة ذلك التطوير أنه يستطيع الاستراحة لعدة شهور، فعلى الرغم من غيابه فإنه يكسب مالًا كثيرًا.

ومن أجل أن يصل إلى هذه المكانة، كان يعمل ست عشرة ساعة يوميًّا لعدة سنوات، والآن قد حقق رخاء في الوقت والمال، وشركته تعمل دون حاجة إلى وجوده.

كيف يعتزم الصرب العيش عن طريق السلب والنهب؟ لو حاولت الفرار سيمسكون بي ويقتلونني على جسر جيليزني.. أين المفر؟ تذكر حمزة الذي فر مع رفاقه إلى الغابة، واختار القتال على الجسر.

استيقظ ستويان عند الفجر، ونظر نحو النافذة، ورأى ستة حراس يغسلون ألواحًا خشبية بالفرشاة على الجسر.. وكانوا يضيفون المنظفات.

جاء بوري في الصباح:

- انهض يا ستويان.. قد حصلت على غرفة في فندق!

ستويان: ماذا؟

بـوري:انتهى الحبس الانفرادي، والآن أنت حر.

ستويان: أنا حر.

بـوري: نعم، يمكنك التجول في ساحة السجن، والزنازين الأخرى، وفعل أي شيء إلا الخروج من البوابة الرئيسية بدون إذن، تمامًا مثل الصرب الآخرين في هذا السجن.

ستويان: ومتى أغادر الزنزانة.

بـوري: الآن.

نهض ستويان، وبدأ يمشي وراء بوري، وفي نهاية الممر الطويل غرفة نظيفة فيها سريران، ومنضدة، ودولاب.

بـوري: هذا هو سريرك، لديك كل شيء.. هذه ليست زنزانة.. لا أحد يغلق الباب، وهذا سرير دراجن، إنه لن يذهب إلى القتال، وهناك مطبخ لتصنع الطعام إن شئت.

ثم ولّى بوري، وانصرف.

ستويان: لماذا أنت مستعجل يا بوري.

بـوري: أنا أذهب إلى النوم، لينوب عني آخر.

ستويان: كيف كانت الليلة الماضية؟

بـوري: لا يسأل عن مثل هذه الأمور.

وفي تلك الليلة شنق « يوسو جماليا » من « تباك » نفسه في الزنزانة الانفرادية.. أخرج حزامه، وربطه في ماسورة المبرد تحت السقف؛ فقد كانت زنزانته تواجه جسر جيليزني.

كما توفي « أسد جوجيتش »، فقد انفجرت قرحته، ورفض الحراس إحضار الطبيب له.

كما جاء الحارس « كيلي » إلى العنبر الكبير، وأخذ « زولفو »، ثم سُمع إطلاق وابل من الرصاص.. لم يرجع « زولفو » إلى العنبر مرة أخرى، وفي اليوم التالي قال « كيلي » للمعتقلين: إنه تم نقله إلى معتقل آخر!!

وفي العنبر رقم (١٦) جُن « آتسا » وأخذ يصرخ:

- باسم الشعب، ووفقًا للمادة (١٢) من قانون الجنايات حكم بالسجن مدى الحياة على: « رادوفان كاراديتش » و « فوييسلاف ماكسيموفيتش » و « فيليبور أوستيويتش » و « بليانا بلافتش »، ويبدأ تنفيذ هذا الحكم خلال أسبوعين من تاريخه، والتهديد بضرورة إنفاذ الحكم.

تكلم « آتسا » كأنه كان قاضيًا؛ لأنه حكم عليه عدة مرات من قبل.. اقتاده الحارس « كيلي » إلى الحبس الانفرادي.

وخلال تلك الأيام جلب الجنود الصرب مجموعة من المسلمين، قبضت عليهم الشرطة في: « الجبل الأسود » و « ألسين » و « بار » و « هرسك نوفي » و « بود جوريتسا ».. إنهم حاولوا الفرار!

اقتادهم الحراس إلى العنابر، وعرفهم السجناء في المعتقل: « عصمت.. نجيب.. ثابت.. راسم.. مشا... »، كان بعضهم من: « جورشدا » و « سريبرينيتسا » و « تشايننيشي ».

نقلتهم شرطة الجبل الأسود إلى منطقة « بلوجينا »، ووضعوهم في حافلات تابعة لـ « فوتشا ترانس ».

قبضوا على راسم في « بودجوريتسا » في الجبل الأسود، وضربوا « مشا » لأنه كان عضوًا في الحزب الإسلامي، وقتلوا محمد شاكر في طريقهم إلى المعتقل بسبب اسمه.

وفي الجبل الأسود كان « شومار » - واحد من فوتشا - يمشي في الشوارع، وكلما عرف أحدًا من جيرانه السابقين (المسلمين) أبلغ عنه.

دفن الصرب شقيقه « ستويانوفيتش »،وقُتل الضابط الصربي « جولو يوفيتش » عند « بريليتش »، فأخذ الصرب ينتقمون من أجل موتاهم.. كانوا يقتلون النساء، والأطفال في أحياء: « شودر المحلة » و « كريفايا » وفي قريتي « شوبا » و « شولسي ».

وفي الليل أخرج المسلمون الذين قبض عليهم في الجبل الأسود على جسر جيليزني..

لم يستطع أحد النوم في العنبر.. كان الحراس أيضًا يأخذون المعتقلين إلى الجسر بالقرب من مطعم « ربا رسكي ».. وفي الصباح رشوا الإسفلت بالبنزين، وأضرموا فيه النار؛ فاحترقت الدماء، وتحول الإسفلت إلى اللون الأسود.

كان المعتقلون يسقطون – أحيانًا – على دوي الانفجار.. فقد فجر الجنود الصرب – الذين كانوا في حالة سكر – ما بقي من مساجد، وقاموا بتطهير عرقي لـ« صربينيا ».

وإذا كانت هناك خسائر بشرية في « خورشدا » من جانب الصرب، أتى جنود الصرب إلى المعتقل؛ لمقابلة بوري، وحضوه على الأتراك ليشتد عليهم.

ومن جميع الزنازن الانفرادية، يأخذ رجال الأركان عددًا من الأتراك، ويقتادونهم إلى جسر جيليزني.. كانوا يبدأون هذه العمليات في السادسة مساء، وينهونها في منتصف الليل.

شتم.. وضرب.. وصراخ.. واستغاثة.. وخوف.. ثم سكون غريب!!

في العنابر كان يجري حديث عن « توتا » الذي اتفق مع المسلمين أن ينقلهم إلى « نكشج » مقابل المال، وصدقه كثير، لكنه بعد أن نقلهم عند « تشبيان بولي » قتلهم، وذبح أسرة « كلابوه » فقتل منها: « حسين » و « فريدة » وابنتهما « سينا »، ثم قتل « زينة أفضلتش » وابنيهما: « عصمت » و« معمر ». كما قتل الخياط « يوسو أجانوفيتش » وزوجته راضية على يد « دراجن نيكوليتش ».

كان الحديث يدور في المعتقل أن « أوستويا » و« ماكسيم » لعبا برأس « فهيم شاهوفيتش » الكرة!!

ركل ماكسيم الرأس المقطوعة نحو أوستويا:

– احذر يا حارس المرمى!!!

كان « عثمان كونوفاتس » أصم..أبكم، أتوا به من « جرابك » إلى المعتقل؛ حيث سار من « جوراشدا » إلى « جرابك » بحثًا عن الطعام، وعندما قبضوا عليه ضربوه لمدة ساعتين، وعثمان صامت لا يتكلم.. سألوه عن عدد الأتراك الذين يدافعون عن « جوراشدا »، وعثمان ينظر إليهم دون أن يتكلم؛ فانهال عليه اثنان من الصرب بكعوب بنادقهم كي ينطق، ويخبرهم عن المعلومات، لكنه بقي صامتًا.

اقتادوه إلى معتقل فوتشا، وقد بدت عليه آثار اللكمات.. قال أحدهم:

- سوف يتكلم عند بوري.

كان عثمان ملقًى على الحصير، عندما أتاه بوري وستويان.. وبمجرد دخوله صرخ فيه بوري:

ـ قم! ألا تتكلم، أنت الآن في يد بوري.. قم! قم على رجليك، يا ابن الفاجرة!!!

كان عثمان مستلقيًا على الأرض ينظر إلى بوري، وبوري ينظر إلى ستويان.. تراجع بوري بعض الخطوات، وقفز على عثمان ثم ضربه برجليه وهو في الهواء على رأسه، ولم يوقفه إلا الجدار.

كانت الدماء تتدفق من فم عثمان، وأنفه، وغطى رأسه بيديه.. انحنى بوري فوقه:

- سوف تقوم يا عثمان.. سوف تقوم.. سترى شدة ضربات بوري.

ثم توجه إلى ستويان قائلًا:

- جميعهم يرفضون الكلام، ولكن تحت تعذيب بوري يبدأون في الحديث، سترى كيف يتحدث دون سكوت.. فقط بعدما يفيق.

- قم يا عثمان! لا تريد؟!

اشتاط بوري غضبًا، وألقى بكل ثقله على عثمان، ومع كل قفزة كانت ضلوع عثمان تتكسر.. كان عثمان يُتَهْتِهُ فقط، ثم أغشي عليه، وكان بوري لا يزال يقفز عليه:

- سوف تقوم يا عثمان على قدميك!!

حتى لو كان قادرًا على سماعه فإنه لم يعد قادرًا على القيام؛ لأنه قد مات.. لم ينطق حتى عند بوري!!

ظل بوري يقفز على عثمان حتى أنهكه التعب، وبعد منتصف الليل لف الحراس عثمان في بطانية، وألقوه في نهر درينا.

عرف ستويان من الحراس الآخرين أن عثمان كان أصم، أبكم، وقد عرفوا هم ذلك من المسلمين المعتقلين، وفي المساء لاحظ ستويان بوري الذي مر أمامه دون السلام عليه.

ستويان: عثمان كان أصم أبكم!

بـوري: من كان يعرف ذلك حينذاك.

ستويان: هل تشعر بالأسى من أجله.

بـوري: أنت تذهب للسياسة مرة أخرى يا ستويان، لو لم يكن أصم، ولا أبكم؛ لتكلم ولو تكلم ما أبقيته حيًّا.. ابق بعيدًا عن السياسة يا ستويان.

لم يكن رجال الأركان حاضرين عندما كان يقفز بوري على عثمان، ولكنهم سمعوا من الآخرين أنه كان يقفز على أصم أبكم.. قالوا فكهين:

- لو كان أصم أبكم سبعين مرة، فعليه أن يتكلم عند بوري.. لو عاش فترة أطول ربما بدأ في الحديث.

* * *

٢٤

كان معسكر المسلمين في الضفة اليمنى من نهر درينا في « دوني بولي»، وعندما كانت هذه البلدة تسمى « فوتشا » كان هذا المعتقل سجنًا مشهورًا يتحدث عنه على نطاق واسع.

خلال الحكم: النمساوى الهنغاري واليوغسلافي، كان هذا السجن سكنًا للجيش، ثم تحول بعد ذلك إلى سجن، وعندما كان رجال السياسة يزورونه كانوا يعتقدون أنهم في أحد المصانع؛ لأنه يتم تصنيع الأثاث في المبنى الكبير في ساحة السجن، وكذلك يعمل أصحاب المهن المختلفة، كلٌّ حسب حرفته؛ ولذلك لم يكن لديهم وقت حر كما في السجون الأخرى.

السجناء الذين يتمتعون بعلاقات خارجية فقط هم الذين يستطيعون الهروب منه، بينما يضطر الآخرون إلى العودة بأنفسهم.

ذات مرة فر سجينان من منطقة العمل، ولكن الشرطة قبضت عليهما في إحدى الحانات بالقرب من « أوستيكولينا » وهما يرتديان الملابس المدنية، ولم يجد رجال الشرطة صعوبة في القبض عليهما؛ لأنهما كانا مخمورين، وكانا لا يريدان الهروب فعلاً، بل اشتاقا إلى شرب الخمر مع سكان « أوستيكولينا » الذين اشتهروا بشرب الخمر في الحانات على نهر درينا.

أرادا أن يسكرا حتى ولو أمضيا السنوات بعدها في الحبس الانفرادي.. جلب لهما صاحب الحانة الملابس المدنية، وبعدما سكرا، وأنفقا جميع أموالهما، اتصل بالسجن، وعندما وصلت الشرطة صوبوا أسلحتهم نحوهما؛ فنهض السجينان رافعي أيديهما، ومشيا خارج الحانة حيث كانت سيارة السجن تنتظرهما.. ودَّعهم صاحب الحانة كما يودع زبائنه الدائمين.

وقبضت شرطة السجن على اثنين آخرين في غابة أعلى « تشيلوفينا »، فقد تعرفت عليهم الكلاب البوليسية، لأنهم ضلوا طريقهم في الغابة، فلما سمعوا أصوات الكلاب تسلقوا الشجرة وانتظروا.

وذات مرة هرب أحدهم من منطقة العمل، وصعد جبل « كومور » واختبأ عدة أيام في غار، وبعد أن أحس بالجوع خرج، وطلب طعامًا من غلمان كانوا يرعون الأغنام، فانطلق أحد الغلمان إلى بيته ثم رجع ومعه حارس الغابة فقبض عليه.

كان هذا مصيره ومصير كل من حاول الهروب؛ فقد كان المعتقل معروفًا بصعوبة

الفرار منه، فلم ينجح في الفرار إلا من كان له شركاء يزورون له الأوراق ليعبر حدود البلد إلى بلد آخر، وهؤلاء كانوا يحترفون السرقة فيؤول بهم الحال إلى سجن فوتشا، لكن أمثال هؤلاء المجرمين لا يمكن أن يبقوا في مثل هذا السجن.. حصل مدير السجن على معلومات عن جرائمهم وهروبهم، وتمت التدابير بينه وبين رجال المدينة ليتم الإمساك بهم.. والآن أصبح هذا المكان معتقلًا للمسلمين.

كان محاطًا بجدار ارتفاعه خمسة عشر قدمًا، فوقه ثلاثة أقدام من الأسلاك الشائكة.. لم يكن تسلق الجدار والأسلاك الشائكة أمرًا خطيرًا، لو لم يكن هناك أبراج المراقبة.

كان طولها ثمانية عشر قدمًا فوق الجدار، في خمسة مواقع مختلفة من أنحاء السجن جميعها، وكانت كل جدرانها من الزجاج؛ لتتيح للحراس مراقبة الساحة من السجن حتى غابة « تشيلوفينا »، ويمتد النظر إلى جسر جيليزني فوق نهر درينا، وفي كل منها أربعة حراس، كل يراقب جهة، وأثناء الليل يفتح الحراس الكشافات المتحركة، التي تضيء المعسكر وجميع الطرق المؤدية إليه، من ناحية « تشيلوفينا » وبلدة « فوتشا » و« المستشفى » وجسر« جيليزني ».. كل ذلك كان يذكر ستويان بما شاهده في الأفلام الأمريكية.

خاطب ستويان نفسه:

- من يجرؤ حتى على التفكير في الهروب.

ورث هذا المعتقل كل ما كان في السجن الشهير الكبير من الجدران، والكشافات، والحراس، وبوري، وإن اختلف في شيء فهو أنه كان يسجن فيه الصرب، والكروات، والمسلمون معًا.. والآن يسجن فيه المسلمون فقط، ويحرسهم الصرب من الهروب.

والمختلف أيضًا أنه لم تكن هناك أي مذابح على جسر جيليزني، وحساء الكرنب الخالي من الكرنب.. وبدلًا من موظفي المكاتب يوجد حراس مسلحون.. وكل شيء آخر كان أشبه بسجن.

كان الحراس نائمين في الجزء الجديد من مبنى الإدارة، ولكنهم كانوا يقومون دائمًا بدوريات لمراقبة جميع الزنازين الانفرادية.. أخذوا من المعتقلين أجهزة الراديو، وأي شيء يحاولون إخفاءه.

وأثناء التناوب بين الحراس، كانوا يراقبون من أبراج المراقبة المدخل الرئيسي للمعتقل،

وجسر جيليزني على الضفة اليسرى لنهر درينا.. لقد أخذوا حذرهم التام، فضلًا عن استيلاء أي شخص على المعتقل حتى لو كان الجيش يشن الهجوم من كل جانب.

سيطر حراس الصرب خلف بيت أسرة « إيفانوفتش » فوق المعتقل على طرق الوصول إلى الجسر والبوابة الرئيسية.. وقد كانت هناك وحدة صربية متمركزة، على جبلي « تشينوفينا » و « ودوبة » فوق المعتقل.

وقبيل هذا التمرد، عمل الصرب طوال الليل لتوسيع الطريق من المعتقل إلى جبلي « تشينوفينا » و« ودوبة » حتى يتمكنوا من إقامة مدفعيات.. وحينذاك كان المسلمون يساعدونهم في توسيع الطرق.

فلماذا كان الصرب في حاجة إلى هذه المدفعيات في هذا الموقع؟ فقد كان في وسعهم أن يقذفوا جسر جيليزني، وجميع المنازل على الضفة اليسرى لنهر درينا، فلو شن جيش هجومًا من الضفة اليسرى كان في استطاعتهم تدمير الجسر في لحظات يسيرة؛ ولذلك السبب كان موقع « تشيلوفينا » في غاية الأهمية عند الصرب، منه يهاجمون، ومنه يدافعون عن أنفسهم.

كان الصرب يعدون لهذا التمرد منذ الشغب الذي قاموا به في شركة « فوتشا ترانس »، وكان ذلك في فصل الربيع أوائل التسعينيات، إنهم قاموا بذلك الشغب أولًا ثم ذهبوا إلى صربيا للحصول على الأسلحة.

وقد بنوا مستشفى في منطقة « أوراهوفوا » وجهزوها من صربيا ومستشفى فوتشا، كما كانوا يذهبون - كل سبت وأحد - للتدرُّب على الرماية في « أوراهوفوا ».

حتى ذلك الحين كانوا ينتظرون إشارة البدء من سراييفو، وكانت بلجراد تستحثهم يوميًّا على البدء لدرجة أنهم أرسلوا خبيرًا للدعاية إلى فوتشا، كان يعرف بالضبط ما الذي عليه أن يقوله للصرب.

وعلى سبيل المثال، فقد انتشر القول بعدم الثقة بالأطباء المسلمين في فوتشا بسببه، حتى إنهم ذكروا أسماء بعضهم ومنعوا الصرب من الذهاب إليهم.

علاوة على عدم الثقة بالمديرين المسلمين في المصانع، خاصة في شركة « ماغليتشة ».كان هدفهم من ذلك هو إجبار هؤلاء على مغادرة المدينة حتى لا يزعجوا الصرب بالاطلاع على خططهم، وقد استعاضوا عنهم بمديرين من الصرب.

كان رءوس الصرب يجتمعون في شركة « ماغليتش »، وكانوا يتلقون الأوامر من بلجراد، لكنهم كانوا ينتظرون إشارة البدء من سراييفو.

كان في إمكان ستويان أن يذبح كما كان يفعل رادومان، ويذكره الصرب في أشعارهم كما ذكروا جده نيجو.. لكن كل الذى كان يهمه هو ماله، فلو أعطاهم ماله لقالوا: إنه من عظماء الصرب.

خاطب نفسه:

– من هو عظيم الصرب في زعمهم؟ هل الذي يجاهد في سبيل مملكة دوشان، أم الذي ينفق ماله من أجلها؟

.. أنا لم أسلِّم لهم أموالي؛ ولذلك لست من عظماء الصرب؛ ولذلك أنا في السجن.. بدأت الدول تحمي حدودها، والصرب يريدون إقامة دولة صربية من القرون الوسطى.. قد قالت ستويانكا: إن على الصرب تحرير الأرض ثم بعد ذلك ينضمون لأوروبا، هم أولًا يحتاجون إلى قتل جيرانهم والاستيلاء على أراضيهم، ثم ينضمون إلى أوروبا.. هذا هو ما تعنيه ستويانكا.

ويزعم نيجو: أن المذابح على الجسور لا تعتبر جريمة.. الصرب لا يرتكبون الجرائم، بل يتخلصون من جيرانهم!! فقد شووا « ميرالهم » من بابرتينا وهو حي، وذلك لا يعد جريمة بزعمهم.. ربطوه من قدميه، ونكسوه، وأشعلوا النار تحت رأسه.. وكان الصرب يدورون حول النار وهم مخمورين.. يطلقون النار من بنادقهم، ويغنون أغاني التمرد.

كانت صرخات « ميرالهم » تمدهم بالقوة، وتزيد حماستهم.. لم يتوقفوا عن الغناء ولم يعبأوا به.. وفي النهاية سقط جميعهم على الأرض من السكر.

لم يستطع ستويان أن يفهم هذا، فقد كان لا بد من ارتكاب المزيد من الجرائم لإقامة مملكة دوشان.. هل هذا هو الطريق الذي يسلكه عظماء الصرب؟

لو فكر المسلمون في شن هجوم على المعتقل، لأسرع الجيش الصربي من الجبل، وفندق زيلانجورا إلى المعتقل.. كان هناك عدد كبير من جنود الصرب يتمركزون في: « فليبوفيتش » و « أوستيكولنا »، وجعلوا من « السجن النسائي » سابقًا في « فيليشيفو » مقرًّا لقيادة الحامية.

وفوق البلدة في مواقع: « ششت » و« شوكوفاتس » و« حراس »، كانت وحدات الجيش الصربي تحرص على إمداد الجيش.

خاطب ستويان نفسه:

- هل يستطيع المسلمون المقاومة؟ فأكثر سكان القرى كانوا مسلمين.. لو كانوا أكثر ذكاء وشجاعة، لقاموا بتنظيم مقاومة سرية خلال أيام الشغب في « فوتشا ترانس » ودافعوا عن قراهم لأنها تحيط بالمدينة، ولو سلحوا أنفسهم لما فكر أحد من رجال الأركان، أو أي جندي من فيلق « أوجتشكي » أن يقاتل في الجبال.. ألم يأخذوا عبرة من « كونوفو » في الحرب الأخيرة، فقد قاوم مسلمان مسلحان وحدة صربية بأكملها، ماذا لو كانت حينذاك واليوم كل قرية مثل « كونوفو »؟!

كان المعتقل يتألف من ستة عنابر، ويتألف الواحد من اثنتين إلى أربع من الغرف، إضافة إلى صالة طعام.. ويصل عدد المعتقلين في العنبر الواحد إلى سبعين معتقلًا، أما العنابر الكبيرة فقد كانت تستوعب خمسين ومائة مسلم يأتي بهم الصرب من القرى المحيطة، حتى ضاق بهم المعتقل.

أتوا مرة بعشرين مسلمًا قبض عليهم في: « هوم » و« كوسومان » و«مياشاييم » و« فوتشافو » و « زكمور ».. ولكن أثناء الليل كان يقل عدد المعتقلين.. إنهم كانوا يأخذونهم في رحلة اللاعودة.

كان كلما دخل ستويان أحد العنابر مع الحراس قام جميع المسلمين، وانحشروا في زاوية العنبر؛ لأنهم لم يعرفوا ستويان، فقد ظنوا أنه سيأخذ أحدهم إلى جسر جيليزني.

كانوا هزيلين، كأن جلودهم قد التصقت بعظامهم.. نظراتهم حائرة.. كان ذلك يذكر ستويان بمعتقلين في أنفاق قذرة تحت الأرض مغلولي الأيدي.

هكذا عرف ستويان حياة المسلمين في المعتقل، وقد سمح له ولبقية الصرب أن يتجولوا في ساحات المعتقل، ويدخلوا العنابر، لكنهم منعوا من التحدث إلى المعتقلين.

منذ أن عرف الحراس أن ستويان كان في صفوف مقاتلي الصرب، شاوروه في كل أمر، فقد سمعوا أنه حفيد نيجو رادوفيتش، وكانوا يعلمون أنه في السجن بسبب السياسة؛ ولذلك كانوا يخافونه.

ومع ذلك فقد وجدوا أنه كان هادئًا، وقورًا، رشيدًا في كلامه لا يتكلم إلا بما ينبغي، كتومًا جدًّا.

فوجئ ستويان أنه كان يسمح للصرب في المعتقل بدخول العنابر، واختيار من

سيكون عليه الدور ليؤخذ إلى جسر جيليزني.. إنهم رفضوا الذهاب إلى المعارك، ولكنهم يمارسون هنا دور الأبطال.

تذكر ستويان راسم بن حامد الذي كان يدرس معه.. لما دخل بيته في « جيجافو » ووجد أباه حامدًا الذي طلب منه أن ينقذ ابنه راسمًا، ثم تذكر أنه معتقل هنا... بقي حامد في البيت المشتعل بالنار.

وكانت تلك أول حملة يخرج فيها مع الصرب، التي اقتادوا فيها المسلمين إلى جسر « برود » حيث ينتظرهم رادومان وغويان.

* * *

٢٥

دخل ستويان مع بوري أكبر العنابر، كان فيه (١٥٣) مسلمًا، مغطين ببطانيات رقيقة، وعندما دخلا قاموا، وانحشروا في زاوية العنبر، وانتظروا من بوري أن يخرج قائمة الأسماء ليبدأ بقراءة أسمائهم.سأل بوري بصوت عال:

أين راسم بن حامد المعالج بالأعشاب من « جيجافو ».

قام رجل قصير القامة مغطى ببطانية، ورفع يده:

- أنا.

- تعال معنا.

تبع راسم بوري وستويان، ودخل معهما غرفة ستويان.. نظر ستويان إلى راسم.. بدا له وكأنه بلغ الستين سنة، مع أنه نديده.. شاب رأسه، وانحنى ظهره، كأنه كان يحمل عبئًا ثقيلًا طوال حياته.

كان لا يزال يلف البطانية على جسده، منكس الرأس، يشبه أباه حامدًا برأسه الصغيرة وأنفه المدبب، يذكر ستويان بحامد.. لم يلاحظ ستويان أمامه، فقد كان يحدق في الأرض منتظرًا من بوري أن يقتاده.

كسر بوري حاجز الصمت وقال لستويان:

- هل نعدل جسده قليلًا؟

ستويان: لا.

بوري: لماذا؟

ستويان: أريد أن أسأله شيئًا.. اسمع يا راسم.. هل تعرفني؟

رفع راسم رأسه، وظل صامتًا فترة ثم قال: لا أعرفك.. يقولون: إنك جديد هنا.

ستويان: أنا ستويان بن يوفان رادوفيتش.

ارتعش راسم، ونظر إلى ستويان..

راسم: أنت ستويان؟ قد درسنا معًا في المدرسة.

ستويان: سافرت إلى ألمانيا منذ فترة طويلة.

راسم: وماذا تفعل هنا؟

ستويان: لقد طلبوا مني الحضور.. كنت في الحبس الانفرادى، وسمحوا لي الآن بالخروج.

راســم: كيف حال زوجتك سافكا، وابنيك؟ أما سمعت ماذا حل بأبي.. رفاقك حرقوه حيًّا في منزله، واعتقلوني أنا هنا؟

ستويان: لم أكن أعلم بذلك، لقد كنت في تشلبيش، ومنذ وصولي إلى صربينيا هذه كأنني في حلم لا أستطيع الاستيقاظ منه، ودائمًا أفكر في سافكا وابنيَّ.

راســم: جميع الصرب يعيشون في الأحلام، والذي يفعلونه أيضًا حلمهم.. يقتلون جيرانهم ثم يقولون: إنه مجرد حلم.. الدماء الكثيرة على الجسور تنفي أن يكون حلمًا.

صرخ بوري: ماذا تقول؟

ستويان: دعه يا بوري، خذه إلى العنبر.

بــوري: سأسوِّيه.

ستويان: لا.

بــوري: لماذا؟

ستويان: لا تفعل.

ومع ذلك فلم يفعل، بل اقتاده بوري إلى الزنزانة الانفرادية..

وستويان يشاهد كل ذلك من عتبة الباب، خاطب نفسه: كان من الأفضل له لو تركته في العنبر.

في تلك الليلة لم ينم لمدة طويلة.. كان يسمع الصرخات على جسر جيليزني، ولكنها كانت ضعيفة؛ لأن غرفته تقع على الجانب الآخر من المبنى، ولا تواجه الجسر، وفي فترة من الليل توقفت الصرخات، حاول التسمع، لكنه لم يسمع شيئًا.. ظن أنه يخيل إليه، وخاطب نفسه:

- لو بدأت أتخيل، فإن الحبس الانفرادي أفضل لي من هنا.. لا أتخيل، فهؤلاء الرجال في العنبر حقيقيون، والخيال من عندي، فالشخص الذي يتخيل لا وجود له في الحقيقة.. نام بعد الفجر بقليل.

بعد محادثته مع راسم، وجد نفسه في طابور العمل مع المسلمين، ولم يلتفت إليه أحد من الحراس، وحرص بوري على الابتعاد عنه.

خلال الأيام الأولى اقتيد إلى مستودع لتحميل ما غنموه من الحرب على الشاحنات، ثم إلى تجديد مبنى الإدارة، ثم تجديد سقف المدرسة، وكان معهم في غسل الأطباق، وتنظيف أبراج المراقبة.

كان ستويان في مجموعة راسم الذي بدا أكثر انحناء، وضعف بصره.. خاطب ستويان نفسه:

- لا يزال على قيد الحياة!!

* * *

(٢٦) على الرغم من أن جنود الصرب لم يعودوا يجتمعون في بيت يوفان، إلا أنه وستويانكا كانا يتركان الأنوار مضيئة في غرفة ستويان، فقد كانوا يوهمون أنفسهم أن الجنود لا يزالون يأتون إلى منزلهم قبل البدء في عملياتهم.. كانت تلك رغبة ستويانكا.

حتى الصغار أدركوا أن جنود الصرب يجتمعون الآن في بيت ريستو مع غروب الشمس، ويبتعدون عن بيت يوفان، وبعد ذلك ينطلقون كلٌّ بمفرده في ظلام الليل.

كانوا عند رجوعهم إلى منزل ريستو يتحدثون بصوت منخفض لئلا يسمعهم يوفان وستويانكا.. وفي النهار كان الضابط « دافيدوفيتش »، يأتي وكان يقصد الابتعاد عن بيت « يوفان ».

جميع السكان تجنبوا بيته، حتى النساء والأطفال، كأنه مصاب بمرض الطاعون، وكان كبار السن ينحدرون بعيدًا عن البستان؛ لعدم رغبتهم في مقابلة « يوفان » إن خرج من بيته.

كل شيء كان متروكًا كما هو بلا عناية.. بيت يوفان.. المرج.. الطاولات الخشبية المكسورة.. البستان وما حوله.. وظل الباب المؤدي إلى القبو مفتوحًا، لم يعد يوفان يغلقه.

عاش يوفان وستويانكا يعانيان الوحدة، وكانا كل يوم يزدادان كِبَرًا.. اقترب أجلهما.. يحملان الألم الشديد.. ظلا صامتين لا ينظر أحدهما إلى الآخر.. كان يعذبهم التفكير في ستويان.. ارتجف جسداهما، ولم يجدا سلامًا في غرفة واحدة، وما استطاعا مخالطة الناس، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت.

كانت ستويانكا تضيء غرفة ستويان قبل غروب الشمس، وينزل يوفان إلى القبو كأنه منشغل بشيء، ويلتقيان في ممر المنزل، وعلى هذا مرت الأيام على زوجين مسنين يعالجان آلامهما لا يبرحانها، فقد صبغت روحهما كالأخطبوط يأخذ صحتهما في لمح البصر.

كان ستويان يشغل كل تفكيرهما.. وكان من العبث ما يفعلانه من إضاءة الغرفة، وترتيب الأشياء في القبو؛ وهذا هو سبب كبر سنهما..كانا في كل ليلة لا ينامان، وكل يوم يمر حزينًا.. في كل مرة تلتقي فيها أجسادهما دون عيونهما، كانا يعلمان بذلك ويحسَّانه، وإن لم يتفوَّها به.

وُصف ستويان بالخيانة في الكنيسة، واعتقل مع المسلمين؛ ولذلك تجنب الصرب منزله مثلما يتجنبون الطاعون، وكان ذلك أعظم عار يلحق أسرة رادوفيتش، رغم ذلك الشرف الكبير الذي حازته من قبل.

لم يكن أحد يعلم في تشلبيش سبب خيانة ستويان.. ظن بعضهم أنه رفض مقاتلة الأتراك، بينما شمت فيه بعض آخر حسدًا له؛ لما كان لديه من ثروة، في حين ذهب آخرون إلى أنه كان متزوجًا بمسلمة وانتشر ذلك بين سكان تشلبيش؛ لأن ستويانكا ما كانت تحدثهم قبل ذلك عن ابنها عندما كان في ألمانيا.

هكذا كان الحال منذ أن زج بستويان في المعتقل.. لم يَزُرْ الصرب ذلك البيت؛ فضاقت عليهما أنفسهما، ولم يخرجا منه، وأصبحا في غربة ينتظران قبض روحيهما، كلٌ في غرفة منفصلة.

وذات صباح أيقظ يوفان ستويانكا، ففتح الباب وانحنى على فراشها، وناداها بلطف:

- ستويانكا.. ستويانكا.. ستويانكا.

استيقظت ستويانكا، ورأت يوفان واقفًا قرب سريرها، فنهضت وجلست على السرير، وأراحت ظهرها على الجدار، ثم نظرت إلى يوفان وقالت:

- ما الأمر؟

يـوفـان: أقبل وقت الظهيرة، وأنت لا تزالين نائمة!

ستويانكا: لا فرق.

يـوفـان: اخرجي أمام المنزل.

ستويانكا: لماذا؟

يـوفـان: تمشِّي.

ستويانكا: لا أرغب في عمل أي شيء.

يـوفـان: اسمعي يا ستويانكا، لا يمكن الاستمرار على ذلك، سوف يطلقون سراح ستويان، لقد وصلتني أخبار بذلك.

ستويانكا: ممن سمعت؟ ولا أحد يزورنا.

يـوفـان: ستويان ليس خائنًا، وأنت تعرفين ذلك جيدًا.

ستويانكا: إنه عار لأسرة رادوفيتش.

يـــوفـــان: لا تقولي ذلك يا ستويانكا.. أنت لا تعرفين كيف يعيش في السجن، وكُفِّي عن الحديث عن العار، لقد اعتقل لأنه يرفض إعطاءهم ماله.. يوفان: لماذا يعطيهم ماله؟!

ستويانكا: من أجل الثناء عليه، كأسلافه من عشيرة رادوفيتش.

يـــوفـــان: في ذلك اليوم رحبت بجميع الصرب الذين جاءوا إلى هنا، وفي المقابل دمروا بستاني، وصبوا البراندي الذي لم يشربوه، واليوم يبتعدون كل البعد عن بيتي، ولا يمرون به.

ستويانكا: لو أعطاهم ماله لأثنوا عليه.

يـــوفـــان: كان مصيبًا عندما لم يعطهم ماله.

ستويانكا: ولماذا لم يذهب لقتال حمزة؟

يـــوفـــان: لأنهم يرسلونه عقابًا له، وهو يعلم ذلك.. لو لم يكن الأمر كذلك لقاتله.

وفجأة سكتت ستويانكا، ونامت على الوسادة.

يـــوفـــان: ما الأمر يا ستويانكا؟

ستويانكا: انتظر.

كانت ستويانكا تتنفس بصعوبة.

يـــوفـــان: ماذا بك يا ستويانكا.

ستويانكا: انتظر.

يـــوفـــان: هل تشعرين بالألم؟

ستويانكا: لا أشعر بألم.

يـــوفـــان: إذن ماذا؟

ستويانكا: تذكرت، وخفت في نفس الوقت ألا تنجح خطتنا.. اذهب إلى الكنيسة، وقل للضابط « دافيدوفيتش »: إن ستويان سوف يقاتل حمزة.

يـــوفـــان: ماذا بك يا ستويانكا، هذا حق ستويان. هو يقوله ليس أنا.

ستويانكا: لو وعدك الضابط بإطلاق ستويان، اذهب إليه واشرح له حالنا، وكل شيء.. وأن عليه قتال حمزة.. هذه هي الطريقة المثلى لإنقاذه، وإنقاذنا.

يـــوفـــان: لن يرضى ستويان بذلك.

ستويانكا: قل له إنه سيوقعنا في التعذيب إن لم يقاتل؛ فمنذ أن سجن لا يمر الناس ببيتنا.. اذهب الآن.. أريد أن أنام.

تحركَ يوفان ببطء بعيدًا عن السرير باتجاه الباب.. دارت في نفسه أفكار:

– كانت ستويانكا على حق فيما دبرته، فلو وافق ستويان فسوف ينقذنا جميعًا من العار بقتال حمزة، ففوتشا على وشك التطهير، وجنود الصرب ينتشرون في جميع أنحاء القرى المسلمة المدمرة، ويستطيعون تمشيط الغابات، واعتقال حمزة دون أي خطر على ستويان.

توقف يوفان عند الباب وقال:

ـ اسمعي، لن أذهب إلى صربينيا؛ فالضابط دافيدوفتش يأتي إلى بيت ريستو، وهناك سأخبره.

ومنذ تلك اللحظة بدأ يوفان يتطلع إلى بستانه على أمل أن يرى دافيدوفيتش، وبعد ثلاثة أيام رآه عند الظهيرة يخرج من سيارة « جيب » أمام منزل ريستو، فأسرع نحوه رافعًا ذراعيه ليوقفه قبل أن يدخل.. وقف دافيدوفتش عندما رآه، ولم يدرِ كيف يتصرف.. سار يوفان نحوه.

– لماذا تشير يا يوفان؟

وقف يوفان أمامه بعدة أمتار:

– سيادة الضابط، ابني ستويان سوف يقاتل حمزة إن أفرجتم عنه.

– دع ستويان يقول ذلك لمدير السجن.. إنه كان يدافع عن مسلم في المعتقل، فهو عار لنا جميعًا.. لكن لو كان مستعدًّا لقتال حمزة سنطلق سراحه، وأنا أضمن لك ذلك.. به أو بدونه سنذهب إلى الغابات، فانظر ماذا هو يرى.. هيا ارجع الآن إلى بيتك.

سعى يوفان نحو بيته، ولما دخل الغرفة كانت ستويانكا لا تزال راقدة على فراشها.. لم تبرحه منذ ثلاثة أيام، فقد كانت تنتظر رد يوفان، وعندما دخل يوفان الغرفة قامت، وأسندت ظهرها للحائط.

نادى يوفان من عتبة الباب: سيطلق دافيدوفتش سراحه إن كان مستعدًّا لقتال حمزة.. سأذهب مباشرة إلى المعتقل.. نامي سأعود خلال النهار.

***

٢٧ في آخر الصيف.. غدير نظيف، بارد، يتدفق ماؤه دون توقف أو جفاف، يشق طريقه بين شطآن من أوراق الأشجار، وفروعها المتعفنة، يتحدى جذور شجر الزان المتشابكة: يتسلل خلالها، أو يعبرها أو يسرع إلى أسفل المنحدرات الصخرية، سريع الاندفاع كأنه تفجَّر لتوِّه.

رشفة واحدة من ذلك الماء العذب في الفجر تذهب النوم من عيون هؤلاء الذين عانوا قلة النوم بالليل، ثم داعبهم النوم قبيل الفجر، فذلك هو ألذ نوم، يشبه نوم طفل عمره عام يغالب النعاس في مهده، ثم يستسلم أخيرًا للنوم.

هذا النعاس الذي يأتي قبيل الفجر لا يذهبه إلا مياه الينابيع الباردة، المنعشة، وفي نفس الوقت يذكرهم بقدوم أيام الثلج.

ومع هذا الماء المنعش، تنتعش الذاكرة بتلك الجبال بعد العواصف الثلجية إذ تتسلل أسراب الطيور من شجيرات الشوك، أو يظهر منها وعل؛ فالماء البارد يغريك بالتفكير في الحياة الطبيعية؛ لأن كل شيء يدور حوله.

ازدهر كل شيء حول النهر، وداعب النسيم ماء الينابيع على وجوه أولئك الذين صفت أفكارهم بها، ونشطت حياتهم في الجبال، فالماء يوقظهم، وهم يتمطون، ترفرف أصواتهم في الهواء كالجراد المنتشر..خرجوا من وراء الأشجار المكسورة المكسوة بالطحلب نحو المنبع.. كانوا لا يزالون بين النوم، واليقظة.. كلما اقتربوا من الغدير أصبحت أصواتهم أكثر وضوحًا.

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام ورحمة اللَّه.

ينحنون نحو الغدير جنبًا إلى جنب، يغسلون أيديهم، ووجوههم، وأرجلهم، بينما كانت المياه تجري على جذور الأشجار.. لم يلمسوا شاطئ الغدير، ولا قاعه حتى لا يتعكر الماء على من خلفهم من إخوانهم.

تسللت الشمس على استحياء تسترق نظرة على أولئك الأطهار من خلال الفروع الخضراء، وقطرات الندى على أوراقها، وهكذ فإن الماء والشمس يكونان حياة البعض، وموتًا للبعض الآخر، تمامًا مثل العشب في الشمس إذا نزل عليه الماء اهتز وربا، فإذا اشتدت حرارة الشمس، وعُدم الماء رجعت كما كانت.

كل شيء في الطبيعة كان يتحرك، وهكذا حياة الإنسان، فالماء الصحي هو الذي ينبع من سفوح الجبال الصخرية ويجري نحو البحر، وتكون غير ذلك إذا توقفت عن الجريان، وأصبحت مستنقعًا يتجنبه جميع الناس، ومثل ذلك حالة الناس الذين لا يرغبون في طلب العلم والعمل، بل أحبوا الخمود كالجزء السفلي من تلك المياه الراكدة.. لا سبيل إلى تنقيتهم كما أنه لا سبيل إلى تنقية المستنقع إلا إذا فتح له الطريق ليجري من جديد.

قال شاب نحيف، متوسط القامة يخاطب نفسه أكثر من مخاطبة رفاقه:

- حان الوقت!

في الآونة الأخيرة نشطت الأفكار في رأسه نشاط النوم، وحرمت عليه النوم إلا متأخرًا.. نحيف.. وسيم.. تبدو عليه قوة بانت من كل حركة من حركاته.. وقور.. هادئ.. يعرف حدوده، وحدود معاملة الآخرين، ولا يتعداها.

نتيجة لذلك - فضلًا عن حكمته - فإن جميع هؤلاء الذين يتوضئون كانوا في حاجة إلى الاستماع إليه، وهو يتكلم كأن ذلك الاحترام قُدِّر بقدر، ولم يقدره الناس، وذلك أفضل؛ لأن ما يقدره الناس يحمل الصدق والكذب.

يقومون في صفوف يولون وجوههم شطر الكعبة، يؤمهم ذلك الشاب النحيل.. رفع يديه مؤذنًا:

- اللَّه أكبر اللَّه أكبر.

- أشهد أن لا إله إلا اللَّه.

-......

الشعور بالحماسة في نفوسهم، تحت تأثير صوته الدافئ اللطيف، يحثهم على الصلاة إلى الواحد الأحد.

بعض الأصوات القوية، ترتفع في السماء بحيث لا تستطيع التمييز بين قوتها وجمالها أو كليهما، لكن ذلك الصوت تستشعر فيه الأخلاق؛ ولذلك وصل إلى قلوبهم، وانتشر حوله في الطبيعة.

لقد خلق اللَّه الجسد والروح؛ ولذلك هم يعبدونه بأجسادهم وأرواحهم معًا.. كان جميعهم كالجسد الواحد، يولون وجوههم شطر المسجد الحرام، وكالروح الواحدة يفكرون فيه - تعالى - وذلك سر جمالهم كما هو سر جمال ذلك الصوت.. كانوا قائمين

حفاة.. يصطفون خاشعة أبصارهم.. يضعون أيديهم على السرة.. قانتين.

كان يبدو كأن الزمن قد وقف بعد نداء: اللَّه أكبر.. ثم يركعون، وهيئاتهم تشهد على عظمته ورحمته.. وعند سجودهم يستشعرون صغرهم أمام عظمته – تعالى –، فإذا قاموا من السجود استغفروه لذنوبهم.. ثم يضعون جبهتهم على الأرض خاشعين، وبعدها يقعدون يدعونه.. هناك عند منبع الماء قبالة الغابة كانوا كجسد وروح واحد.. وفي ختام الصلاة يسلمون يمينًا وشمالًا بلطف قائلين: السلام عليكم ورحمة اللَّه.. السلام عليكم ورحمة اللَّه.

وقف (٢٧) رجلًا.. مدوا أيديهم متصافحين، قد ألفت الصلاة بينهم، حتى لا تكاد تسمع صوتهم بـ « السلام عليكم » من الخشوع والرقة، ثم ذهبوا إلى الغدير، ولكن هذه المرة ليغسلوا وجوههم، وأرجلهم من التراب، ثم لبسوا الجوارب والأحذية العسكرية.

لم يكونوا في عجلة من أمرهم، بل كانوا صامتين، ووفقًا للمخطط توغلوا في الغابة حتى وصلوا إلى ساحة بين أشجار الزان فيها كوخ خشبي صنعوه دون مسامير، وقد انسجم تمامًا مع الطبيعة.

كان سقفه الخشبي مغطىً بألواح من المطاط لئلا تتسرب المياه إليه، وحوله حفر صغيرة تتجمع المياه فيها بعيدًا عن الكوخ.. رائحته من الداخل رائحة الأشجار الناضرة التي لم تجف؛ فكتل الأشجار تحتاج سنة لكي تجف.

سأل « آفدو شوبوا » بحماسة – وإن كان يعرف أين يقصدون –: ماذا سنفعل يا حمزة؟

حمزة: ما نفعله كل يوم؟

عشرة رشاشات آلية واقفة على الأرض على شكل مثلث؛ حتى لا تسقط على الأرض، وبجوارها رشاشان روسيان من النوع الثقيل.

حمزة: أنت ستستعمل الرشاش الثقيل يا آفدو.

هل كان هناك طلٌّ، لعله يصيبها بصدأ من كثرته.

آفدو: أريد أن أقول لك: لقد كان لدينا منذ أسبوع واحد فقط ست بنادق عادية، والآن لدينا رشاشات خفيفة وثقيلة، بسبب استيلائنا على تلك الشاحنة التي كانت تسير نحو « ميليفينا »، فقد هرب الجميع منها وتركوا كل شيء دون أن نطلق عليهم رصاصة

واحدة؛ فغنمنا جميع أسلحتهم.

لدينا في الكوخ (٨٨) رشاشًا « أوتوماتيكيًّا »، ورشاشان ثقيلان، و(٢٧).. تُرى لو كان عددنا كعدد أسلحتنا، هل تظن أن أحدًا من الصرب يستطيع قتالنا.. ولكن بعد أن حصلنا على الأسلحة لا نذهب إلى أي مكان.

حمزة: لا تتعجل يا آفدو إنهم في انتظارك.

قاموا – في صمت – بتنظيف أسلحتهم بقطعة قماش مغموسة في الزيت.. لقد اعتادوا العيش بهدوء في أعماق الغابة.. كان الكوخ يبدو صغيرًا عليهم لكنهم لم يحتاجوا إلى كوخ أكبر.. صنعوا فيه أسرّة خشبية، وغطوها بالبطاطين ليناموا عليها.. وضعوا بين السرر منضدة خشبية واسعة ليتناولوا عليها الطعام، وعلقوا الرشاشات الخفيفة بالمسامير على جدار الكوخ، أما الثقيلة فكانت على الأرض.. وفي ركن من الكوخ كانت صناديق الذخيرة بعضها على بعض.. وعلى بعد مائة متر من جوانب الكوخ الأربعة، صنعوا أعلى أشجار الزان أبراجًا من الخشب للمراقبة، حيث كانت المناوبة عليها بينهم كل ثماني ساعات، دون أن يذكرهم حمزة بذلك.. واثنان منهم كانا يرعيان بضع أبقار في ساحة في أعماق الغابة، بينما كان البعض الآخر يبحثون عن الطعام في المنازل المحترقة المدمرة أسفل الجبل.

كان ليلهم يسير بشكل هادئ، يَلُفُّهُم الظلام، ويذكرون اللَّه، على ذلك النهر الحيوي.

كانوا كهيئة رجل واحد، مع هدف واحد، مثل ذلك المنبع البارد الذي تحول إلى غدير، يصفي أفكارهم قبل الفجر، ثم يسرع بخريره المليء بالحياة.

في بعض الأوقات يمشي حمزة إلى أبراج المراقبة، ليس ليطمئن على الحراس ولكن ليتعرف على الطرق المؤدية إلى الكوخ، ويستكشف المكان، فعلى مدى سبعة الأيام الماضية عاشوا حياة هادئة، لكن الذي كان يقلقه هو قلة عددهم وكثرة عدد الصرب.

فمع كثرة أسلحتهم إلا أنهم لم يتعرضوا لمواجهة حقيقية بينهم وبين الصرب في العراء، فحتى الآن فإن كل ما حققوه من نجاح على الصرب هو نصب الكمائن لهم حين عودتهم من إحراق إحدى القرى المسلمة، فيفاجئونهم بالهجوم عليهم، ولكن ذلك لا يعد قتالًا وجهًا لوجه؛ لأن الصرب كانوا يطلقون النار وهم يفرون.

وثق المقاتلون بحمزة الذي كان يقول:

- إن عليهم مفاجأة الجنود الصرب، وحينذاك لا ينظر إلى قلة أو كثرة الجنود أو السلاح.

فالهجوم المفاجئ كان سلاحًا فعالًا عند حمزة.. يزحفون على الأرض ببطء نحو جنود الصرب، ثم يطلب حمزة منهم أن يستسلموا، وقليل منهم من فعل ذلك، ومعظمهم يفرون مرعوبين.

أما الذين استسلموا لحمزة فقد خلى سبيلهم، بعد أن جردهم من سلاحهم، ودون أن يسألهم شيئًا.

* * *

٢٨

كان ستويان قد رجع لتوِّه من منطقة العمل، إذ دخل بوري ينظر إلى السقف لئلا يواجهه وقال:

ـ لا تخلع ملابسك.. والدك ينتظرك عند البوابة.

هاج الدم في عروقه غيظًا على بوري، لكن الذي هدأه هو زيارة والده. تجنب بوري النظر إلى ستويان:

ستويان: منذ أن ضرب راسم، أصبحت سجينًا في المعتقل، يأخذونني إلى منطقة العمل.

بـــوري: دعك من هذا التركي.. أبوك ينتظرك.

أسرعْ ستويان بلباس عمله إلى أسفل نحو البوابة الرئيسية، فاستقبله الحارس وفتح له الباب.. وهناك كان يوفان يجلس على مقعد، منحني الكتف، يرى عليه أثر الكِبَر، وشرود الذهن، حتى أنه لم يسمع فتح الباب، فلما رآه ستويان لم يصدق ما رآه:

ستويان: والدي يوفان.. والدي يوفان.. والدي يوفان.

قام يوفان بالكاد متكئًا بيديه على الجزء الخلفي للمقعد ثم قال:

ـ ستويان.

تدخل الحارس بينهما قائلًا: أسرعوا بالكلام فأمامكم عشرون دقيقة.

عانق ستويان والده للمرة الأولى في حياته، وعندما قعدوا حدق يوفان بنظره إلى ابنه.

كان ستويان طويل القامة، أسود الشعر، داكنه، عالي الجبهة، ذا ذراع طويلة.. كان أجمل من يوفان في أفضل أيامه حتى وهو في المعتقل، إلا أنه لم يكن هو ستويان الذي جاء للمرة الأولى إلى تشلبيش المهندم رقيق الكفَّين.. هو الآن شخص غليظ فقد قاتل في الحرب، ويعمل الآن في مواقع البناء.

ستويان: تحدث يا يوفان، فليس لدينا الكثير من الوقت.

يـوفـان: اسمع يا ستويان، اعتقالك في السجن موت لنا، فقد شبنا في عشية وضحاها، وأصبحت ستويانكا طريحة الفراش، لا تستطيع السير حتى في المنزل، ولا يزورنا أحد.

ستويان: لمّا كانوا في حاجة إليك، كانوا يأتونك، فأنا أحرقت القرى المسلمة، ولكن عندما رفضت منحهم المال، وجدت نفسي في المعتقل، والآن أنا خائن للغاية.

يـوفـان: أعرف كل هذا جيدًا، ولكن ما تفعله ليس في مصلحتك ولا مصلحتنا، فإن ستويانكا تريد منك الانطلاق لمقاتلة حمزة، لقد تحدث إلى « دافيدوفيتش »، وسوف يطلق سراحك إن كنت ترغب في قتال حمزة، فجنود الصرب يستعدون للهجوم على « زيلانجورا »، والآخرون سيهاجمون حمزة، فانطلق معهم، فعددنا كثير وعددهم قليل.. هذا هو الحل الأمثل لك، ولي، ولستويانكا.

ستويان: من أجل عدم انطلاقي عوقبت بذلك، ولكن الآن لم يعد أمامي خيار آخر، فأنا أواجه أوقاتًا صعبة أيضًا هنا، حتى الحراس يشيحون بوجوههم بعيدًا عني، ويأخذونني إلى موقع البناء حتى في يوم الأحد.. بم أخبرك « دافيدوفيتش »، ومن أخاطب ليطلق سراحي.

يـوفـان: مدير السجن.

ستويان: جيد.

***

٢٩ في أحد الاشتباكات مع العدو أسر رجال حمزة جنديًا من الصرب.. كان قد تم تجنيده في بلجراد، ثم أرسل إلى فوتشا مع بقية المتطوعين.. وعندما نادى حمزة يدعوهم للاستسلام، فر جميع جنود الصرب، إلا هذا الجندي، الذي انتظر حمزة رافعًا يده في الهواء مستسلمًا.

أمر حمزة رجاله بنزع سلاحه، دون تقييد يده، ثم طلب منه أن يصحبهم، فهز رأسه وانطلق معهم وهو صامت، ثم اتجهوا في أعماق الغابة نحو الكوخ.. تسلل الخوف إليه وهو يمشي.. كان طويل القامة، نحيفًا لا يكاد يحرك ساقيه الطويلتين، كأنه لم يتريض من قبل، ومثل هذا النوع من الرجال يكون تحملهم لعبء الشعور بالوحدة أسهل عليهم من العالم الخارجي.

كان أصلع الرأس رمادي السوالف، بدا أنه يزيد قليلًا على سن الثلاثين، لكن من يراه، ويرى الطريقة التي يمشي بها يخيل إليه أنه يربو على الخمسين.. والخطأ في تقدير أمثال هؤلاء الرجال كثير.

عندما وصلوا إلى الغدير جثا على ركبتيه ليشرب الماء، بينما كان حمزة ورجاله ينتظرونه لينهي شربه.. نهض فجأة، وانتفض انتفاضة رجل كان سارحًا بخياله، ثم استدار وقال:

- أنا لست صربيًا.. اسمي « وسيل سودتش » أنا فقط أعيش في الصرب، فقد انتقل أبواي إليها من « ترافنيك »، وأبي ضابط في بلجراد، وقد قبض عليَّ رجال يلبسون ملابس مدنية، في مطعم، وأخذوني إلى معسكر، حيث غيروا اسمي في الوثائق الرسمية باسم صربي، وقالوا: إنهم سيقومون برعاية عائلتي، وسيرجعون إليَّ الوثائق بمجرد تحرير فوتشا.. نظر جميع المقاتلين إلى حمزة، الذي لم يأبه، أو يتأثر، أو يفاجأ بكلامه.

سأله حمزة بهدوء:

- أنت لست صربيًا، كيف نثق في كلامك؟

وسيل: ولدت في ترافنيك، وهناك ختنتُ.

تبادل حمزة النظرات مع رفاقه الذين كانوا يقفون في شكل نصف دائرة حولهما، ثم تحدث حمزة إلى آفدو، وظاهر:

- خذاه واكتشفا الأمر (أمختون أم لا)، وليأت أحدكم بحطب، ويقطعها، ثم نظر

إلى السماء وقال:

- ستكون الليلة باردة.

اقتاد آفدو، وظاهر الأسير إلى الغابة فوق الكوخ، ونزل حمزة إلى الغدير، وغسل وجهه، فهبت النسائم على وجهه المتبلل، فشعر بانتعاش لطيف، ينسجم مع سلامة روحه، وبعد أن انتهى سمع ضحكًا من الغابة، وصوت آفدو:

- الذي قاله صحيح يا حمزة، إنه مختون!

هرع آفدوا، وظاهر إلى أسفل التل، وتبعهم الأسير ببطء، دون أن يبتسم، كأنهم لا يتحدثون عنه..اجتمع المقاتلون حوله، وفتح حمزة ذراعيه:

- تعال يا أخي أسلم عليك وأعانقك.

وعانقه المقاتلون الآخرون أيضًا، ثم واجه « وسيل » حمزة مرة أخرى، لأن كل شيء يعود إليه.. حدق ببصره إلى ذلك الشاب النحيل، الذي لم يكن طويلًا لكن شكله كان يبدو عليه العزة والوقار والجد، ويشرق بالطمأنينة والسلامة، كالذي على ثقة بغريزته.. كان ينظر إلى حمزة مفكرًا فيه، بينما كان الآخرون صامتين، ثم تحدث:

- أنت حمزة؟

- نعم أنا حمزة (كان رده مباشرًا وقصيرًا).

اعتمد وسيل على فخذيه ثم قال:

- الجنود الصرب، في أشد الرهبة منك، وأنت شاب كريم.

حمـزة: لماذا يخافون مني؟

وسيـل: أنت تهاجمهم بغتة، وهم لا يعرفون من أين تأتيهم؟ ويخوف بعضهم بعضًا بك، وذات مرة التقت فئتان من جنود الصرب في الظلام بالقرب من الغابة، وظن كل فريق منهم أن الفريق الآخر هم رجالك، وبدأ يطلق بعضهم النار على بعض؛ فلقي ستة جنود من كل فريق منهم مصرعهم، ومنذ ذلك الوقت يتحدثون عنك كثيرًا، وكلما أصابهم شيء تطيَّروا بك وبمن معك.

حمـزة: إني أعلم أنهم يخشون من مقاومتنا.

وسيـل: بالقرب من « ميليفينا » قتل منهم أربعون، ومنذ ذلك الحين يخافون من الذهاب إلى حملاتهم.

حمـزة: أود أن أطرح عليك سؤالًا، عندما هرب الآخرون رفعت أنت يديك، وكان أمامك فرصة للهرب.

وسيـل: كنت أريد أن أستسلم لكم.

حمـزة: وألا تكون مع الصرب؟

وسيـل: أنا مسلم، فهل عليَّ أن أحرق بيوت المسلمين وأقتلهم.

حمـزة: أهذا هو السبب فقط لا غير؟

وسيـل: ليس هو السبب الوحيد.

حمـزة: وماذا غير ذلك؟

وسيـل: منذ عشرة أيام أخذ دافيدوفيتش يحشد مائتي جندي من جنود الصرب؛ ليقبضوا عليك.

.. دب الصمت فلم يسمع إلا صوت ماء الغدير.

حمـزة: وماذا بعد؟

وسيـل: سبق أنهم فتشوا غابات « كومور » بأكملها من كلا جانبيها، وهم مسلحون بأسلحة روسية متطورة وجديدة للقتال في الغابات، ولديهم بندقيتين لإطلاق القنابل (نتروجليسرين) تحرق كل شيء أمامها، فهذا هو السبب الأول لاستسلامي؛ لأتمكن من تحذيركم من كيدهم.

حمـزة: لا يمكن أن نختبئ في غابات « كومور » فلماذا قاموا بتمشيطها.

وسيـل: كان ذلك عملية تدريب فقط، فهم يعرفون جيدًا أين تختبؤن؟

حمـزة: من أين عرفوا؟

وسيـل: لقد بعثوا عددًا كبيرًا من الفلاحين إلى الغابات، فإن كان أحد يعرف مكانكم فهو الضابط دافيدوفيتش.

حمـزة: وماذا سنفعل الآن.. يمكنك الرجوع إليهم، ورجالي يرافقونك في طريق الغابة حتى تخرج منها.

وسيـل: أريد أن أنضم إليكم، ولا أرجع إليهم.

حمـزة: إذن هيا لنريك مستودعنا.

دخل آفدو وظاهر وغيرهما من المقاتلين إلى الكوخ، فأروه مكانه للنوم.. انشرح وسيل لسعة المكان، وأعجبه الفرن الذي صنعوه من برميل حديدي، وانشرح أكثر لرؤية الرشاشات المعلقة على حائط الكوخ، ولصناديق الذخيرة.

وسيل: هذه الأسلحة أهم شيء.

جال وسيل بين أبراج الحراسة، فبتقليد أصوات الطيور تتم المناوبة بين الحراس.

ولما نزل هذان من الشجرة اندهشا لرؤية وسيل مع صديقيهما، ولكنهما عرفا القصة في طريقهما إلى الكوخ.. فوجئ وسيل بخفة حركتهم في مسالك الغابة غير المستوية، وفوجئوا هم أنه يفقد أنفاسه بسرعة، وبعد ساعتين من المشي في دائرة كبيرة، أنهوها بجولة من منصات الحراسة الأربعة.. لم يقلق وسيلًا التعب من المشي.

سأل وسيل الحراس:

- هل تستطيعون رؤية جنود الصرب قبل أن يدخلوا الغابة؟

- لا، إننا لا نستطيع ذلك، إنما يمكننا الشعور بوجودهم على بعد حوالي (١٠٠) متر من موقع الحراسة، فنسرع إلى المستودع لنحذر رفاقنا.

لم يرض وسيل بذلك، وبعد رجوعهم ذهب إلى حمزة، الذي كان يجلس منفردًا على جذع شجرة بجوار الغدير.

وسيل: اسمع يا حمزة ينبغي أن تكون منَصَّات الحراسة على حافة الغابة.

كان حمزة ينظر إلى الماء، ولم يلتفت.

حمزة: أعرف ذلك يا وسيل، سوف يكون غير هؤلاء سبعة من الكشافة، وسوف نناقش ذلك غدًا.. حان الآن موعد أذان المغرب.

وبعد صلاتهم، اجتمعوا في الكوخ، حيث يخفق فيه مصباح قديم يعمل بالجاز، قد علق على خشبة، وهو يتحرك يمنة ويسرة، كان يضيء الأسلحة المعلقة على حائط الكوخ كلما خفق، كانت ظلاله تتحرك في هدوء الليل، وكان المقاتلون صامتين خافضي رءوسهم، وحمزة يراقب رقص الظلال، وينظر أحيانًا إلى الباب.

وبعد أن دخل الجميع، وكان آخرهم آفدوا و« وسيل » - وقد قعدوا على مقاعد بالقرب من الباب - أعطى آفدو حمزةَ قطعة من الورق المنكمش:

- أراني وسيل هذه الورقة يا حمزة.

حمـزة: وماذا كتب عليها يا وسيل؟

وسيـل: الرسالة التي تلقيناها، عندما كنا نغادر صربيا.

حمـزة: ماذا كتب فيها؟

وسيـل: أأقرؤها؟

حمـزة: أجل، اقرأها.

أنزل آفدو المصباح، ووضعه قبالة الرسالة على مقعد عند وسيل ثم بدأ بالقراءة.

وسيـل: « ربما تبدو هذه الأهداف صعبة، وغير قابلة للتحقيق.. اذكروا المناضلة الشهيرة من أجل التحرير، تحت قيادة « كرجوج » الكبير، حينما كانت صربيا - كاملة - للأتراك. في بلجراد، والبلاد الصربية الأخرى، كانت المآذن المسلمة تثقب السماء، وبجانبها الأتراك يؤدون غسلهم كريه الرائحة، تمامًا كما يفعلون الآن في البوسنة والهرسك الصربية.. مئات الآلاف من المسلمين كانوا قد ملئوا وطننا.. امشوا في صربينيا اليوم هل تجدون تركيًّا واحدًا؟ لن تجدوا قبورهم ولا حتى علامة واحدة، لأن الشعب الصربي ذو وعي قومي منذ زمن بعيد، قد محا خصمه القديم من على وجه الأرض.. هذا هو أفضل دليل، وأوثق ضمان بأننا سننتصر في معركتنا اليوم، وأننا سنقضي على الأتراك في جميع المناطق المتبقية، ولا نبقي مسلمًا واحدًا بيننا ».. ها أنا قد انتهيت من القراءة.

علق آفدو المصباح مكانه.. كان الجميع صامتين في انتظار حمزة، الذي ابتسم، وسأل:

- تلقيت هذه الرسالة في معسكر الجيش في صربيا يا وسيل؟

وسيـل: وزعت على جميع الجنود.

حمـزة: هل تعلم من أين أخذ هذا النص؟

وسيـل: لا أدري؟

حمزة: هذا جزء من رسالة مرسلة من « دراجا ميهايلوفيتش » إلى « غولوب ميتروفيتش » وهو أحد أمرائه.. هم يوزعونها على الجنود الصرب في البوسنة لئلا يتركوا قبرًا واحدًا مسلمًا ولا حتى علامة، والبعض الآخر يوزعون كتاب « إكليل الجبل ».. من قبل كان « كرجوج » واليوم هو « كاراديتش » الذي يحرر الصرب من المسلمين.

فوجئ وسيل بما سمعه.. أدهشته معرفة حمزة، وكيفية وضعه كل شيء في موضعه في عبارات بسيطة، فلم يصبر على سؤاله:

وسيل: باللَّه عليك يا حمزة.. أنت أصغرنا سنًّا، وأصغر مني بحوالي خمسة عشر عامًا.. من أين تحصلت على ذلك القدر الكبير من العلم؟ وكيف عرفت من مؤلف هذه الرسالة؟

حمزة: لا أخفي عنكم، سأكشف لكم شيئًا، أنا مثل أبي تخرجت في الأكاديمية العسكرية، وكنت أفضل خريج فيها.

وسيل: وأنت لا تعمل في الجيش!!

أجاب حمزة بهدوء: لا أستطيع العيش بدونَ حرية، فهناك الانضباط وممارسة الرياضة.. لقد حصلت على وظيفة بشركة تجارية.

وسيل: أحاول أن أقول لك يا حمزة، كيف لم أكن أعرف شيئًا عن هذه الأشياء التي ذكرتها.

أجابه حمزة بهدوء:

- ثكلتك أمك يا وسيل، نحن نعرف كل شيء عن كل شيء إلا أنفسنا، لا نعرف شيئًا عن تاريخ المسلمين، وثقافتهم، ودينهم، كما أننا لا نعلم شيئًا عن تاريخ الشعب الأرثوذكسي، وثقافته ودينه، وهذان متصلان اتصالًا وثيقًا، وينبغي علينا معرفتهما على حد سواء، فالصرب على علم بهذا، وهذا، ونحن - المسلمين - لا نعرف شيئًا عن أنفسنا ولا عن عدونا..لقد أجبرني والدي على القراءة عن هذه الأمور، فقرأت سنين عددًا.. ألا ترون كيف يذكر « دراجا » نَفْسُهُ المآذن التي ارتفعت إلى السماء في بلجراد؟ ومئات الآلاف من المسلمين الذين ملئوا وطنه.. امشوا اليوم في صربيا فلن تجدوا تركيًّا واحدًا.

يودُّ « كاراديتش » أن يكتب رسائل مماثلة: « كان المسلمون في البوسنة، والآن لا وجود لهم ».. اسمحوا لي أن أشرح لكم هذا.

- لدى الصرب برنامج وطني قومي، لا وجود فيه للمسلمين، أو غير الصربيين، وهم يسعون إلى تحقيق هذا البرنامج تدريجيًّا، وقد بدأ ذلك منذ (١٨٤٤م) مع « نتشرتانيا » واستمر مع « صربيا خالصة »، ثم تبعها سنة (١٩٨٦م) « مذكرة التفاهم »، وكل برنامج أخذ

معه مئات الآلاف من أرواح المسلمين، والآن يرغب الصرب في إقامة صربيا الكبرى، ويضمون إليها: صربيا، والجبل الأسود، والبوسنة والهرسك، وسرييم، وباجكي. ثم يدبرون مجزرة للمسلمين في سنجق.. يبدو لنا التعايش في هذه المناطق ممكنًا، ولكن يخطط لمحونا، وبذلك يحدد لنا الآخرون هويتنا، وأسماءنا واللغة التي نتكلم بها.

كان الجميع يحدقون في حمزة، لقد كان يكلمهم قبل ذلك عن حركات التمرد الصربية ضد المسلمين الذين يسمونهم «الأتراك» لكنه لم يسبق أن تكلم كهذه المرة.. فكل كلمة قالها كانت في مكانها ولها وزنها.. لم يتفوهوا بكلمة واحدة.. لم يفهموا كيف تكلم عن هذه الأمور بهدوء تام، كأن الأمر يتعلق بأناس آخرين.. وكل ما سمعوه منه أثار انزعاجهم.. لم يكن لديهم أدنى فكرة عما ينبغي عليهم أن يسألوه.

سمع صوتًا من عند الباب:

- أنت تقول يا حمزة: إننا سنفنى.

وجه حمزة نظره نحو الباب:

- أنا أحدثكم عنا نحن - المسلمين -، وماذا خطط لنا الصرب، وقد سمعتم من أجدادكم أن الصرب كانوا يذبحوننا في الحرب الأخيرة على جسر «جيليزني» ومن قبل قرأت في الكتب عن مذابح المسلمين وقتلهم، وهذه هي الإبادة الجماعية، والهدف منها هو القضاء علينا على النحو الذي تم التخطيط له في تلك البرامج الوطنية التي تنفذ الآن.

والرسالة التي قرأها لنا وسيل تتحدث عن هذا الموضوع.. لم يبق من المسلمين إلا من في البوسنة، وسنجق، وما يحدث لنا اليوم هو نتيجة مباشرة لـ «مذكرة التفاهم» التي كتبها أساتذة الصرب.

لم يصبر ظاهر، وسأل قائلًا:

- أي جنس من الناس هؤلاء الصرب.

حمزة: لقد رأيتم بأنفسكم من هم.. نشأنا معهم، وتشاركنا في السراء والضراء، ثم دخلوا بيوتنا، وذبحوا أطفالنا، فكيف يتغيرون بين عشية وضحاها.

رجال كنيستهم، والأكاديميون، ورجال السلطة، يفعلون كل ما في وسعهم؛ لجعل كراهية المسلمين قومية صربية، امتثالًا لـ «ينجوش» و «آندريدج» اللذين أصَّلا لتلك

الكراهية في كتبهم.. حتى أدرج ذلك ضمن المناهج الدراسية في المدارس، فيحفظ الطالب عن ظهر قلب نصوصًا من « إكليل الجبل ».. وعلى الرغم من إحساننا لجيراننا إلا أنهم بمجرد أن تلقوا الضوء الأخضر بدأوا بعداوتنا.. ومنذ سنين يعيش الصرب في وئام مع جيرانهم، ولكن في نفس الوقت يعيشون مع خرافاتهم، وتاريخهم المفترى الذي يذكرونه في حكاياتهم الشعبية بمناطق البلقان.. تذكروا أن ضمن برامجهم القومية أن يخالطوا المسلمين، ويدرسوا أحوالهم، ولكنهم في الوقت المناسب يستجيبون لزعمائهم ضد المسلمين.

أضاف ظاهر: وأين المسلمون؟

حمزة: نحن نتلوّى من الآلام مما يحدث لنا، فإذا خفت حدة الآلام نسينا كل شيء.. وبعد كل معاناة نعانيها نثق في جيراننا، ونفتح لهم قلوبنا.

***

٣٠

لم يسمع في الكوخ إلا صوت حمزة، فكل كلمة قالها شحذت قلوبهم.. كانوا يشعرون بذلك من أعماق قلوبهم، ولكن ليس بمثل هذا العمق، وتلك الخلفية..لا..لم يسمعوا من أحد مثل ذلك.

كان الضوء المنبعث من المصباح لا يزال يتأرجح، ويداعب الظلام داخل الكوخ الخشبي.. كان الجميع صامتين، ثم سأل وسيل بصوت مرتفع:

- كل ما قلته حق يا حمزة، ولكن هل يعني ذلك أننا ستتعرض للذبح أيضًا؟

لدى الصرب خطة، وهم ينفذونها، ونحن جزء من هذه الخطة.. هل في وسع المسلمين مقاومة تلك المخططات (البرامج القومية)؟ ويوشك أن يهاجمنا مائتا جندي صربي في الأيام المقبلة، هل نحن قادرون على صدهم؟ ماذا في وسع المسلمين فعله، إلا التلوي من الآلام، من مذبحة إلى مذبحة.

حمـزة: أنا مسرور لأنك سألت هذا السؤال، هل ستتعرض للذبح؟ وأجيبك بـ« لا »، ولماذا؟ لأننا لو بقينا في بيوتنا وسلمنا سلاحنا لكنا معرضين للذبح، لكن كل واحد منا قاوم الصرب بسلاحه، وأطلق النار عليهم، وهم الآن يخافون منا، وهم على علم أنني أواجههم ببندقية، وأنني لن أستسلم، وهذا هو سبب خوفهم مني، ويخوف بعضهم بعضًا بي، فنحن خارج خطتهم، لأننا رفضنا أن نحني رءوسنا لسكاكينهم؛ ولذلك لن يذبحونا.

فليأت منهم مئتان، فلن نولي الأدبار، بل سنبدأ نحن بمهاجمتهم. إذا كانت المصيبة في طريقها، فلن ننتظرها قاعدين، بل نستعد ونواجهها وجهًا لوجه، فعندما انطلق جيش المشركين من مكة في غزوة بدر، لقي النبي ﷺ جيشهم بجنود لم يجاوزوا ثلث عددهم، وانتصر عليهم.. يجب على المسلمين ألا يتعودوا على المجازر، وعليهم أن يدافعوا عن أنفسهم بالبنادق، وليس المشي في طابور واحد نحو الجسر.. على كل واحد منهم أن يدافع عن أرضه التي يعيش فيها لا الهروب أو دعوة الآخرين للدفاع عنها.

لو حفر المسلمون الخنادق في كل قرية يعيشون فيها، ويكون لنا قيادة موحدة؟ لما اجترأ أحد من الصرب أن يدخل قرية.. ذكرت لرفاقي قصة الرجلين المسلمين من « كونوفو » اللذين قاوما « التشتنيك » في الحرب الأخيرة ببندقيتين عاديتين لأيام، ونجوا بحياتهم.. لن نقبل الإبادة الجماعية، ويجب على هؤلاء الذين نجوا من المذابح الصربية أن يرووا هذه الأحداث أينما يكونون؛ لكي تصل إلى الجميع، لعل السياسيين

في العالـم يُدينُون هذه المجازر، ويحاكمون الصرب على جرائمهم، وعلينا أن ندافع عن حياتنا، وهذا هو السبيل الوحيد للدفاع عن البوسنة، وعلى المسلمين التحدث في أمر المقاومة كإخوة، ويبحثون معًا سبل الدفاع عن أنفسهم، ولا يتفرقون.

.. لا يبقى من الحياة إلا الذكريات، ونحن ننسى حتى الآن كل ما أصابنا.. تذكروا هذه الرسالة التي قرأها عليكم وسيل، فقد كان هناك مساجد في صربيا، وأحرقها « كاراجوج » ولم يبـق منها إلا ما في البوسنة، والآن بدأ « سلوبودان ميلوسيفتش » و« رادوفان كارادينش ».

لماذا يقدم الصرب التضحية للذئب؟

حمـزة: وفقًا للأساطير الصربية التي تقول: أن يضحى للذئب بشاة، فالذئب يتعطش للدماء.. يذبح الخراف في حظيرتها، ويمص دماءها، ولا يختار أيها تكون أولًا حتى يشبع ويتركها دون أن يأكل لحومها.. تنزعج الخراف لقدومه.. فتجري داخل الحظيرة.. لا ملجأ لها للفرار لم يبق لها إلا انتظار الجلاد.. حتى وإن وجدت ملجأ فهي لا تزال تنتظر الذئب لأن الغنم دائمًا تنتظر.. يقول الصرب:

إن الغنم تذبح كأضحية للذئب.. اعلموا أنهم في هذه الأيام يتذكرون العادات والتقاليد القديمة، واسألوا أنفسكم لماذا هم في حاجة الآن إلى الذئب والخروف! على أي حال إنكم لن تملوا حتى الفجر، ولكن حان وقت صلاة العشاء.. هاتوا المصباح معكم إلى الغدير، ونسأل اللَّه أن يغشينا نعاسًا أمنة منه، وأن نستيقظ مستريحين ثابتين... آمين.

* * *

٣١

أسوأ شيء يمكن أن يحدث لمسافر في فصل الخريف، هو نزول مطر غزير، وهو يواجه الريح التي تهب من أعلى جبل « ماغليتش »، وأسوأ من ذلك أن يكون عليه الوصول إلى القرية أسفل الجبل قبل حلول الظلام.

فإذا أمطر المطر غزيرًا، وهبت العاصفة لايجرؤ أي سائق أن يوقف شاحنته المحملة بالخشب إلى جانب الطريق لأنه حينذاك لا يسيطر على هذه الشاحنة الضخمة التي تسير في الأخاديد الموحلة العميقة، التي لا يستطيع تجنبها، والصخور الضخمة، وأشجار الزان القديمة ذات الجذور المتشابكة التي يدفعها السيل أسفل المنحدر على الطريق، وتكاد أن تشتبك مع محرك الشاحنة، وتعطل حركتها.

كانت هناك أيام يتحرك فيها كل شيء في الطريق، في دوامة هوائية.. لا تستطيع رؤية شيء.. يجلس السائق ورفاقه في مقصورة الشاحنة منتظرين أن تخف قوة العاصفة، وأحيانًا يستمر هبوبها حتى بداية الليل، فلا يستطيعون الذهاب ولا العودة، فيقضون ليلهم في الشاحنة، فتكون تلك الليلة بالنسبة لهم مخيفة؛ لأنهم لوحدهم يشعرون أن كل شيء يهاجمهم، وهم لا يرون ما يحيط بهم، فلا يبقى لهم إلا الانتظار.

العاصفة تهز كل شيء، فتقلع الأشجار، وتضرب بها الشاحنة لكنها لا تقلبها؛ لثقل الخشب، وانسيابيته، مما يخفف قوة الريح.

في عمق الغابة يمكن أن يسمع تمزق فروع الأشجار، وصياح الحيوانات من الرعب، وهدير الزوابع..تتدفق البرودة داخل مقصورة السائق، وتتسلل إلى عظامه.

هذه هي العاصفة التي تصيب المسافرين في فصل الخريف.. خاطب حمزة نفسه بينما كان يسير مع وسيل على أطراف حقل كبير « فيلكا »، ذلك المرعى الأخضر على حافة الغابة حيث لا يأتيها أحد إلا برودة الشتاء:

فصل الخريف على وشك القدوم، وفيه تصفر أوراق الغابة، وتتساقط، وهذا أخطر علينا من العاصفة.. كانت هذه الأفكار تدور في رأس حمزة، تزعجه، كأن أحدًا كان يهمس إليه أن الجيش الصربي سيقوم بتمشيط غابة « ماغليتش » بحثًا عنهم، لكنه لا يستطيع أن يعلم من أي اتجاه سيأتون؟ لا يزال الوقت مبكرًا على الزوابع، وعواصف الأمطار، وأسهل طريق لهم للوصول بالشاحنات هو حقل « فيلكا » الكبير، وإن كان سفرًا طويلًا، ومن المرجح أنهم سيأتون بالقرب من الغابة، ثم يصطفون، وبعد تلقي الأوامر سيبدأون بتمشيط الغابة أفقيًّا، ويتوغلون في عمق الغابة، ويتخذون الأشجار ستارًا لهم، لكنهم

سيخافون أن يتعرضوا لكمين، ولن يستطيعوا اصطحاب الشاحنات، بل سيأخذون دليلًا ليكشف لهم مسارات الغابة.

كان حمزة يعتقد ذلك في نفسه، قطع وسيل أفكاره، حيث أشار إلى تل أسفل الحقل، يرتفع إلى قمة طريق لولبي دائري ثم يتخذ منعطفًا حادًّا نحو موقعهم.

وسيـل: حمزة، ماذا ترى؟ إنهم الصرب يثقون في أنفسهم، ويعلمون أننا لا نملك أسلحة مضادة للمدرعات؛ لنصيب بها شاحناتهم.. سينطلقون ليلًا، ويطفئون أنوارهم قبل الوصول إلى الحقل؛ حتى لا تراهم كشافتنا، ويصطفون قبل طلوع الفجر؛ ليتمكنوا من التوغل في الغابة مبكرًا.

حمـزة: ماذا لو سلكوا طريقًا مختصرًا؟

وسيـل: دافيدوفيتش ضابط قديم ذو خبرة، فلو كان اكتشفكم أحد من فلاحي الصرب لأمره أن يكون دليلهم إلى الغابة؛ ليأتوكم من خلفكم، ولكن بعد اشتباككم معهم، فإن أحدًا لا يدخل الغابة، إلا أنهم يعلمون في أي الجبال تختبئون، وهذا كل ما يحتاجون إليه من معلومات، فدافيدوفيتش لا يريد أكثر من ذلك... لا يزال لدي من غريزة الضباط!!

بينما كان وسيل يتحدث كان حمزة يتابع ببصره قمم « ماغليتش » على الطريق المتعرج، ثم قال:

ـ سيكون ضربًا من الجنون لو انطلقوا بالشاحنات!

سيبني حراسنا منصات الحراسة على أطول أشجار الزان فسوف نراهم ونسمعهم.

وسيـل: استمع إلي يا حمزة، سنقوم بحفر الخنادق على طول حافة الغابة تشكل نصف دائرة حول الميدان.. فليضع آفدو، وظاهرٌ الرشاشاتِ الثقيلةَ على طرفي نصف الدائرة، وسوف يتاح لنا إطلاق النار من كل جانب، بينما يأخذ البعض الآخر مواقعهم على طول نصف الدائرة وأمر الكشافة أن يُقيموا مواقع الحراسة بالقرب من الطريق، وينبغي أن نقوم بكل ذلك الآن.

تجمعت الغيوم فوق قمم « ماغليتش » وأعتم النهار، في الوقت الذي انطلقا فيه إلى أعماق الغابة.. دعا حمزة اللّٰه في نفسه:

ـ اللّٰهم اصرف عنا بلاء المطر والريح.

* * *

٣٢

[لو أن شخصًا ما ألقى نظرة خاطفة من النافذة في منزل « رادوفيتش » المضيء لشاهد ستويانكا ويوفان المسنين يتهامسان منحنيان فوق السرير، حيث كان ينام عليه ابنهما ستويان نومًا عميقًا.

كانا يراقبانه عن كثب، فانحنيا عليه بما فيه الكفاية لئلا تفوتهم أي لحظة.. وضع يوفان يده على كتف ستويانكا، وهمس لها بصوت منخفض، فاستقامت وسارت نحو الباب، وبينما كان يوفان يفتح باب الغرفة غالبت ستويانكا نفسها إلى الوراء لتلقي نظرة أخرى على ستويان].

عاد ستويان من المعتقل في تلك الليلة في وقت متأخر، بينما كان والداه ينتظرانه.. شاغل يوفان نفسه حول منزله ليتفادى رؤية ستويانكا في عذاب انتظار ولدها الذي لم تصدق أنه سيعود.. في تلك اللحظات التي كان فيها يوفان منحنيًا على سرير ستويانكا، التي كانت نائمة، فتح باب غرفة النوم، ودخل ستويان يرتدي زيًّا عسكريًّا مموهًا.. كانت ستويانكا تنظر إلى السقف، حتى إنها لم تسمع فتح الباب، بينما استدار يوفان الذي سمعه:

- ابني!

- والدي، يوفان، وستويانكا. وبالكاد كان يهمس بهذه الكلمات.

وبينما كانت ستويانكا تحاول انتشال نفسها اقترب ستويان إليهما، واحتضنهما، وبكى بهدوء، فمدت يديها نحوه.. من نظرتها المضطربة، ونظرها الضعيف فهم كل شيء وبكى..أَنَّ يوفان أنينًا، ثم سألت ستويانكا:

- هل تقاتل حمزة؟

نطق ستويان بصعوبة: أقاتل!!

همست ستويانكا: هذا هو ابن رادوفيتش.

اهتز ستويان.. إنها لم تسأله كيف قضى وقته في المعتقل.. لا يعشش في رأسها إلا حمزة، وآل رادوفيتش.

واجه ستويان يوفان:

- أريد أن أنام، وغدًا قبل طلوع الفجر سوف يجتمع جنود الصرب أمام بيتنا، ولعل الشاحنات تسبقهم.. هل بقي من خمر « براندي » عندك شيء يا يوفان.

يـوفـان: نعم يوجد.

ستويان: أكرم بها الجيش قبل مغادرتهم لاستكمال مهمتهم.. أخبرني دافيدوفيتش أن أبرز رجال الصرب سيجتمعون عندك في المرج، وسيعلنون فيه أنه تم تحرير فوتشا.. هل عندك ما يكفي من البراندي لتقديمه لهم.

يوفان: نعم موجود.

ستويان: طلب دافيدوفيتش أن يجتمع رجال القرية؛ ليصلحوا تلك الطاولات الخشبية على المرج.

يوفان: جيد.

ستويان: أنا سأنام الآن.

تابع يوفان سيره مع ستويان إلى غرفة النوم، وكلمه بصوت منخفض حتى لا تسمعه ستويانكا.

يوفان: اسمع نصيحتي يا ستويان.. لا تكن أول المقاتلين.. فبعدًا لعظمة الصرب، ولعشيرة رادوفيتش إن أصبت في رجليك.. معاذ اللَّه! ثم يبتعد الجميع عن منزلنا مرة أخرى؛ لكي لا يشاهدوا البطل رادوفيتش المعوق.

ستويان: أعرف ذلك يا يوفان.

يوفان: لن أطفئ نور الغرفة لأن ستويانكا لا تسمح بذلك.

وبعد أن استغرق ستويان في نومه، تسلل إلى غرفته كلٌّ من ستويانكا، ويوفان.

***

٣٣

الطريق الدائرى المتعرج، مع تغريد الطيور يرتفع نحو الميدان إلى قمة الجبـل.. كأنه يغازلـه، ملتفًا حوله.. وعندما يبلغ قمة إحدى مرتفعاته ينحدر إلى جبل أسفل منه، ويلتف حوله.

لا يمكن شق طريق مستقيـم على المنحدرات الصخـرية نحو قمة الجبل بل لا بد من ذلك الطريق الدائري بزاوية حادة.

في ذلك الصباح.. سُمِعَ هدير المحركات القديمة يتصاعد، كأن سرعتها تزيد مع أنها لا تزال مكانها.. سبع شاحنات ثقيلة تتحرك على طول الطريق، وتتذبذب في منعطف الطريق الجبلي، ويبدو كأنها ستنقلب بمقصورة السائق، وتنزلق من طريقها.. لكنها زحفت على ذلك الطريق الشاق، واقتربت من قمة الجبل، وبمجرد وصولها إلى الجزء السفلي من الحقل، اتجهت مباشرة في طريقها المستقيم.

وفي أجمة من الأشجار بجوار حقل « فيلكا » في موقع يرى منه الطريق بجميع زواياه وقف حمزة ووسيل مختفيين تحت فروع الأشجار ينظران في حيرة.. أخذ حمزة نفسًا عميقًا وقال:

- كنت على حق يا وسيل.

وسيـل: دافيدوفيتش عنده انطباع أننا خائفون من هجوم هذه القوة، وكانت فكرتك أيضا أن نواجههم بالقتال.

كانا يراقبان مقاتليهم الذين هرعوا إلى مواقعهم، على طول حافة الغابة.

حمـزة: هكذا يا وسيل.. وصل الكشافة، وأخذ الجميع مواقعهم.

وسيـل: لا تدع أحدًا يطلق النار قبل أن نعطي إشارة.

حمـزة: تسير الأمور كما خططت سابقًا.. إنهم سيدخلون بالشاحنات حقل « فيلكا »، ونحن نطوقهم بخنادقنا.. وبعد أن يشكلوا صفوفهم وقبل التحرك أفقيًا سأطلب منهم الاستسلام لكنهم لن يستسلموا.

وسيـل: فعلًا.. لن يستسلموا.. وبدفع من الخوف سيبدأون بإطلاق النار.

حمـزة: في تلك اللحظة سوف أشير إلى مقاتلينا لإطلاق النار عليهم.

وسيـل: وستكون معركة قصيرة، ولن ينجوا من إطلاق النار إلا بالهروب أسفل التل.. أهم شيء أن نقدم لهم مفاجأة، ولا نقطع إطلاق النار عليهم، ولا نسمح لهم أن

يرفعوا رءوسهم، والشيء الآخر نتركه لخوفهم.. هيا ندخل الخندق.

* * *

٣٤

ركنت الشاحنات أثناء دخولها في الحقل يمينًا، واصطفت جنبًا إلى جنب، والمراعي الواسعة على امتدادهم، ثم جعل جنود الصرب يقفزون منها، يحملون أسلحتهم ويركضون في عمق المراعي حيث ينتظرهم الضابط لتشكيل صفوفهم.

الجميع كانوا في عجلة من الأمر؛ خوفًا من دخول الليل؛ لأنه كان عليهم العودة إلى الشاحنات قبل حلول الظلام. وفي بضع دقائق اصطف مائتا جندي في صفين ينتظرون تلقي الأوامر.. نشر أحد الضباط الخريطة أمام الجنود، وأخذ يحدد عليها مواقع بعصاه يذكرهم بالخطة ويشرح لهم تفاصيلها، إذ سمع فجأة صوتًا من الغابة:

- يا « دافيدوفيتش » استسلموا! أنتم محاصرون.. ألقوا سلاحكم!

في تلك اللحظة بهت جنود الصرب، وعلى الفور استلقوا على الأرض، في محاولة للنجاة بأنفسهم، وبدأوا يطلقون النار من أسلحتهم تجاه الصوت.

رشقات نارية من أسلحة مختلفة ترددت أصداؤها في أنحاء حقل « فيلكا » كان جنود الصرب يطلقون النار من خوفهم.. لم يحاولوا تحديد موقع العدو.. بلا هوادة أطلقوا النار، وغيروا على عجل خزينة رشاشاتهم.. وبينما كانوا يرقدون في المرعى يغطونها بأجسادهم، إذ انهمر عليهم وابل من الرصاص من جميع الجهات مثلما يهجم البَرَدُ على الأرض الجرداء.. لا حصن يختبئون فيه.. ومثلما لا يخطئ البرد جزءًا في تلك الأرض الجرداء فإن الرصاصات لم تخطئ كذلك طريقها.. أصواتها كأزيز الدبابير.. وبسبب الخوف الكبير لجنود الصرب الذي قذف في قلوبهم، انضموا في محاولة لإنقاذ أنفسهم من تلك الدبابير الغاضبة التي تهاجمهم من كل جانب.. كل ذلك لم يدم سوى لحظات قليلة.. هدأ صوت إطلاق النار وسمع صوت:

- أنتم تحت « نشان » رشاشاتنا يا دافيدوفيتش.

- اجمعوا الجرحى والقتلى، وحملوهم على الشاحنات، ثم انصرفوا حيثما جئتم.

لم يعد يستمع الجنود إلى ضباطهم، ولم يبحثوا عنهم بين الجثث المتراكمة على المرعى المحمر من الدماء.. يتأوه الجرحى من شدة الآلام.

سمع صوت « دافيدوفيتش »:

- اجمعوا الجرحى والقتلى في الشاحنات!!

٣٥

قبل الظهر أقام سكان « تشلبيش » الطاولات الخشبية على مرج يوفان، وغطوا الطاولة الرئيسية بملاءة زرقاء مطرزة بالنسور السوداء، ومهدبة بالـ« دانتيل » الأبيض.

ومرة أخرى أخرجت ستويانكا من بيتها الصور التي أرسلت إليها من كنيسة القديس نيكولا، تلك التي بقيت من كنيسة « كاورسكوبولي »، وهي أقدم صور.. بعضها من الذهب، كان قد أهداها إليها أثرياء فوتشا، واحتفظ بها في الكنيسة، ثم سلمها الكاهن سيكولا ليوفان.

ووراء الطاولة الرئيسية كان الجدار الذي صنع من الألواح مغطى بمفارش المائدة البيضاء، طرزت عليها النساء أهم التواريخ في تاريخ الصرب، ثم أخرجوا من بيت ريستو تمثال الذئب الحجري، ووضعوه على الطاولة بالقرب من الطاولة الرئيسية عند الجدار الأبيض. كل شيء عاد كما كان، إلا « رادوي » العجوز.

في هذه المرة كان بستان يوفان حول المرج، قاتمًا وكئيبًا، فأشجار الفاكهة لا تزال تعاني من اعتداء الرجال السكارى، وهي تظلل المائدة إلا أنه يرى في بعض فروعها ثمار البرقوق، والتفاح.. أتوا بالبراندي من قبو يوفان، ولحوم الثور من منزل ريستو.

وعند الظهيرة تقريبًا بدأ يصل أبرز الضيوف للاحتفال « بتحرير » صربينيا، ولكنهم لم يقعدوا على الطاولة الرئيسية، ولم يأتوا فرحين مسرورين، بل قائمين مكتئبين مثل بستان يوفان تمامًا.

جاءوا مهمومين، لا يتكلمون، كأن كل واحد منهم يحمل همًّا ما، يشيحون بوجوههم، ويعانون من متاعب خاصة، ويشعرون بالقلق.

تعانقوا ثلاثًا بأسرع ما يمكن، في عجلة؛ ليبتعد الواحد منهم ويأخذ مقعده على الطاولة، وكلما يأتي أحد لا يلتفت إلا إلى طاولة الطعام.

في غرفة منزل يوفان المضيئة كان يرقد ستويان معصوب الرأس بلفافة طبية.. وبجواره تجلس ستويانكا.. والآن أفاق ستويان، ورأى أمامه ستويانكا؛ فمنذ أن أصيب برصاصة نسفت خصلة من شعره وجزءًا من عظام جمجمته صلبت ستويانكا نفسها:

- حمدًا للرب.. أنت على قيد الحياة.

ستويان: أنا لا أزال حيًّا.

قام ستويان في صمت كأنه تذكر شيئًا، ثم واجه ستويانكا، وبالكاد نطق بالكلمات:

– استمعي إليَّ يا ستويانكا.. كان فى وسع حمزة أن يقتلنا جميعًا، ولكنه لم يفعل.

ستويانكا: لقد سمعت.. فالجميع يتحدثون عن ذلك.. يقولون إن شخصًا ما خانكم، وحذر حمزة.. وأثناء عودتكم أطلق أحد الجنود رصاصة عليك سهوًا من رشاشه، وأصابك في رأسك.

ستويان: أذكر جيدًا الضابط من صربيا الذي كان يجلس بجواري..فكيف يطلق علي الرصاص سهوًا.. في تلك الكنيسة يعرفون جيدًا، لماذا أرسلوني.. الصرب لا يرحمون أحدًا إذا تعلق الأمر بالمال، ولكن لا أعتقد أنك سمعتني جيدًا يا ستويانكا.. كان في وسع حمزة أن يقتلنا جميعًا.

ستويانكا: استمع يا ستويان إلى ما هو أهم من ذلك الآن.. شخص اسمه « برانكوفيتش » قال لحمزة أن ينصب كمينًا لكم في حقل « فيليكا ».. اسمعني سأقول لك الآن ما هو أكثر أهمية، حيث إنني أعرف صرب تشلبيش أفضل من أي شخص آخر.. أنت الآن أصبحت بطل رادوفيتش من تشلبيش، الذي أصيب بجرح في معركة ضد الأتراك، وتسعى لتحقيق ذلك.. ودعك من حمزة فإنهم سيحاربونه مرة أخرى، ومن حقك أيضًا أن تعلم أنني قلت للضابط « دافيدوفيتش » أن يستخدم علاقته الجيدة مع الصرب في ألمانيا ليأتوا بولديك « سافو » و« دوشان » إلى صربينيا، لأنك لن تقاتل بعد الآن.. لقد أخبرنا الطبيب أن الرصاصة قد وصلت إلى مخك، وقطعت جزءًا من رأسك.

احمر وجه ستويان بينما كانت تتحدث، وكان يتنفس بصعوبة، ثم استلقى على الوسادة، وأغلق عينيه في أمل أن يشعر بالألم ليذهب ما قالته ستويانكا بشأن ابنيه، فقد تكاثرت عليه الآلام، فكأنها تمزقه وتغرقه في بحر من الظلمات حيث انتهى فيه الواقع، وتخدر من الآلام.. كان يشعر كأن أحدًا يمزقه كل ممزق.. ثم فتح عينيه ورأى ستويانكا قائمة فوقه مرة أخرى، فقال لها:

– اخرجي من الغرفة.. لم أعد أستطيع النظر إليك.

– ما الأمر؟ ما الأمر؟

– اخرجي فحسب.

أغمض عينيه مرة أخرى.. ورفع رأسه من الوسادة، وخف ألمه بعض الشيء، حيث غادرت ستويانكا غرفته.

وفجأة سمع صراخًا، وصياحًا خارج البيت.. يرتفع أكثر فأكثر كأنها الصاعقة التي تسبق عاصفة المطر.. اهتزت جدران المنزل منها، خاطب ستويان نفسه:

- هل تعود الآلام مرة أخرى.. كان يشعر بأن مرض رأسه قد خمد.. ربما كان يتخيل.. ما هذا؟ ماذا يحدث؟ أين يوفان؟

نهض بصعوبة كبيرة، وسار باتجاه النافذة، وبينما كان بين السرير والنافذة، دخل عليه يوفان، ففتح ستويان ذراعيه ليعانقه.. لكن يوفان نزل على الأرض؛ ليخرج رشاشين آليين من تحت السرير، وأعطى إحداهما لستويان.

يوفان: يا ستويان..يا ستويان.. هاجم رجالنا الضابط « كوفاتشيفيتش » من صربيا.. يقولون: إنه خان الجيش الصربي في حقل « فيليكا »، وأخذ رجاله يدافعون عنه.. ينبغي أن نكون مستعدين.

أخذ ستويان رشاشًا، ووقف عند النافذة وقال:

- هؤلاء لم يأتوا إلى هنا.. ستسفك بينهم الدماء قريبًا.. علينا الانتظار.. وهذا سوف يمر أيضًا وينتهي، وسوف يقع في هذه المصيبة ابناي « سافو » و « دوشان »، وسأكون أنا راقد على الفراش مثلما كان يرقد نيجو، وستويانكا تحرضهم على القتال.. وأنت تأتي بالبراندي مرة أخرى.. وستنتهي هذه أيضًا (لكن علينا نسيان تمثال الذئب).

رأى ستويان رجال الضابط « كوفاتشيفيتش » يستلُّون سكاكينهم.. كرر ستويان كلمات الكاهن سيكولا سابقًا:

« اللَّهم انصر الصرب ».

* * *

نص القرار الذي عرض على مجلس الشيوخ الأمريكي بشأن مذبحة سريبرينيتسا، والتقرير الخاص/ (١٣٤) أي إس/ مجلس الشيوخ الأمريكى/ (٦) حزيران/ يوليو (٢٠٠٥م)/ التصريح بقرار مجلس الشيوخ فيما يتعلق بمذبحة سريبرينيتسا في تموز/ يوليو (١٩٩٥م). (المقدم في مجلس الشيوخ) التقرير الخاص (١٣٤) أي إس.

الكونجرس المائة والتاسع عشر.

الجلسة الأولى.

التقرير الخاص (١٣٤) أي إس.

التصريح بقرار مجلس الشيوخ فيما يتعلق بمذبحة سريبرينيتسا في تموز/ يوليو (١٩٩٥م). في مجلس الشيوخ في الولايات المتحدة.

(٩ مايو ٢٠٠٥م).

قدم السيد سميث (لنفسه، وللسيد جو بايدن) مشروع القرار التالي، والذي أحيل إلى لجنة العلاقات الخارجية.

قرار التصريح بقرار مجلس الشيوخ فيما يتعلق بمذبحة سريبرينيتسا في تموز/ يوليو (١٩٩٥م). حيث إن الآلاف من الرجال والفتيان الذين بحثوا عن السلامة في « المنطقة الآمنة » المحددة من قبل الأمم المتحدة في سريبرينيتسا في البوسنة والهرسك تعرضوا للقتل على يد القوات الصربية العاملة في ذلك البلد في يوليو/ تموز (١٩٩٥م)، تحت حماية قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة؛ وحيث إن عمليات العدوان والتطهير العرقي التي ارتكبتها القوات الصربية البوسنية أثناء السيطرة على الأراضي المحيطة بها، والتي بدأت في نيسان/ أبريل (١٩٩٢م) قد أدت إلى تدفق أعداد كبيرة من البوشناق يلتمسون الحماية في سريبرينيتسا وضواحيها، والتي حددها مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة « المنطقة الآمنة » في قرار مجلس الأمن رقم (٨١٩) من(١٦) نيسان/ أبريل (١٩٩٣م)؛ وحيث إن قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة والموجودة في سري تبدأ يوم/ (٦) يوليو (١٩٩٥م)، برينيتسا كانت تتألف من كتيبة حفظ السلام الهولندية مع ممثلين ساميين للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين واللجنة الدولية للصليب الأحمر، ووكالة الإغاثة الطبية الإنسانية ومنظمة (أطباء بلا حدود) للمساعدة في توفير الإغاثة الإنسانية للسكان المشردين الذين يعيشون في بيئات مكتظة وظروف العوز والمرض؛ وحيث إن قوات صرب البوسنة قامت بمحاصرة المقاطعة في أوائل عام (١٩٩٥م)، وحرمان

السكان من المساعدات الإنسانية والاتصال الخارجي، والحد من قدرة الكتيبة الهولندية لحفظ السلام على ردع العدوان أو الاستجابة بفعالية لتدهور الوضع؛ وحيث إن قوات صرب البوسنة قامت بمهاجمة قوة حماية البؤر الاستيطانية يوم (٦) يوليو (١٩٩٥م)، وسيطرت على المقاطعة المعزولة، وألقت القبض على الجنود الهولنديين كرهائن، بعد مناوشات مع المدافعين المحليين، وفي نهاية المطاف سيطرت على مدينة سريبرينيتسا في (١١) يوليو (١٩٩٥م)؛ وحيث إن ثلث عدد سكان سريبرينيتسا تقريبًا، بما في ذلك عدد صغير من الجنود قاموا بمحاولة يائسة لاجتياز خطوط القوات الصربية البوسنية الى منطقة آمنة نسبيًّا من الأراضي التي يسيطر عليها البوسنيون، لكن العديد منهم قتلوا على يد دوريات وكمائن؛ وحيث إن بقية السكان طلبوا الحماية من الكتيبة الهولندية لحفظ السلام في مقرها الرئيسي في قرية بوتوكاري شمال سريبرينيتسا، ولكن الكثير من هؤلاء السكان ضبطوا بشكل عشوائي من قبل القوات الصربية البوسنية ليتم ضربهم أو اغتصابهم، أو قتلهم، وحيث إن قوات صرب البوسنة قامت - بترحيل النساء والأطفال وكبار السن في الحافلات، وقامت باحتجاز البوشناق الذكور البالغة أعمارهم أكثر من (١٦) سنة في نقاط تجمع ومواقع في البوسنة والهرسك وأبقتهم تحت سيطرتها.

ثم قامت وبإجراءات موجزة - بقتل ودفن الأسرى في مقابر جماعية؛ وحيث إن ما يقرب من (٢٠) في المائة من السكان في سريبرينيتسا والذي بلغ في ذلك الوقت ما لا يقل عن (٧,٠٠٠) وربما أكثر من ذلك بآلاف قد اغتيلوا، وحيث إن الأمم المتحدة والدول الأعضاء فيها اعترفت بفشلها إلى حد كبير في اتخاذ الإجراءات والقرارات التي كان من الممكن أن تردع العدوان على سريبرينيتسا ومنع المذبحة التي تلت ذلك، بما في ذلك التقرير المطول الصادر عن حكومة هولندا في (١٠) نيسان/ أبريل (٢٠٠٢م) تحت عنوان: سريبرينيتسا « المنطقة الآمنة » إعادة الإعمار، الخلفية، العواقب وتحليلات السقوط؛ وحيث إن قوات صرب البوسنة، وعلى أمل إخفاء الدليل على مذبحة سريبرينيتسا، قامت بنقل الجثث من مواقع المقابر الجماعية الأولية لكثير من المواقع الثانوية المنتشرة في جميع أنحاء البوسنة والهرسك والواقعة تحت سيطرتها؛ وحيث إن مجزرة سريبرينيتسا كانت من بين أسوأ الفظائع الرهيبة التي حدثت في البوسنة والهرسك من نيسان/ أبريل (١٩٩٢م) إلى نوفمبر (١٩٩٥م)، والتي حدثت خلال سياسات العدوان والتطهير العرقي التي اتبعتها قوات صرب البوسنة، وبدعم مباشر من سلطات جمهورية يوغوسلافيا الاتحادية (صربيا والجبل الأسود) والتي أدت إلى

تشريد أكثر من (٢٠٠٠٠٠٠) شخص، ومقتل ما يقدر بنحو (٢٠٠٠٠٠)، وتعريض عشرات الآلاف للاغتصاب أو للتعذيب وسوء المعاملة، وتعريض المدنيين الأبرياء في سراييفو وغيرها من المراكز الحضرية للقصف وهجمات القناصة؛ وحيث إن المادة (٢) من اتفاقية المعاقبة على جريمة الإبادة الجماعية، والمبرمة في باريس فى (٩) ديسمبر (١٩٤٨م)، ودخلت حيز التنفيذ في (١٢) يناير (١٩٥١م)، تعرف الإبادة الجماعية بأنها أي من الأفعال التالية المرتكبة مع قصد التدمير الكلي أو الجزئي لمجموعة قومية أو إثنية أو عرقية أو دينية:

(أ) قتل أعضاء من الجماعة.

(ب) إلحاق أذى جسدي أو عقلي جسيم بأفراد الجماعة.

(جـ) والإخضاع المتعمد لمجموعة ما لظروف حياة يراد من ورائها تدميرها كليًا أو جزئيًا.

(د) فرض تدابير تستهدف الحؤول دون إنجاب الأطفال داخل الجماعة.

(هـ) نقل الأطفال عنوة من الجماعة إلى جماعة أخرى.

وحيث إنه وفي (٢٥) أيار/ مايو (١٩٩٣م) قام مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة باعتماد قرار مجلس الأمن (٨٢٧)، وإقامة أول محكمة لجرائم الحرب الدولية في العالم، والمحكمة الجنائية الدولية ليوغوسلافيا السابقة، والواقعة في لاهاي في هولندا، واتهام المحكمة الجنائية الدولية بالمسؤولة عن التحقيق من أجل ملاحقة الأشخاص المشتبه بارتكابهم جرائم حرب وجرائم إبادة جماعية وجرائم ضد الإنسانية، وانتهاكات جسيمة لاتفاقية جنيف عام (١٩٤٩م) على أراضي يوغوسلافيا السابقة منذ عام (١٩٩١م)؛ وحيث إن العديد من أعضاء صرب البوسنة والقادة السياسيين على مختلف المستويات من المسؤولية اتهموا بارتكاب انتهاكات خطيرة لاتفاقية جنيف لعام (١٩٤٩م)، وانتهاكات لقوانين أو أعراف الحرب والجرائم ضد الإنسانية والإبادة الجماعية والإبادة الجماعية المرتبطة بمجزرة سريبرينيتسا، وقد تم محاكمة البعض منهم وحكم عليهم في حين أن آخرين – بمن فيهم رادوفان كاراديتش وراتكو ملاديتش – ما زالوا مطلقي السراح؛ وحيث إن المجتمع الدولي، بما في ذلك الولايات المتحدة، واصلوا تقديم الموظفين والموارد، بما في ذلك الدعم العسكري المباشر لمنع المزيد من العدوان والتطهير العرقي، وللتفاوض والمساعدة لضمان التنفيذ الكامل للإطار العام لاتفاقية

السلام في البوسنة والهرسك، والتي بدأت في دايتون، أوهايو في (٢١ نوفمبر ١٩٩٥م)، والمبرمة في باريس (١٤ ديسمبر ١٩٩٥م)، بما في ذلك التعاون مع المحكمة الجنائية الدولية ليوغوسلافيا السابقة والآن، ونتيجة لكل ما سبق، **فإنه مجزوم أن قرار مجلس الشيوخ هو:**

(١) أنه ينبغي علينا أن نتذكر ونكرم رسميًّا الآلاف من الأبرياء الذين قتلوا في سريبرينيتسا في البوسنة والهرسك في تموز/ يوليو عام (١٩٩٥م)، جنبًا إلى جنب مع جميع الأفراد الذين يقعون ضحايا أثناء الصراع والإبادة الجماعية في البوسنة والهرسك من (١٩٩٢م) إلى (١٩٩٥م).

(٢) أن سياسات العدوان والتطهير العرقي والتي نفذت على يد القوات الصربية في البوسنة من (١٩٩٢م) حتى (١٩٩٥م) تتفق مع تعريف جريمة الإبادة الجماعية في المادة (٢) من اتفاقية منع ومعاقبة جريمة الإبادة الجماعية، التي حررت في باريس فى (٩) ديسمبر (١٩٤٨م)، ودخلت حيز التنفيذ في (١٢)يناير (١٩٥١م).

(٣) أنه ينبغي علينا تذكر وتكريم الرعايا الأجانب رسميًّا، بمن فيهم مواطنو الولايات المتحدة، الذين خاطروا، وخسروا في بعض الحالات حياتهم في البوسنة والهرسك بينما كانوا يعملون من أجل السلام.

(٤) يجب على الأمم المتحدة والدول الأعضاء أن تقبل نصيبها من المسؤولية بالسماح لمذبحة سريبرينيتسا والإبادة الجماعية أن تحدث في البوسنة والهرسك من (١٩٩٢م) حتى (١٩٩٥م) بعدم اتخاذ إجراءات حاسمة وكافية في الوقت المناسب، وينبغي على الأمم المتحدة والدول الأعضاء أن تسعى باستمرار من أجل التأكد من أن هذا الفشل لن يتكرر في الأزمات والصراعات المستقبلية.

(٥) أنه من المصلحة الوطنية للولايات المتحدة أن يحاسب أولئك الأفراد الذين يتحملون مسؤولية جرائم الحرب والإبادة الجماعية والجرائم ضد الإنسانية، وانتهاكات اتفاقيات جنيف لعام (١٩٤٩م) التي ارتكبت في البوسنة والهرسك عن أفعالهم.

(٦) ينبغي على جميع الأشخاص المتهمين من قبل المحكمة الجنائية الدولية ليوغوسلافيا السابقة أن يتم القبض عليهم ونقلهم إلى لاهاي دون مزيد من التأخير، وعلى جميع البلدان أن تفي بالتزاماتها وأن تتعاون تعاونًا تامًّا مع المحكمة الجنائية الدولية في جميع الأوقات.

(٧) ينبغي على الولايات المتحدة مواصلة دعم:

أ - استقلال البوسنة والهرسك وسلامتها الإقليمية.

ب - السلام والاستقرار في جنوب شرق أوروبا ككل.

جـ - حق جميع الناس الذين يعيشون في جنوب شرق أوروبا، بغض النظر عن خلفيتهم القومية أو العرقية أو الإثنية أو الدينية:

(١) للعودة إلى منازلهم والتمتع بمزايا المؤسسات الديمقراطية، وسيادة القانون، والفرص الاقتصادية.

(٢) لمعرفة مصير أقاربهم وأصدقائهم المفقودين.

قرار البرلمان الأوروبي بشأن سريبرينيتسا:

* بالنظر إلى قـراره في (٧) تموز/ يوليو (٢٠٠٥م) بشأن البلقان: بعد مرور (١٠) سنوات على سريبرينيتسا.

* وبالنظر إلى اتفاقية الاستقرار والشراكة بين الاتحاد الأوروبي والبوسنة والهرسك والتي وقعت في (١٦) حزيران (٢٠٠٨م)، وإيجابيات عضوية الاتحاد الأوروبي التي حصلت عليها جميع بلدان غرب البلقان في قمة الاتحاد الأوروبي في ثيسالونيكي في عام (٢٠٠٣م).

* وبالنظر إلى المادة ١٠٣ (٤) من نظامها الداخلي.

(أ) حيث إنه وفي تموز/ يوليو من عام (١٩٩٥م) وقعت بلدة سريبرينيتسا البوسنية - والتي كانت في ذلك الوقت منطقة معزولة حددت منطقة محمية من قبل الأمم المتحدة بقرار مجلس الأمن المؤرخ (١٦) نيسان/ أبريل (١٩٩٣م) - في أيدي الميليشيات الصربية التي يقودها الجنرال راتكو ملاديتش، وبتوجيه من رئيس جمهورية صربسكا، رادوفان كارادزيتش.

(ب) حيث إنه وخلال عدة أيام من المجزرة بعد سقوط سريبرينيتسا، أكثر من (٨٠٠٠) مسلم من الرجال والفتيان، الذين سعوا لسلامتهم في هذه المنطقة تحت حماية قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة، أعدموا من قبل قوات صرب البوسنة بقيادة الجنرال ملاديتش والوحدات شبه العسكرية، بما في ذلك وحدات الشرطة الصربية غير النظامية التي دخلت الأراضي البوسنية من صربيا؛ فـي حين أن ما يقرب من (٢٥,٠٠٠)

من النساء والأطفال والمسنين كانوا قد رحلوا قسرًا، مما يجعل من هذا الحدث أكبر جريمة حرب تقع في أوروبا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية.

(جـ) حيث إن هذه المأساة، والتي أعلنت عملًا من أعمال الإبادة الجماعية من قبل المحكمة الجنائية الدولية، وقعت في ملاذ آمن حدد من قبل الأمم المتحدة، بالتالي فقد أصبح رمزًا لعجز المجتمع الدولي عن التدخل في النزاع وحماية السكان المدنيين.

(د) وبالنظر إلى الانتهاكات المتعددة لاتفاقيات جنيف التي ارتكبتها قوات صرب البوسنة ضد السكان المدنيين في سريبرينيتسا، بما في ذلك عمليات ترحيل الآلاف من النساء والأطفال والمسنين واغتصاب عدد كبير من النساء.

(هـ) حيث إنه وعلى الرغم من الجهود الهائلة التي بذلت حتى الآن لاكتشاف ونبش المقابر الجماعية والفردية، والتعرف على جثث الضحايا، فإن عمليات التفتيش التي جرت حتى الآن لا تؤهل لإعادة بناء كامل للأحداث التي وقعت في سريبرينيتسا وما حولها.

(و) وحيث إنه لا يمكن أن يوجد سلام حقيقي بدون عدالة، وحيث إن التعاون الكامل وغير المقيد مع المحكمة الدولية لا يزال شرطًا أساسيًّا لاستمرار مزيد من عملية الاندماج في الاتحاد الأوروبي لبلدان غرب البلقان.

(ز) وحيث إن جنرال جيش صرب البوسنة راديسلاف كرستيتش هو أول شخص أدين من قبل المحكمة الجنائية الدولية بالمساعدة والتحريض على الإبادة الجماعية في سريبرينيتسا، في حين أن أبرز المتهمين، وراتكو ملاديتش، ما زال طليقًا ما يقرب من أربعة عشر عامًا بعد الأحداث المأساوية، وحيث إنه من المرحب به أن تم تحويل رادوفان كاراديتش الآن إلى المحكمة الجنائية الدولية.

(ح) وحيث إن إضفاء الطابع المؤسسي على يوم للذكرى هي أفضل وسيلة لتكريم ضحايا المذابح وتوجيه رسالة واضحة للأجيال المقبلة.

١ - يحتفل البرلمان ويكرم جميع ضحايا الفظائع خلال الحروب في يوغوسلافيا السابقة، ويعرب عن تعازيه وتضامنه مع أسر الضحايا، والذين يعيش كثير منهم دون تأكيد نهائي لمصير الآباء والأبناء والأزواج أو الإخوة، ويقر بأن هذا الألم المستمر قد تفاقم بسبب الفشل في تقديم المسؤولين عن هذه الأفعال إلى العدالة.

٢ - يدعو المجلس واللجنة لإحياء مناسبة الذكرى السنوية لسريبرينيتسا - بوتوكاري عمل من أعمال الإبادة الجماعية من خلال دعم اعتراف البرلمان الأوروبي في (١١) تموز كيوم ذكرى الإبادة الجماعية في سريبرينيتسا في جميع أنحاء الاتحاد الأوروبي، وندعو جميع بلدان غرب البلقان في أن تحذو حذوها.

٣ - يدعو إلى بذل مزيد من الجهود لتقديم بقية الهاربين إلى العدالة، ويعرب عن دعمه الكامل للعمل القيم والصعب للمحكمة الجنائية الدولية ويشدد على أن تقدم المسؤولين عن المجازر في سريبرينيتسا وحولها للعدالة هو خطوة مهمة نحو تحقيق السلام والاستقرار في المنطقة.

٤ - يشدد على أهمية المصالحة كجزء من عملية التكامل الأوروبي، ويؤكد على الدور المهم للطوائف الدينية، ووسائط الإعلام ونظام التعليم في هذه العملية، بحيث يتغلب المدنيون من كافة الإثنيات على القلق بشأن الاستقرار والنمو الاقتصادي، وتحث جميع البلدان إلى بذل المزيد من الجهود للتصالح مع الماضي الصعب والمضطرب.

٥ - يوعز إلى رئيسه بإرسال هذا القرار إلى المجلس، واللجنة، وحكومات الدول الأعضاء، وإلى الحكومة والبرلمان في البوسنة والهرسك وكياناتها وإلى حكومات وبرلمانات دول غرب البلقان.

* * *

بريس ريليسيس.

(٢٦)/ شباط/ (٢٠٠٧م).

تطبيق اتفاقية بشأن منع ومعاقبة جريمة الإبادة الجماعية (البوسنة والهرسك ضد صربيا والجبل الأسود).

تصريح القاضي روسالين هنغيز رئيس محكمة العدل الدولية لصحيفة بريس (٢٦)/ شباط/ (٢٠٠٧م).

سيداتي وسادتي:

شكرًا لحضوركم، هدفي هو أن أحاول شرح بعض الأمور القانونية في هذه القضية المعقدة للغاية بلغة مفهومة وسهلة. وأنا أيضًا على وعي تام كم هو مهم أن تكون صحيفة بريس قد فهمت حقيقة ما قلته وأنها ستنقله بشكل صحيح في الإبلاغ عن هذه القضية.

تعد هذه أول دعوى قضائية تكون فيها ادعاءات الإبادة الجماعية رفعت من قبل دولة ضد أخرى، وقد كانت ولا زالت محكمة العدل الدولية شديدة الحساسية للمسؤوليات التي وقعت عليها، وقد قامت المحكمة كما فعلت دائمًا بتطبيق القانون بدقة في كل واحدة من القضايا التي سبقت هذه القضية، ولقد أدت هذه الاعتبارات القضائية في هذا الحدث لاختلاط المشاعر حتى الآن بسبب اهتمام الفريقين، هذا لا يعني بالطبع أن المحكمة كانت ستعدو وراء تسوية سياسية ناهيك عن أية نتائج مسبقة.

سأبدأ بتعليقين اثنين:

أولًا: على الرغم من أن جلسات الاستماع في هذه القضية تمت على أساس الوقائع الموضوعية، إلا أن صربيا والجبل الأسود قدمت المزيد من الادعاءات التي ترتبط بالتغيرات التي طرأت على وضع صربيا ومونتغرو (الجبل الأسود) دعت إلى هذه المسألة على الرغم من أن المحكمة وجدت في حكم سابق أنه كان لديها الحق في النظر في جوهر هذه القضية ووجدت المحكمة أن الحكم الصادر في وقت سابق لصالح القضاء لا زال قائمًا، كان القرار نهائيًّا، عندما نقول: إن هذا القرار نهائي نعني أنه كان نهائيًّا وملزمًا للطرفين، يمكننا أن نأخذ بحسابنا التطورات الجديدة ولكن فقط من خلال تقديم طلب رسمي للمراجعة. في الحقيقة لقد قدم مثل هذا الطلب سابقًا من قبل المدعى عليه وقد رفضته المحكمة في (٣) شباط (٢٠٠٣م).

ثانيًا: بعد وقت قصير من اختتام جلسات الاستماع الشفوية في مايو (٢٠٠٦م)

أعلنت الجبل الأسود استقلالها على أساس نتائج الاستفتاء. هذا يثير السؤال: من هو الآن الطرف المدعى عليه في القضية، وكانت المحكمة قد ردت على ذلك بالقول أن في تاريخ هذا الحكم، كانت صربيا فقط هي المدعى عليه. ومع ذلك أشارت المحكمة إلى أن أية مسؤولية عن الأحداث الماضية تشمل في الوقت الموضوعي الدولة المرتبة لصربيا والجبل الأسود، خذوا هذا التفسير بعين الاعتبار عندما تسمعونني أشير إلى (المدعي العام).

كما تعلمون الحكم لصالح محكمة العدل الدولية يقوم على الموافقة. قد توافق الدول عمومًا على حكم المحكمة عن طريق تقديم إعلان بموجب المادة رقم (٣٦)، الفقرة (٢) من النظام الأساسي للمحكمة يمكن للدول أن تأتي إلى المحكمة بالاتفاق لهذه الغاية المذكورة كما يجوز للدول أيضًا الموافقة من خلال أن تصبح أطرافًا في أيٍّ من المعاهدات الثلاثمائة التي تعود إلى المحكمة فيما يتعلق بتسوية المنازعات الناشئة عن تطبيق أو تفسير تلك المعاهدات.

في هذه الحالة، حكم المحكمة هو فقط على أساس المادة رقم (٩) من اتفاقية الإبادة الجماعية. هذا يعني أن المحكمة لا تملك سلطة للحكم على الانتهاكات المزعومة بموجب القانون الدولي بخلاف الإبادة الجماعية، كما حددتها اتفاقية الإبادة الجماعية.

من المهم أن نفهم هذا الأمر لأننا في هذه القضية واجهنا أدلة جوهرية للأحداث في البوسنة والهرسك قد ترقى لجرائم حرب أو جرائم ضد الإنسانية ولكن لم يكن لدينا سلطة لوضع نتائج في هذا الصدد. لقد كان اهتمامنا فقط بالإبادة الجماعية. وأود أن أضيف: الإبادة الجماعية، بالمعنى القانوني لهذا المصطلح وليس بالمعنى الواسع الذي يستخدم في بعض الأحيان.

لقد كانت هذه القضية حقيقية للغاية. جلسات الاستماع استمرت لمدة شهرين ونصف، وقد تم استجواب الشهود وقدمت كل الأطراف آلاف الصفحات من الأدلة المستندية، حوالي ثلث الحكام كان مكرسًا لتحليل هذه الأدلة وإعطاء نتائج تفصيلية عما إذا كانت الأعمال الوحشية المزعومة قد حدثت، وما إذا كانت هناك نية محددة من جانب مرتكبي الجرائم لتدير كليًّا أو جزئيًّا للمجموعة المحمية والتي تم تعريفها من قبل المحكمة بمسلمي البوسنة. إن هذه النية المحددة أو النية الخاصة التي تميز جريمة الإبادة الجماعية عن غيرها من الجرائم الأخرى في هذه القضية لم يكن كافيًا

لمقدم الطلب إظهار على سبيل المثال حدوث جرائم قتل متعمدة غير قانونية لمسلمي البوسنة. في بعض الأحيان كان هناك أمور أكثر مطلوبة لتكون دليلًا على أن جرائم القتل قد ارتُكبت بنية تدمير المجموعة التي ينتمي لها الضحايا.

نظرًا للخطورة الاستثنائية لجريمة الإبادة الجماعية، طلبت المحكمة أن تكون الادعاءات مثبتة من قبل أدلة تعتبر « حاسمة تمامًا » لقد اتخذنا قراراتنا الخاصة حول الحقيقة استنادًا إلى الأدلة المعروضة علينا ولكن أيضًا استفدنا كثيرًا من النتائج التي توصل إليها الحقيقة والتي بذلت من قبل المحكمة الجنائية الدولية ليوغسلافيا السابقة، عندما تم التعامل مع الأفراد المتهمين وجدت المحكمة أنه مثبتٌ بشكل لا يتطرق إليه الشك أن أعمال القتل الجماعي وإلحاق أذًى جسيم جسديًّا أو عقليًّا قد ارتكبت في مناطق محددة ومعسكرات الاعتقال في جميع أنحاء البوسنة والهرسك، كما وجدنا أيضًا أنه كان هناك تعمدٌ في التسبب في ظروف الحياة المروعة.

في كثير من الحالات كان مسلمو البوسنة هم ضحايا هذه الأفعال ومع ذلك، ومع استثناءٍ واحد والذي سأعود إليه، الأدلة لم تظهر أن الأعمال الرهيبة قد ترافقت مع وجود نية محددة للقضاء على الجماعة وهو المطلوب لإثبات جريمة الإبادة الجماعية.

جادل مقدم الطلب بأن النية المحددة يمكن الاستدلال عليها من طبيعة الأعمال الوحشية. المحكمة لم يمكنها قبول هذا لأن النية المحددة يجب أن تظهر بشكل مقنع بإشارة إلى الظروف الخاصة. وجود نمط من السلوك سيكون مقبولًا فقط كدليل على وجوده في حال أن الإبادة الجماعية هي التفسير الوحيد الممكن للسلوك المعني. ومع ذلك كان هناك استثناء مهم لهذه النتائج. وجدت المحكمة أن هناك أدلة قاطعة على أعمال القتل وإلحاق ضرر جسدي أو عقلي جسيم والتي استهدفت مسلمي البوسنة وقعت في سريبرينيتسا في تموز/ يوليو (١٩٩٥م)، وقد وجهت هذه الأفعال من جانب الموظفين الرئيسيين لجيش صرب البوسنة والذين تواجدت لديهم النية المحددة المطلوبة لتهمة الإبادة الجماعية.

وبعد أن تقرر أن الإبادة الجماعية قد ارتكبت في سريبرينيتسا، كانت الخطوة التالية للمحكمة أن تقرر ما إذا كان المدعى عليه مسؤولًا أمام القانون عن تصرفات قوات صرب البوسنة وفيما إذا كان جيش صرب البوسنة جهازًا لحكومة صربيا والجبل الأسود (كما كانت البلاد تسمى آنذاك) إذًا المدعي العام يكون مسؤولًا عن تصرفات قوات صرب

البوسنة، كما سيكون المدعى عليه مسؤولًا إذا كانت قوات صرب البوسنة قد تصرفت بناء على تعليمات أو توجيهات أو كانت تحت سيطرة المدعى عليه.

وجدت المحكمة - في ضوء المعلومات المتوفرة لديها - أنه لم يثبت أن المجازر في سريبرينيتسا قد ارتكبت من قبل أجهزة المدعى عليه، كما لم يثبت أن تلك المجازر قد ارتكبت بناء على تعليمات أو توجيهات من المدعى عليه. ولا أن المدعى عليه قد مارس سيطرة فعلية على العمليات في سياق تلك المجازر التي ارتكبت. هذا هو المقياس في القانون الدولي. في واقع الأمر، صحيح أن الدلائل تشير إلى أن قرار قتل السكان الذكور البالغين من مجتمع مسلمي البوسنة في سريبرينيتسا قد اتخذته بعض أعضاء الهيئة الرئيسة لجيش صرب البوسنة من دون تعليمات أو سيطرة فعلية من جانب جمهورية يوغسلافيا الاتحادية.

أود أن أقول بضع كلمات في هذه المرحلة عن وجود وحدة شبه عسكرية تعرف باسم « سكوربيونز ». قدم مقدم الطلب إلى المحكمة خلال المرافعات الشتوية تسجيل فيديو يظهر عملية إعدام من قبل القوات شبه العسكرية لستة من مسلمي البوسنة في ترنوفو، وهي منطقة قريبة من سريبرينيتسا في تموز/ يوليو (١٩٩٥م). وقد ظهر هذا الفيديو على شاشات التلفزيون الصربية أثناء محاكمة ميلوسوفيتش في محكمة الجزاء الدولية. بالإضافة إلى هذا الفيديو، قدمت إلى المحكمة أدلة غيرها من قبل مقدم الطلب بحجة أن المدعى عليه كان مسؤولًا عن الأعمال التي تقوم بها « سكوربيونز» وقد قامت المحكمة بتقييم جميع المعلومات التي وصلت إليها بصورة منهجية.

على المحكمة فقط أن تأخذ قرارت على أساس المواد المعروضة عليها. وعلى أساس هذه المواد، فإن المحكمة لم تتمكن من الوصول إلى المدعى عليه الذي كان مسؤولًا عن الأعمال التي قام بها « سكوربيونز » في ترنوفو في منتصف عام (١٩٩٥م).

اسمحوا لي أن أقول شيئًا عن مسألة التواطؤ في اتفاقية منع الإبادة الجماعية. على المحكمة أن تنظر فيما إذا كان المدعى عليه قد وفّر الوسائل اللازمة لتمكين أو تسهيل الأحداث التي وقعت في سريبرينيتسا مع وعيه الكامل بأنّ المعونة المقدمة ستستخدم لارتكاب جريمة الإبادة الجماعية.

من الواضح أن المدعى عليه قدم مساعدات كبيرة جدًّا ذات طابع سياسي وعسكري ومالي لجمهورية صربسكا. كان ذلك قبل وقت طويل من الأحداث المأساوية التي

وقعت في سريبرينيتسا وقد استمرت المعونة خلال تلك الأحداث. لكن شرطًا حاسمًا لم يتحقق وهو أن المحكمة لا تملك دليلًا قاطعًا على أن سلطات المدعى عليه، عند تقديم هذه المساعدات، كانت تدرك تمامًا أن قوات صرب البوسنة كانت لديها النية المحددة التي تجسد الإبادة الجماعية.

ليس من السهل فهم التمييز في القانون بين التواطؤ في الإبادة الجماعية وخرق الواجب لمنع الإبادة الجماعية. اسمحوا لي أن أحاول تفسير ذلك ببضع كلمات. المحكمة لم تثبت بشكل قاطع أن قيادة جمهورية يوغسلافيا الاتحادية والرئيس ميلو سوفيتش، قبل كل شيء، كانوا مدركين تمامًا للكراهية العميقة التي سادت بين صرب البوسنة وبين المسلمين في سريبرينيتسا، وأن المجازر هناك كان من المحتمل أن تحصل وأنه قد لا تكون لديهم معلومات عن وجود نية محددة لارتكاب جريمة الإبادة الجماعية. ولكن يجب أن يكون واضحًا أنه كان هناك خطر جدي للإبادة الجماعية في سريبرينيتسا. هذا عامل مهم لأنه ينشط واجب منع الإبادة الجماعية والذي أثري بالمادة رقم (١) من اتفاقية منع الإبادة الجماعية.

اسمحوا لي أن أوضح أن المسألة القانونية هنا هي ليست ما إذا كان المدعى عليه قد استفاد من الصلات القوية التي كانت تربطه مع جمهورية صربسكا وجيش صرب البوسنة، فالإبادة الجماعية عند ذلك كان سيتم تجنبها. المسألة القانونية هي ما إذا كان المدعى عليه قد اتخذ كافة الإجراءات التي كانت ضمن سلطته لمنع الإبادة الجماعية.

وجدت المحكمة أن المدعى عليه كان بإمكانه - وكان ينبغي عليه - التحرك لمنع الإبادة الجماعية ولكنه لم يفعل ذلك. ولم يفعل المدعى عليه شيئًا لمنع حدوث مذابح سريبرينيتسا، على الرغم من الروابط السياسية والعسكرية والمالية بين السلطات وجمهورية صربسكا وجيش صرب البوسنة؛ ولذلك فهو ينتهك التزامه باتفاقية الإبادة الجماعية بمنعها من الحدوث.

هناك التزام واحد كذلك سأشرحه، وهو واجب معاقبة جريمة الإبادة الجماعية. تقتضي المادة (٦) من اتفاقية الإبادة الجماعية أن الأشخاص المتهمين بارتكاب الإبادة الجماعية، أو أي أفعال أخرى مذكورة في المادة رقم (٣)، لا يجوز محاكمتهم من قبل محكمة مختصة من محاكم الدولة أو من قبل محكمة جزائية دولية.

في هذه القضية، الإبادة الجماعية وقعت في سريبرينيتسا، والتي تقع خارج أراضي

المدعى عليه؛ ولذلك فإنه لا يمكن للمدعى عليه أن يكون مسؤولًا عن عدم محاولته محاكمة هؤلاء المتهمين بالمشاركة في الإبادة الجماعية في سريبرينيتسا في محاكمها الوطنية. السؤال المطروح هنا إذًا هو: ما إذا كان المدعى عليه قد أوفى بالتزامه في التعاون مع المحكمة الجنائية الدولية باعتقال وتسليم المحكمة أي أشخاص متهمين بارتكاب الإبادة الجماعية في سريبرينيتسا وقد وجدوا أنفسهم على أراضيها.

لم تفشل المحكمة في ملاحظة المعلومات الوفيرة والمتطابقة والتي تشير إلى أن الجنرال ملاديتش، والذي اتهم من قبل المحكمة الجنائية الدولية باعتباره واحدًا من هؤلاء المسؤولين بصفة رئيسية عن الإبادة الجماعية في سريبرينيتسا، كان في أراضي المدعى عليه في عدة مناسبات على الأقل لفترات طويلة خلال السنوات القليلة الماضية - وربما لا يزال هناك الآن - من دون أن تفعل السلطات الصربية ما في وسعها، وما يمكن أن تفعله بمسؤولية، للقيام بتحديد مكانه واعتقاله.

وجدت المحكمة أن المدعى عليه قد فشل في أداء واجبه بالتعاون الكامل مع المحكمة الجنائية الدولية، بالتالي فقد انتهك المدعى عليه الواجب بمعاقبة جريمة الإبادة الجماعية.

وكما لم تجد المحكمة المدعى عليه ملزمًا أو مسؤولًا عن عمليات الإبادة الجماعية في سريبرينيتسا، فإن قضية التعويضات الهائلة لذلك لم تُثَر. كما وجدت المحكمة بالإضافة إلى انتهاك الالتزام لمنع الإبادة الجماعية، وكما اقترح في الحقيقة صاحب الطلب، أن إعلان المحكمة هو في حد ذاته الطردية المناسبة.

وعلى الإخلال بالتزامه بمعاقبة جريمة الإبادة الجماعية، رأت المحكمة أن هذا هو انتهاك مستمر؛ لذلك فقد أصدرت المحكمة إعلانًا يقضي بأن على صربيا اتخاذ خطوات فعّالة على الفور لضمان الامتثال التام لهذا الالتزام ونقل الأفراد المتهمين للمثول أمام المحكمة الجنائية الدولية والتعاون بشكل كامل مع تلك المحكمة.

آمل أن يكون هذا البيان قد ساعدكم في عملكم. شكرًا لاهتمامكم.

***

تطبيق اتفاقية بشان منع ومعاقبة جريمة الإبادة الجماعية (البوسنة والهرسك ضد صربيا والجبل الأسود):

تؤيد المحكمة أن لها ولاية قضائية للتعامل مع هذه القضية. وجدت المحكمة أن صربيا قد انتهكت التزاماتها بموجب اتفاقية الإبادة الجماعية لمنع الإبادة الجماعية في سريبرينيتسا وأنها قد انتهكت التزاماتها بموجب الاتفاقية، وذلك بعد أن فشلت تمامًا بالتعاون مع المحكمة الجنائية الدولية ليوغسلافيا السابقة.

لاهاي، (٢٦ فبراير ٢٠٠٧م)، حكمت محكمة العدل الدولية اليوم، الجهاز القضائي الرئاسي للأمم المتحدة. في القضية المتعلقة بتطبيق اتفاقية منع معاقبة جريمة الإبادة الجماعية (البوسنة والهرسك مقابل الجبل الأسود).

في حكمها النهائي والملزم وغير القابل للاستئناف، قررت المحكمة:

١ - بأغلبية عشرة أصوات مقابل خمسة، أن ترفض الدفوع الواردة في التقارير النهائية التي قام بها المدعي العام عليه ومفادها أن المحكمة ليس لها أية ولاية قضائية. وتؤكد أن لها ولاية قضائية على أساس المادة رقم (٩) من اتفاقية منع ومعاقبة جريمة الإبادة الجماعية، للبت في النزاع المعروض عليها في (٢٠) آذار/ مارس (١٩٩٣م) من قبل جمهورية البوسنة والهرسك.

صوت لصالح القرار: الرئيس هنغيز، نائب الرئيس الخصاونة، والقضاة: أوادا، وسيما، وتومكا، وإبراهام، وكيث، وسبولفيدا - أمور، وبنونا، والقاضي الخاص ماحيو.

صوت ضد القرار: القضاة رانجيفا وشي وكوروما وسكوتنكوف والقاضي الخاص كريتشا.

٢ - بأغلبية ثلاثة عشر صوتًا مقابل اثنين: ترى المحكمة أن صربيا لم ترتكب جريمة الإبادة الجماعية، من خلال أجهزتها أو من خلال الأشخاص الذين تقع أفعالهم تحت مسؤوليتها بموجب القانون الدولي العرفي، في انتهاكها لالتزاماتها بموجب اتفاقية منع ومعاقبة جريمة الإبادة الجماعية.

صوت لصالح القرار: الرئيس هنغيز، القضاة رانجيفا، وشي، وكوروما، وأوادا، وسيما، وتونكا، وإبراهام، وكيث، وسبولفيدا - أمور، وبنونا، وسكوتنكوف، والقاضي الخاص كريتشا.

صوت ضد القرار: نائب الرئيس الخصاونة، والقاضي الخاص ماحيو.

٣ - بأغلبية ثلاثة عشر صوتًا مقابل اثنين: وجدت المحكمة أن صربيا لم تتآمر لارتكاب جريمة الإبادة الجماعية ولم تحرض على ارتكابها في انتهاكها لالتزاماتها بموجب اتفاقية منع ومعاقبة جريمة الإبادة الجماعية.

صوت لصالح القرار: الرئيس هنغيز، والقضاة رانجيفا، وشي، وكوروما، وأوادا، وسيم، وتونكا، وإبراهام، وكيث، وسبولفيدا - أمور، وبنونا، وسكوتنكوف، والقاضي الخاص كريتشا.

صوت ضد القرار: نائب الرئيس الخصاونة والقاضي الخاص ماحيو.

٤ - بأغلبية أحد عشر صوتًا مقابل أربعة أصوات: وجدت المحكمة أن صربيا لم تكن شريكة في جريمة الإبادة الجماعية في انتهاكها لالتزاماتها بموجب اتفاقية منع ومعاقبة جريمة الإبادة الجماعية.

صوت لصالح القرار: الرئيس هنغيز، والقضاة رانجيفا، وشي، وكوروما، وأوادا، وسيما، وتونكا، وإبراهام، وسبولفيدا - أمور، وسكوتنكوف، والقاضي الخاص كريتشا.

صوت ضد القرار: نائب الرئيس الخصاونة، والقضاة كيث، وبنونا، والقاضي الخاص ماحيو.

٥ - بأغلبية اثني عشر صوتًا مقابل ثلاثة أصوات: وجدت المحكمة أن صربيا انتهكت الالتزام بمنع الإبادة الجماعية في إطار اتفاقية منع ومعاقبة جريمة الإبادة الجماعية فيما يتعلق بالإبادة الجماعية التي وقعت في سريبرينيتسا في تموز/ يوليو (١٩٩٥م).

صوت لصالح القرار: الرئيس هنغيز، ونائب الرئيس الخصاونة، والقضاة رنجيفا، وشي، وكوروما، وأوادا، وسيما، وكيث، وسيبولفيدا - أمور، وبنونا، والقاضي الخاص ماحيو.

صوت ضد القرار: القضاة تونكا، وسكوتنكوف، والقاضي الخاص كريتشا.

٦ - بأغلبية أربعة عشر صوتًا مقابل صوتًا واحد: وجدت المحكمة أن صربيا قد انتهكت التزاماتها بموجب اتفاقية منع ومعاقبة جريمة الإبادة الجماعية بعد أن فشلت في نقل راتكو ملاديتش، المتهم بارتكاب جرائم الإبادة الجماعية والتواطؤ فيها، للمثول أمام المحكمة الجنائية الدولية ليوغسلافيا السابقة، وذلك بعد أن فشلت تمامًا بالتعاون مع تلك المحكمة.

صوت لصالح القرار: الرئيس هنغيز، نائب الرئيس الخصاونة، والقضاة رانجيفا،

وشي، وكوروما وأوادا، وسيما، وتومكا، وإبراهام، وكيث، وسيبولفيدا - أمور، وبنونا، وسكوتنكوف، والقاضي الخاص ماحيو.

صوت ضد القرار: القاضي الخاص كريتشا.

٧ - بأغلبية ثلاثة عشر صوتًا مقابل اثنين: وجدت المحكمة أن صربيا قد انتهكت التزامها بالامتثال للتدابير المؤقتة التي أمرت بها المحكمة في هذه القضية في (٨) نيسان و(١٣) أيلول من العام (١٩٩٣م) . نظرًا لأنها فشلت في اتخاذ جميع التدابير التي في وسعها اتخاذها لمنع الإبادة الجماعية في سريبرينيتسا في تموز/ يوليو (١٩٩٥م).

صوت لصالح القرار: الرئيس هنغيز، نائب الرئيس الخصاونة، القضاة رانجيفا، وشي، وكوروما، وأوادا، وسيما، وتومكا، وإبراهام، وسبولفيدا - أمور، وبنونا، والقاضي الخاص ماحيو.

صوت ضد القرار: القاضي سكوتنكوف، والقاضي الخاص كريتشا.

٨ - بأغلبية أربعة عشر صوتًا مقابل صوت واحد: قررت المحكمة أن على صربيا اتخاذ خطوات فعالة على الفور لضمان الامتثال الكامل لالتزاماتها بموجب اتفاقية منع ومعاقبة جريمة الإبادة الجماعية لمعاقبة أفعال الإبادة الجماعية على النحو الذي حددته المادة رقم (٢) من الاتفاقية أو أي من الأفعال الأخرى المحظورة بموجب المادة رقم (٣) من الاتفاقية وأن عليها نقل الأفراد المتهمين بارتكاب الإبادة الجماعية أو أيٍّ من الأفعال الأخرى لمحاكمتهم من قبل المحكمة الجنائية الدولية ليوغسلافيا السابقة وأن عليها التعاون بشكل كامل مع تلك المحكمة.

صوت لصالح القرار: الرئيس هنغيز، نائب الرئيس الخصاونة، القضاة رانجيفا، وشي، وكوروما، وأوادا، وسيما، وتومكا، وإبراهام، وسبولفيدا - أمور، وبنونا، سكوتنكوف، والقاضي الخاص ماحيو.

صوت ضد القرار: القاضي الخاص كريتشا.

٩ - بأغلبية ثلاثة عشر صوتًا مقابل اثنين: وجدت المحكمة، فيما يتعلق بما تقوم به صربيا من انتهاكات للالتزامات المشار إليها في الفقرتين (٥ و ٧) أعلاه، أن ما توصلت إليه المحكمة في تلك الفقرات يشكل ترضية مناسبة. وهذه القضية ليست واحدة كالقضايا التي يكون فيها نظام لدفع التعويض، أو اتجاه لتقديم تأكيدات وضمانات بعدم منع التكرار، فيما يتعلق بالانتهاك المشار إليه في الفقرة (٥)، مناسبًا.

صوت لصالح القرار: الرئيس هنغيز،القضاة رانجيفا، وشي، وكوروما، وأوادا، وسيما، وتومكا، وإبراهام، وكيث، وسبولفيدا - أمور، وبنونا، سكوتنكوف.

صوت ضد القرار: نائب الرئيس الخصاونة، والقاضي الخاص ماحيو.

تاريخ الوقائع:

يمكن العثور على تاريخ الوقائع كله لهذه القضية في صحيفة (بريس ريليس) العدد رقم (٩/ ٢٠٠٦م) بتاريخ (٢٧) شباط/ فبراير (٢٠٠٦م).

منطق المحكمة:

تحديد هوية المدعى عليه.

رفعت الدعوة ضد جمهورية يوغسلافيا الاتحادية (صربيا ومونتنيغرو حاليًّا) والتي تتألف من جمهوريتيّ صربيا ومونتنيغرو. منذ أن أصبحت مونتنيغرو دولةً مستقلةً في (٣) حزيران/ يونيو (٢٠٠٦م)، احتاجت المحكمة إلى تحديد هوية المدعى عليه في الوقائع الراهنة، لقد نظرت المحكمة في وجهات نظر البوسنة والهرسك وجمهورية صربيا وجمهورية مونتينيغرو، وقد خلصت المحكمة إلى أن جمهورية صربيا هي المدعى عليه الوحيد من تاريخ صدور الحكم الحالي، بيد أن المحكمة تود أن تشير إلى أن أية مسؤولية عن الأحداث الماضية تحدد في حكمها المعني في الوقت الملائم جمهورية صربيا ومونتينيغرو.

اختصاص المحكمة:

تنظر المحكمة في الاعتراض الذي أثاره المدعى عليه في مبادرة عام (٢٠٠١م) والذي ادعى أن انضمامه إلى الأمم المتحدة في عام (٢٠٠٠م) قد أظهر أن لم يكن عضوًا في الأمم المتحدة منذ عام (١٩٩٢م) وحتى عام (٢٠٠٠م) وأنه بالتالي لم يكن طرفًا في النظام الأساسي للمحكمة عندما رفعت الدعوة في عام (١٩٩٣م).

بعد النظر في حجج الطرفين، تشير المحكمة إلى أنها قررت بالفعل أن لديها اختصاصًا في هذه القضية في حكمها وبشأن الاعتراضات الأولية في (١١) تموز/ يوليو (١٩٩٩م)، وأن هذا القرار يشكل القرار النهائي أو بمعنى آخر أن هذا القرار لم يكن مفتوحًا لإعادة النظر فيه إلا عن طريق تنقيح بموجب المادة رقم (٦١) من النظام الأساسي، وتشير المحكمة إلى أن المدعى عليه قدّم طلبًا بالفعل لإعادة النظر في الحكم

الصادر عام (١٩٩٦م) في عام (٢٠٠١م) وكان هذا الطلب قد رفض من قبل المحكمة في حكمها الصادر في (٣) شباط/ فبراير (٢٠٠٣م) وتبعًا لذلك تؤكد المحكمة ولايتها القضائية للبت في النزاع.

القانون المطبق:

تمضي المحكمة بمعالجة مسألة القانون المطبق وتشير إلى أن ولايتها القضائية في هذه القضية هي فقط على أساس المادة رقم (٩) من اتفاقية منع ومعاقبة جريمة الإبادة الجماعية في (٩) أيلول/ ديسمبر من العام (١٩٤٨م) (اتفاقية الإبادة الجماعية) وهذا يعني أن للمحكمة سلطة للبتِّ في الانتهاكات المزعومة للالتزامات التي فرضتها اتفاقية الإبادة الجماعية، ولكن ليست لها سلطة في الإخلال بالالتزامات الأخرى بموجب القانون الدولي كتلك التي تحمي حقوق الإنسان في النزاعات المسلحة، حتى لو كانت هذه الانتهاكات بالالتزامات بموجب القواعد الآمرة أو من الالتزامات التي تحمي القيم الإنسانية الأساسية.

يقول المدعى عليه بأن « اتفاقية الإبادة الجماعية لا تنص على مسؤولية الدول عن أعمال الإبادة الجماعية » وبعد النظر في جميع المواد ذات الصلة بالاتفاقية، تجد المحكمة أن التزام الدول بمنع الإبادة الجماعية بموجب المادة رقم (١) من الاتفاقية يعني بالضرورة فرض حظر ارتكاب جريمة الإبادة الجماعية على الدول نفسها. وأنه، إذا قام جهاز تابع للدولة أو أي شخص من الأشخاص التي تعزى أفعاله إلى تلك الدولة بارتكاب عمل من أعمال الإبادة الجماعية أو أي فعل ذي صلة بالأفعال المنصوص عليها في المادة رقم (٣) من الاتفاقية، فإن الدولة تتكبد المسؤولية الدولية. وتلاحظ المحكمة في هذا الصدد أنه يمكن للدول أن تكون مسؤولة عن الإبادة الجماعية أو بالتواطؤ فيها حتى لو لم يسبق أن اقتنع أي شخص بأن هذه الجريمة صادرة عن محكمة مختصة.

استعراضًا للمتطلبات القانونية الأخرى للاتفاقية، تلاحظ المحكمة أنه حتى تكون الأعمال مؤهلة لأن توصف بأنها إبادة جماعية يجب أن تكون مصحوبة بنية تدميرٍ للمجموعة المحمية، بشكل كلي أو جزئي على هذا النحو، وتشدد المحكمة على الفرق بين الإبادة الجماعية والتطهير العرقي، في حين أن التطهير العرقي يمكن أن ينفذ بتشريد مجموعة من الأشخاص من منطقة محددة، فالإبادة الجماعية حددت بالنية المحددة المذكورة أعلاه للقضاء على المجموعة أو جزء منها.

تعتبر المحكمة أن المجموعة المستهدفة يجب أن تعرف من خلال خصائص إيجابية خاصة وطنية، إثنية، عرقية، أو دينية وليس بعدم وجود تلك الخصائص؛ ولذلك فهي ترفض التعريف السلبي للمجموعة المقدم من قبل مقدم الطلب بوصفه السكان « غير الصرب » والذي يخلص إلى أنه - ولهذا الغرض في القضية - لا بد من تعريف المجموعة باسم « مسلمي البوسنة » في إشارةٍ محدودةٍ للغاية لجماعات غير الصرب من قبل مقدم الطلب.

مسألة الإثبات:

وفيما يتعلق بعبء الإثبات، أكدت المحكمة أنه يجب على مقدم الطلب إثبات قضيته، وأنه على أي طرف ذكر حقيقة ما عليه إثباتها. وأما بشأن معايير الإثبات تتطلب المحكمة أن تكون الادعاءات القائلة بأن جريمة الإبادة الجماعية أو الأعمال ذات الصلة المنصوص عليها في المادة (٣) من الاتفاقية قد ارتكبت أن تثبت بأدلة قاطعةٍ تمامًا ويعتبر وبقدر ما هو مهم خرق واجب منع الإبادة الجماعية ومعاقبة مرتكبيها وتسليمهم، فإن المحكمة تطلب دليلًا على مستوًى عالٍ من اليقين ليناسب خطورة هذا الادعاء. وفيما يتعلق بطريقة الإثبات، تشير المحكمة إلى أنها ستقوم باتخاذ قراراتها الخاصة بالحقيقة على أساس الأدلة المقدمة، في حين أن قبول نتائج المحكمة الجنائية الدولية ليوغسلافيا السابقة للوقائع ذات الصلة بالحقيقة مقنعة للغاية. كما أن هذا سيعطي بعض الأهمية للحكم الصادر على الحقائق الموافق عليها والحكم الصادر من المحكمة الجنائية الدولية بعد الإقرار بالذنب.

وحكمت المحكمة أيضًا على تعليقات للأدلة من عدد من المصادر الأخرى وحددت المعايير التي سيقوم عليه تقييم قيمة هذه المصادر. وتلاحظ المحكمة أن تقرير الأمين العام للأمم المتحدة « سقوط سريبرينيتسا » يتمتع بسلطة كبيرة.

الحقائق التي يتمتع بها مقدم الطلب:

قبل التحول إلى حقيقة الادعاءات التي تقدمت بها البوسنة والهرسك، حددت المحكمة بإيجاز الأساس للقضية التي تتعلق بفك النظام الاشتراكيّ لجمهورية يوغسلافيا الاتحادية (جمهورية يوغسلافيا الاتحادية الاشتراكية). وحددت مختلف الكيانات المشاركة في الأحداث المشتكى منها. ثم تدرس المحكمة الروابط بين حكومة جمهورية يوغسلافيا الاتحادية وسلطات جمهورية صربسكا (التي كانت أعلنت نفسها « جمهورية

الشعب الصربي من البوسنة ») ووجدت المحكمة أن جمهورية يوغسلافيا الاتحادية تقدم الدعم المادي والعسكري الكبير والمتاح لجمهورية صربسكا، وأنه لو سحب هذا الدعم فإنه سيحدّ بشكل كبير من الخيارات المتاحة لسلطات جمهورية صربسكا.

ثم تحدد المحكمة للنظر في الوقائع التي تدعيها البوسنة من أجل أن تقرر:

١ - ما إذا كانت الأعمال الوحشية المزعومة قد حدثت، وإذا كانت قد حدثت.

٢ - أن تقرر ما إذا كانت الوقائع تثبت وجود نية من جانب الجناة لتدمير جزئي أو كلي لمجموعة مسلمي البوسنة.

توصلت المحكمة لنتائج طويلة ومفصلة حول الفظائع المزعومة والتي تمَّ تجميعها وفقًا للأفعال المحظورة المبينة في المادة (٢) من اتفاقية الإبادة الجماعية.

وفيما يتعلق بقتل أعضاء من الجماعة المحمية المادة (٢) (أ) من الاتفاقية، وجدت المحكمة أنه أُثبت بدليل قاطع أن أعمال القتل الجماعي قد ارتكبت في جميع أنحاء البوسنة خلال النزاع. لكن المحكمة ليست مقتنعة بأن عمليات القتل هذه قد ترافقت مع وجود نية محددة من جانب الجناة للقضاء كُليًّا أو جزئيًّا على مجموعة مسلمي البوسنة، وهي تعترف بأن عمليات القتل قد ترقى إلى مستوى جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية إلا أنه ليس لدى المحكمة أي اختصاص لتحديد ما إذا كان هذا هو الحال.

تتحول المحكمة إلى مذبحة سريبرينيتسا وتدرس بعناية الأدلة المتعلقة بهذا الحدث بما في ذلك حقيقة أن المحكمة وجدت في حالتي كريستيتش وبلاغو يفيتش أن قوات صرب البوسنة قتلت أكثر من (٧٠٠٠) رجل من مسلمي البوسنة بعد الاستيلاء على سريبرينيتسا في تموز/ يوليو (١٩٩٥م). وقد خلصت المحكمة إلى أن كلًّا من أعمال القتل وإلحاق ضرر جسدي أو عقلي جسيم قد وقعت فعلًا، ووجدت المحكمة أن الموظفين الرئيسيين لجيش صرب البوسنة كان لديهم النية المحددة اللازمة لتدمير جزء من مجموعة مسلمي البوسنة (مسلمي البوسنة في سريبرينيتسا على وجه التحديد) وذلك وفقًا لأعمال الإبادة الجماعية التي ارتكبها جيش صرب البوسنة في سريبرينيتسا أو حولها في حوالي (١٣) تموز (١٩٩٥م). ثم تستكمل المحكمة فحص الأدلة المتعلقة بارتكاب أعمال « إلحاق أذى جسدي أو عقلي جسيم لأعضاء المجموعة المحمية »، المادة (٢) (ب) من الاتفاقية، وجدت المحكمة أن مسلمي البوسنة كانوا ضحايا لسوء المعاملة بشكل منهجي واسع، ضرب، واغتصاب، وتعذيب، مما تسبب

في إلحاق أضرار جسدية ونفسية جسيمة خلال النزاع. ومع ذلك فإنه يرى أن وجود نية محددة للقضاء على الجماعة المحمية لم تكن قطعًا ناشئة.

ثم تدرس المحكمة الأعمال المزعومة في الإخضاع المتعمد للمجموعة على ظروف معيشية يراد بها تدمير كلي أو جزئي، المادة (٢) (جـ) من الاتفاقية. كما ترى المحكمة أن هناك أدلة قاطعة على أن الأفعال المزعومة قد ارتكبت ولكن النية المحددة والضرورية ليست موجودة.

أما فيما يتعلق بالمادة (د) و (هـ) من الاتفاقية، « فرض تدابير تهدف للحيلولة دون إنجاب الأطفال داخل الجماعة المحمية » و « نقل الأطفال عنوة من الجماعة إلى جماعة محمية أخرى »، فإن المحكمة لم تجد دليلًا كافيًا على أن مثل هذه الأفعال قد وقعت.

ثم ترى المحكمة أن مقدم الطلب لم يظهر أية خطة شاملة لارتكاب جريمة الإبادة الجماعية على أساس أهداف إستراتيجيات (١٩٩٢م) الصادر عن السلطات في جمهورية صربسكا، كما أنها ترفض دعوة البوسنة والهرسك على أن نمطًا من الفظائع التي ارتكبت على العديد من المجتمعات المحلية على مدى فترة طويلة، وركز على مسلمي البوسنة، يمكن أن يثبت النية المحددة اللازمة لتدمير الجماعة كليًا أو جزئيًا.

في مسألة المسؤولية عن الأحداث في سريبرينيتسا بموجب المادة (٣)، الفقرة (هـ) من الاتفاقية:

وبعد أن خلصت المحكمة إلى أنَّ أعمال الإبادة الجماعية التي ارتكبت في سريبرينيتسا على يد الجيش في جمهورية صربسكا، فإن المحكمة تتحول إلى مسألة ما إذا كان المدعى عليه مسؤولًا قانونيًا عن هذ الأفعال. وفي ضوء المعلومات المتوفرة لديها، ووجدت المحكمة أنَّ أعمال أولئك الذين ارتكبوا الإبادة الجماعية في سريبرينيتسا لا يمكن أن يعزى إلى المدعى عليه وفقًا لقواعد القانون الدولي لمسؤولية الدولة.

وعلى وجه الخصوص، خلصت المحكمة، بحكمها على أساس المواد المعروضة عليها، إلى أنَّ أعمال الإبادة الجماعية لا يمكن أن يعزى إلى المدعى عليه كونها ارتكبت من قبل أشخاص أو كيانات لها رتبٌ كأجهزةٍ للمدعى عليه. وجدت المحكمة أيضًا أنه لم يثبت أن تلك المجازر قد ارتكبت بناءً على تعليمات أو بتوجيه من المدعى عليه ولا أن المدعى عليه قد مارس سيطرة فعلية على العمليات التي ارتكبت.

في مسألة المسؤولية بموجب الفقرات (ب) – (هـ) من المادة (٣) من الاتفاقية:

تـلاحظ المحكمة أن الأفعـال المذكورة في الفـقرات (ب) وحتى (د) مـن المادة (٣)، ليست ذات صلةٍ بهذه القضية وفيما يتعلق بالفقرة (هـ)، (الاشتراك في الإبادة الجماعية)، فإن المحكمة تشير إلى أن هناك شكًّا ضئيلًا في أن الفظائع في سريبرينيتسا قد ارتكبت ولو بشكل جزئي بالموارد التي يمتلكها المرتكبون نتيجةً للسياسة العامة للمساعدات والتي تقدمها جمهورية يوغسلافيا الاتحادية. ومع ذلك، فإن أحد الشروط المحددة للغاية للمسؤولية القانونية للمدعى عليه لم تتحقق؛ نظرًا لأنه - في الوقت الحاسم - لم يتم إثبات أن يوغسلافيا الاتحادية قدمت مساعدات إلى مرتكبي جرائم الإبادة الجماعية مع وعيها الكامل بأن المعونة المقدمة من شأنها أن تستخدم في ارتكاب جريمة الإبادة الجماعية.

في مسألة المسؤولية عن خرق الالتزامات بمنع معاقبة جريمة الإبادة الجماعية، المادة (١) من الإتفاقية:

فيما يتعلق بالالتزام بمنع الإبادة الجماعية، فإن المحكمة تنص في جملة الأمور على أنَّ الالتزام هو أحد السلوكيات وليس أحد النتائج: المسؤولية لا توجد بمجرد وجود جريمة الإبادة الجماعية، ولكن تكون موجودة إذا كانت الدولة قد فشلت بشكل واضح باتخاذ جميع التدابير اللازمة لمنع جريمة الإبادة الجماعية التي كان في وسعها اتخاذها، والتي ربما تكون قد أسهمت في منع الإبادة الجماعية. وتلاحظ المحكمة أيضًا أن الدولة يمكن أن تكون مسؤولة في حال فقط كانت عملية الإبادة الجماعية قد ارتكبت بالفعل وأنه بالتالي سوف ينظر في سلوك المدعى عليه واتصاله بمذابح سريبرينيتسا. وبالنهاية، فإنه يكفي أن تكون الدولة على علم بتلك المجازر، وينبغي عادةً أن تكون على علم إزاء الخطر الجسيم بأن أعمال الإبادة الجماعية قد ارتكبت.

تلاحظ المحكمة أن جمهورية يوغسلافيا الاتحادية كانت في وضع يمكنها من التأثير على صرب البوسنة الذين وضعوا ونفذوا عمليات الإبادة الجماعية في سريبرينيتسا، نظرًا لمتانة الروابط السياسية والعسكرية والمالية بين جمهورية يوغسلافيا الاتحادية وجمهورية صربسكا وجيش صرب البوسنة من جهة أخرى. وقررت المحكمة كذلك أن بالرغم من أنها لم تعثر على المعلومات المتوفرة لدى السلطات في بلغراد، والتي أشارت، على سبيل اليقين، إلى أن الإبادة الجماعية كانت وشيكة الحدوث، فإنه من المستحيل أنهم لم يكونوا مدركين للمخاطر الجدية لتلك الإبادة الجماعية.

في رأي المحكمة، كان ينبغي على السلطات اليوغسلافية بذل أفضل ما في وسعها لمحاولة منع الأحداث المأساوية ثم اتخاذ شكل ذي نطاق ربما كان مظنونًا به. ومع ذلك فإن المدعى عليه لم يظهر أنه اتخذ أية مبادرة لمنع ما حدث، أو أنه قام بأي تحرك من جانبه لتفادي الفظائع التي ارتكبت.

وقد خلصت المحكمة إلى أن المدعى عليه لم يفعل شيئًا لمنع حدوث مذابح سريبرينيتسا وأنه بالتالي انتهك التزامه بشأن منع جريمة الإبادة الجماعية ليشارك بهذه الطريقة بالمسؤولية الدولية بموجب المادة (١) من اتفاقية الإبادة الجماعية.

وفيما يتعلق بالالتزام بمعاقبة مرتكبي جرائم الإبادة الجماعية، تنص المحكمةُ على أنه وبموجب المادة (٦) من الاتفاقية، فإن على الدول واجب التعاون مع مثل هذه « المحكمة الجنائية الدولية التي يكون لها اختصاص » في هذه المسألة. كما ترى أن المحكمة الجنائية الدولية تشكل محكمة جزائية دولية. وتلاحظ المحكمة أنه هناك معلومات وفيرة ومؤيدة تشير إلى أن الجنرال ملاديتش، والذي أشير إليه من قبل المحكمة الجنائية الدولية بكونه واحدًا من أولئك المسؤولين عن مذابح سريبرينيتسا، كان موجودًا على أراضي المدعى عليه في عدة مناسبات على الأقل ولفترات طويلة خلال السنوات القليلة الماضية، وهو لا يزال هناك إلى الآن دون أن تقوم السلطات الصربية بما كان في وسعها ولا زال في وسعها أن تقوم به لتأكد من مكان وجوده بالضبط وإلقاء القبض عليه.

وبالتالي، وجدت المحكمة أنه تم إثبات وبشكل كافٍ أنَّ المدعى عليه قد فشل في أداء واجبه في التعاون تعاونًا تامًّا مع المحكمة الجنائية الدولية. وتخلص المحكمة إلى أن هذا الفشل يشكل انتهاكًا من جانب المدعى عليه لواجباته بموجب المادة (٦) من اتفاقية الإبادة الجماعية.

في مسألة المسؤولية عن خرق أوامر المحكمة باتخاذ تدابير مؤقتة:

فيما يتعلق بالمجازر في سريبرينيتسا في تموز/ يوليو (١٩٩٥م)، وجدت المحكمة، في النهاية، أن المدعى عليه أخفق في الوفاء بالالتزامات المشار إليه في أمر المحكمة في (٨) نيسان/ أبريل (١٩٩٣م) وأعادت التأكيد عليها في نظامها في (١٣) أيلول/ سبتمبر، باتخاذ جميع التدابير التي في وسعها اتخاذها لمنع ارتكاب جريمة الإبادة الجماعية والتأكيد على أن أيًا من المنظمات والأشخاص الذين يمكن أن يخضعوا لنفوذها لا يرتكبون أي عمل من أعمال الإبادة الجماعية.

في مسألة التعويض:

بعد أن قدمت النتائج التي توصلت إليها، تتحول المحكمة إلى طلب البوسنة والهرسك بالتعويض. وفيما يتعلق بانتهاك الالتزام بمنع الإبادة الجماعية، وجدت المحكمة - ونظرًا لأنه لم يثبت أن الإبادة الجماعية في سريبرينيتسا كان في الواقع من الممكن تجنبها إذا كان المدعى عليه قد حاول منع حدوثها - أن التعويضات المالية على عدم منع الإبادة الجماعية ليس هو التعويض الملائم. وترى المحكمة أن أنسب شكل من أشكال التعويض هو الإعلان عن الحكم المنطوق بأن المدعى عليه قد فشل في الامتثال للالتزام بمنع جريمة الإبادة الجماعية.

وكما انتهك الالتزام بمعاقبة أفعال الإبادة الجماعية، وجدت المحكمة أن إعلان الحكم المنطوق بأن المدعى عليه قد خرق الاتفاقية وأن عليه التزامات مستحقة تتعلق بنقل المتهمين بارتكاب جرائم الإبادة إلى المحكمة قد يشكل تعويضًا مناسبًا.

وأخيرًا، وبالنسبة إلى خرق أمر المحكمة الذي يشير إلى التدابير المؤقتة، تقر المحكمة أن تدرج في إعلانها عن الحكم المنطوق بندًا ينص على أن المدعى عليه قد فشل في الامتثال لأمر المحكمة باتخاذ تدابير مؤقتة.

تشكيل المحكمة:

كانت المحكمة مشكلة على النحو التالي: الرئيس هغينز، نائب الرئيس الخصاونة، القضاة: رانجيفا، شي، كوروما، أوادا، سيما، تومكا، إبراهام، كيث، سيبولفيدا - أمور، بنونا، سكوتنكوف، والقضاة الخاصين: ماحيو وكريتشا، المسجل كورفرور.

أرفق نائب الرئيس الخصاونة رأيًا مخالفًا للمحكمة، وأرفق القضاة رانجيفا، وشي، وكوروما رأيًا مخالفًا مشتركًا، وأرفق القاضي رانجيفا رأيًا مستقلًّا، وأرفق القضاة شي وكوروما بيانًا مشتركًا، وأرفق القضاة أوادا وتومكا آراءً مستقلة وأرفق القضاة كيث وبنونا وسكوتنكوف بيانات، وأرفق القاضي الخاص ماحيو رأيًا مخالفًا، وأرفق القاضي الخاص كريتشا رأيًا مستقلًّا.

موجز الحكم يظهر في وثيقة: موجز رقم (٢/ ٢٠٠٧م) والتي أرفق فيها ملخصات البيانات والآراء. بالإضافة إلى ذلك، يمكن العثور على بريس ريليس والموجز، والنص الكامل للحكم على موقع المحكمة على الإنترنت:www.icj-ci.org.

* * *

لمحة عن حياة المؤلف

- ولد مرصاد سينانوفيتش في عام (١٩٥٥م) ببلدة فوتشا. وفيها أنهى دراسته الابتدائية والثانوية وتخرج من كلية الفلسفة - قسم تاريخ الأدب اليوغسلافي ولغة صربو - كرواتية الحديثة - بجامعة سراييفو وحصل على شهادة البكالوريس بعد مناقشة رسالة البكالوريس بموضوع « الخلفية التاريخية للقصائد الوطنية والعمل الدرامي لصفوت باك باشاغيتش » تحت إشراف الأستاذ محسن ريزويتش.

- كان مدرس لغة الأم والأدب من عام (١٩٧٩ إلى ١٩٨٥م)، ومن عام (١٩٨٥م) إلى أوائل (١٩٩٠م) كان يعمل في خدمة المعلومات في شركة « ماغليتش » وكل ذلك في فوتشا. و جاء إلى سراييفو في عام (١٩٩١م) وكتب لمجلة « صوت المسلم » ومن عام (١٩٩٣م) شارك بنصوصه في مجلة « ليلان » - زنبق.

- في عام (١٩٩٤م) حصل على جائزة من جمعية الصحافيين كأفضل مراسل حرب البوسنة و الهرسك.

- في آخر (١٩٩٧م) نشر كتابه عن مراسلة الحرب باسم « الموت والنصر » يشهد فيه على العدوان ضد البوسنة والدفاع عنها وعن المعارك الكبرى للجيش البوسني (طبع منه طبعتان و ثانيتهما باسم « جميع المعارك البوسنية »).

- وفي عام (١٩٩٨م) نُشر كتابه ذو المقالات السياسية والاقتصادية البارزة « البوسنة بين واشنطن واتفاقية دايتون للسلام ».

- نشر نهاية عام (٢٠٠٠م) كتابًا فيه قصص قصيرة وذكريات من الحرب باسم « عثمان و الوحش » .

- في تموز/ يوليو (٢٠٠٣م) نشرت روايته الأولى « التضحية للذئب » (أربع طبعات حتى الآن).

- في آب/ أغسطس (٢٠٠٥م) نشرت روايته « حلم حسن ناظر » و في نيسان/ أبريل (٢٠٠٧م) رواية « كولين ».

- الآن هو يعيش مع أسرته في سراييفو.

***

رقم الإيداع

٢٠١٠/١٥٤٥٧

الترقيم الدولي I.S.B.N

978 - 977 - 342 - 935 - 5

(من أجل تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ)

عزيزي القارئ الكريم . . السلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته . .

نشكر لك اقتناءك كتابنا : « التضحية للذئب » ورغبة منا في تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ ، وباعتبار أن رأيك مهمٌّ بالنسبة لنا ، فيسعدنا أن ترسل إلينا دائمًا بملاحظاتك ؛ لكي ندفع بمسيرتنا سويًّا إلى الأمام .

*** فهيَّا مارس دورك في توجيه دفة النشر باستيفائك للبيانات التالية :-**

الاسم كاملاً : .... **الوظيفة :** ....

المؤهل الدراسي : .... **السن :** .... **الدولة :** ....

المدينة : .... **حي :** .... **شارع :** .... **ص.ب:**............

هاتف : ☐☐☐☐☐☐☐☐ / ☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐ : e-mail

- من أين عرفت هذا الكتاب ؟

☐ أثناء زيارة المكتبة ☐ ترشيح من صديق ☐ مقرر ☐ إعلان ☐ معرض

- من أين اشتريت الكتاب ؟

اسم المكتبة أو المعرض : .... المدينة : .... العنوان:...............

- ما رأيك في الكتاب ؟

☐ ممتاز ☐ جيد ☐ عادي (لطفًا وضح لِمَ) ....

- ما رأيك في إخراج الكتاب ؟

☐ عادي ☐ جيد ☐ متميز (لطفًا وضح لِمَ) ....

- ما رأيك في سعر الكتاب ؟ ☐ رخيص ☐ معقول ☐ مرتفع

(لطفًا اذكر سعر الشراء) .... العملة ....

عزيزي انطلاقًا من أن ملاحظاتك واقتراحاتك سبيلنا للتطوير وباعتبارك من قرائنا فنحن نرحب بملاحظاتك النافعة . . . فلا تتوانَ ودَوِّن ما يجول في خاطرك : -

....

....

....

....

دعوة : نحن نرحب بكل عمل جاد يخدم العربية وعلومها والتراث وما يتفرع منه ، والكتب المترجمة عن العربية للغات العالمية - الرئيسة منها خاصة - وكذلك كتب الأطفال .

عزيزي القارئ أعد إلينا هذا الحوار المكتوب على e-mail:info@dar-alsalam.com

أو ص.ب ١٦١ الغورية - القاهرة - جمهورية مصر العربية

لنراسلك ونزودك ببيان الجديد من إصداراتنا

(من أجل تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ)

(من أجل تواصل بنّاء بين الناشر والقارئ)

عزيزي القارئ الكريم :

نشكرك على اقتنائك كتابنا هذا ، الذي بذلنا فيه جهدًا نحسبه ممتازًا ، كي نخرجه على الصورة التي نرضاها لكتبنا ، فدائمًا نحاول جهدنا في إخراج كتبنا بنهج دقيق متقن ، وفي مراجعة الكتاب مراجعة دقيقة على ثلاث مراجعات قبل دفعه للطباعة ، ويشاء العلي القدير الكامل أن يثبت للإنسان عجزه وضعفه أمام قدرته مهما أوتي الإنسان من العلم والخبرة والدقة تصديقًا لقوله تعالى :

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ (النساء : ٢٨)

فأخي العزيز إن ظهر لك خطأ طباعي أثناء قراءتك للكتاب فلا تتوان في أن تسجله في هذا النموذج وترسله لنا فنتداركه في الطبعات اللاحقة ، وبهذا تكون قد شاركت معنا بجهد مشكور يتضافر مع جهدنا جميعًا في سيرنا نحو الأفضل .

الخطأ	رقم الصفحة	السطر

شاكرين لكم حسن تعاونكم . . ،

هذه القصة

دراسة تاريخية لأحداث حية في ثوب قصصي؛ حيث تقدم الحقيقة الدامغة في أسلوب حواري لا يعرف خيالًا بعيدًا عن الواقع، فعرضت لأحداث البوسنة والهرسك بصورة فنية موضوعية؛ فإن التاريخ الإنساني لم يعرف في الماضي والحاضر ذلك الحقد الأرعن والتعصب الأحمق والإسراف الباغي في سفك الدماء وقتل الأبرياء الذي كان من الصرب ضد المسلمين في البوسنة والهرسك. وقد وجد الظالمون المؤازرة من الدول الغربية والشرقية. وبعد أن ظن الجميع أن الصرب سيبيدون المسلمين في عدة أشهر ويتحقق للباغي الصربي ما يخطط له خاب ظنهم؛ لأن أهل الحق هبُّوا فاستردُّوا قراهم ومدنهم المدمرة، وألحقوا بالبغاة الهزائم.

الناشر

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر - ص.ب ١٦١ الغورية

هاتف: ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ - ٢٥٩٣٢٨٢٠ - ٢٤٠٥٤٦٤٢

فاكس: ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢+)

الإسكندرية - هاتف: ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣+)

www.dar-alsalam.com info@dar-alsalam.com

ISBN: 978-977-342-935-5

